يغئال آلون

إنشاء وتكوين الجيش الإسرائيلي

ترجمة : عثمان سعيد
مراجعة وتقديم : ناجي علوش

دار العودة . بيروت

الطبعة الأولى : تشرين أول – اكتوبر – ١٩٧١

يغال آلون

انشاء وتكوين الجيش الاسرائيلي

ترجمة : عثمان سعيد
مراجعة وتقديم : ناجي علوش

دار العودة . بيروت

يغال آلون

« دراسة تطبيقية في الاستراتيجية الصهيونية »

بقلم : ناجي علوش

١ – لماذا يغال آلون :

يغال آلون ليس رجل دولة بارزاً في دولة الاحتلال فحسب ، انه « منظّر » كبير و« استراتيجي » له اعتباره في الأوساط الصهيونية ،وله دوره الكبير في تقرير سياسة الاحتلال الصهيوني .

ويجمع يغال آلون مجموعة من الخبرات والمعارف والممارسات التي لا تجتمع لرجل سياسة إلا فيما ندر، فهو من خريجي الفوج الأول من مدرسة خضوري الزراعية في فلسطين . وقد تابع دراساته الجامعية في الجامعة العبرية في القدس وجامعة أكسفورد ، ودرس الفلسفة والسياسة والاقتصاد ، والتحق منذ حداثته (كان ابن ١٤) بالهاغاناه وسريات الميدان (فوش) . وكان من أوائل متطوعي البالماخ، وسمي سنة ١٩٤٣ نائباً لقائد البالماخ. وقاد عمليات كتيبة للبالماخ في سورية خلال

غزو الحلفاء لها في أواخر الحرب العالمية الثانيـــة ؛ وأصبح سنة ١٩٤٥ قائد البالماخ .

وحين بدأ الخلاف بين سلطات الانتداب والحركة الصهيونية بعد الحرب العالمية الثانية أشرف على عمليات « التمرد » ضد سلطات الانتداب .

ولعب في العدوان الصهيوني سنة (١٩٤٧ – ١٩٤٩) دوراً بارزاً ، فقاد سلسلة من العمليات في الجليل الأعلى وصفد واللد والرمـــلة وباب الواد (الطريق إلى القدس) . كما أنه أشرف حين أصبح قائد الجبهة الجنوبية ، على عمليات الساحل الجنوبي والنقب . وقاد حملة الزحف على سيناء من أجل إغلاق طرق الامدادات على القوات المصرية واجبارها على التقهقر ، ضمن إطار حملة « حوريب » * .

لعب آلون ، بعد ذلك ، دوراً سياسياً بارزاً في حكومة الاحتلال ، وقـــد أصبح سنة ١٩٥٤ عضواً في الكنيست ، وشغل ما بين ١٩٦١ و١٩٦٨ منصب وزير العمل ، وخـلال سنتي ١٩٦٨ – ١٩٦٩ منصب نائب رئيس الوزراء ، ووزير استيعاب المهاجرين . واختير سنة ١٩٦٩ رئيساً للجنة العليـا لشؤون المواطنين العرب في حزب العمـل الاسرائيلي . وهو

---

* إقرأ الملحق من صفحة Hart, B, H. Liddall, Strategy ٣٩٦ وما بعد ففيه تفاصيل عن هذه العملية .

الآن نائب رئيسة الوزراء ووزير المعـارف والثقافة ، وعضو لجنة الدفاع والأمن في حكومة الاحتلال . وتقرر هذه اللجنة شؤون الحرب والسلام .

ويلعب يغال آلون فوق هذا كله دوراً في ميدان الكتابة والتنظير . إن له عدداً من المؤلفات التي تعالج شؤون سياسة الاحتلال من النواحي السياسية والعسكرية . كما أنه يحرص على الكتابة في الصحف « الاسرائيلية » والأجنبيـــة ، ويجري المقابلات الصحفية الخ . ومن مؤلفاته :

١ – الستار الرملي .

٢ – درع داوود Shield of David .

٣ – ثلاث حروب وسلام واحـــد (بالعربية) وفيه مقالات ومقابلات وفصول من كتبه السابقة .

٤ – تكوين الجيش الاسرائيلي (هذا الكتاب الذي نقدم له) . وتدور هذه المؤلفات كلهـــا حول معارك الاحتلال الصهيوني ، حول استراتيجيتها وتكتيكهـا ، وحول آفاق التطور المقبل والعلاقات مع الأمة العربية .

ولكن هل من الضروري أن تصدر ترجمة هذا الكتاب بالعربية ؟. لقد فكرت طويلاً قبل أن أكتب هذا التقديم في موضوع اصدار هذا الكتاب بالعربية . ولقـــد وصلت إلى الاستنتاج بأن صدوره ضروري ولازم ، لا لأنه يقدم صورة واضحة جارحة للاستراتيجية الصهيونية وللعقل الصهيوني ،

بل لأنه يستفز العقل العربي « بصراحته » الموغلة في العجرفة العرقية العدوانية بلا حدود .

ولقد حرصت هنا أن أقدّمه لأفنّده ، من خلال دراسة عامة لأفكار آلون ولاستراتيجية الحركة الصهيونية. ولو كنت أنا مسؤولاً عن الرقابة في البلاد العربية لسمحت بالكتاب فوراً، لأن ما يقوله آلون نائب رئيسة الوزراء أوضح وأصرح وأكثر قدرة على استفزاز القارىء العربي وتعبئته ضد الحركة الصهيونية من كل المقالات والكتب والتعليقات التي نكتبها حول عدوانية الحركة الصهيونية ومخططاتها القمعية والتوسعية وبرامجها لفرض الاستسلام على الأمة العربية .

ان آلون يتحدث في هذا الكتاب عن انتصارات الاستعمار الصهيوني ، قبل سنة ١٩٤٩ ، وبعدها ، من خلال الحديث عن تكوين جيش الدفاع الصهيوني . وقصة الجيش الصهيوني لا تنفصل عن قصة الاستعمار الصهيوني في فلسطين وتطوره ، ولعلّه من الضروري لنا أن نفهم قصة « الانتصارات » هذه، وكيف حدثت وعلى ماذا اعتمدت لنكون قادرين على جعل المنتصر مهزوماً . ولن نكون قادرين على مواجهة جيوش العدو إذا لم نواجه أفكاره ، لأن الحرب هي حرب الأفكار والوعي والعلم والتنظيم ، وليست الأسلحة والجيوش إلا وسيلة من وسائلها وأداة من أدواتها .

وآلون بعد هذا ، وقبل هذا ، يفكر ويكتب لا ليقرر

مصير دولة الاحتلال ومجتمع الاحتلال ، بل ليقرر مصيرنا . ولهذا فإن علينا أن نقرأه وأن نفهمه جيداً ، لنعرف كيف سنواجه خطته التي تستهدفنا .

وما دام قادتنـا ومنظرونا لا يقرأون ماذا يكتب عدونا فلتقرأ جماهيرنا ، لأنها صاحبة المصلحة أولاً وأخيراً ، ولأنها صاحبة الوطن ، وهي التي ستتشرد وتشقى وتجوع .

٢ – أفكار يغال آلون :

يغال آلون استمرار لمدرسة المفكرين الصهيونيين : هس ، بنسكر ، هرتزل ، نوردو ، أحدها عام ؛ ولمدرسة الصهيونيين العمليين : جابوتنسكي ، حاييم وايزمن ، دافيد بن‌جوريون *. وتشكل هاتان المدرستان المنظرون والعاملون لتطبيق النظرية وتطويرها مدرسة « متفردة »** في تاريخ الدعوات الفكرية والسياسية . وهي « متفردة » لأنها نسيج وحدهـا من بين كل الدعوات الفكرية والسياسية والاجتماعية . وهي بمقدار مـا تتشابه مع الدعوات القومية في القرنين التاسع عشر والعشرين (الحركة القومية الايطالية ، الحركة القومية الالمانيـة) في تركيزها على الأمة وخواصها العرقية وتفوقها ، واحتقارهـا

* – ترجى قراءة : الفكرة الصهيونية ، النصوص الأساسية ، مركز الأبحاث .

** – وفرادتها من فرادة أوضاع اليهود في العالم وفي التاريخ .

لكل ما عداها من الأمم ، فإنها تختلف معها أيضاً . إن فيها من تلك الدعوات رومانسيتها وانكفاءها إلى الماضي وتأليهها لذات الأمة واللغة والتراث والتاريخ ، ولكن فيها أيضاً تأليهاً للأرض وتقديساً للعلاقة بها ، كما لم تعرف حركة قومية أخرى. وبينما كانت الدعوات الأخرى تتحدث عن « أمة موجودة » معروفة ، لها تاريخها المتواصل ، وأمجادها المشهورة ، وتراثها المدوّن المحفوظ ، فان مفكري الصهيونية نظّروا لوجود أمة كانت وانتثرت ، ولحضارة بدائية قامت واندثرت ، واعتبروا أن مهمتهم الأولى والأخيرة إعادة خلق هـــذه الأمة وبعث « حضارتها » بتجميع يهود العــالم ، غير المنحدرين من اليهود الأوائل[1] وبإعادة بناء الهيكل .

ولقد قام قادة الاستعمار الصهيوني في فلسطين بتطبيق هذه النظرية ، وبتجسيدها عملياً من خلال تهيئة فلسطين لاستيعاب « المهاجرين » ، وتهيئة الظروف لاسكانهم وحمايتهم وخلق مجتمع متماسك منهم . وهنا كان يختلف هؤلاء عن القادة الالمان والايطاليين والسلافيين والبولنديين والروس الخ الذين عملوا على توحيد أمم موجودة حية وتحقيق الاستقلال القومي لها .

وبينما كانت الدعوات القومية الأوروبية برجوازية وغيبية فانها كانت على العموم ضد الكنيسة وضد سيطرتها ، وكان

١ – حمدان ، جمال : اليهود انثروبولوجياً ، دار الكاتب العربي – القاهرة .

منظروها وفلاسفتها معادين ألداء لسلطات الكنيسة وللدين في أكثر الأحيـان . أما الدعوة الصهيونية فلم تكن منفصلة عن الدين اليهودي ، ولا متصادمة مع الكهنة . وهي في تقديسها للأرض وتمسكها بأسطورة أرض المعاد وتفوق شعب «اسرائيل» إنما تكرّس جوهر الديانة اليهودية ، وكثيراً من طقوسها .

وإذا كانت الدعوة الصهيونية قد أخـــذت عن الدعوات القومية الاوروبية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قضية البعث القومي وتفوق الأمّة وفرادتها وعظمة تاريخها ، فإنهـا أخذت عنها أيضاً تبرير الاستعمار وسحق الشعوب الاخرى . فالأمة ذات متفوقة ، وهي باعتبارها ذاتاً متفوقة مطالبـــة بتمدين الآخرين ، وخاصة إذا كانوا من الشعوب « الهمجية » . ولا مانع من أن يعني هـــذا التمدين الاستيلاء على الأرض والثروات وإبادة « الهمج » وتشريدهم ؛ لأن مصالح « الذات العليا » فوق الأمم والشعوب .

ولقـــد طبّق الاستعمار الغربي هذه السياسة على الشعوب الاخرى ، باسم عبء الرجل الأبيض ، أو باسم المحافظة على مصالح الأمة والدولة ، ولكن الحركة الصهيونية وجدت مبرراً آخر : الحق التاريخي والعودة إلى أرض الجدود * . إلا أن

* – شايدل ، فرانتس ، اسرائيل امة مفتعلة ، ترجمة محمد حديد ، دمشق ، ص ١٧٠ .

الفرنسيين في الجزائر والبيض في روديسية وجنوب افريقية لم يحتاجوا إلى عذر واهٍ كهذا، وفعلوا هناك ما فعله الصهيونيون هنا. كما أن المستعمرين البيض لم يبحثوا، عندما أبادوا الهنود الحمر في أميركا الشمالية، عن مبرر مثل هذا. وهكذا يكون هذا «المبرر» بديلاً للمبررات الأخرى، أو تستيراً لها، لأن المستعمرين الصهيونيين لا يفوتهم أن يتحدثوا عن دورهم التمديني في هذه المنطقة «المتخلفة» المحتاجة إلى علمهم وخبراتهم[٢].

وإذا كان الاستعمار في اوروبة تعبيراً عن حاجة الطبقات السائدة إلى أسواق، وإلى مطامحها في السيطرة والسلطان، فان الاستعمار بالنسبة لدولة الاحتلال الصهيوني أساس وجودها. لقد كانت الأمة المزعومة أشتاتاً ومواطنين أجانب أغراباً مختلفي اللغة والثقافة والمواطنية. ثم أنشئت المستعمرات «نواة الأمة الجديدة» بنقود الرأسمالية الصهيونية، وبتأييد الأوساط الاستعمارية الغربية. وما لبثت المستعمرات أن نمت في ظل الاستعمار البريطاني في فلسطين، حتى جاء الوقت الذي تحتل فيه ثلثي أراضي فلسطين وتشرد سكانها. وها هي اليوم تحتل فلسطين كلها وأراضي عربية أخرى، وتطلب من الأمة العربية أن تخضع وأن تفتح أسواقها وحدودها للخبرات والفنيين ورؤوس الأموال القادمة. ان ما تجمع من الشتات

---

٢ – يبدو هذا واضحاً جلياً في تصريحات القادة الصهيونيين.

يصبح «أمة» ، ويبدأ سياسة الاستعمار ، كما بدأها الأوروبيون في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر والعشرين.

ومع أن فكرة قيام دولة صهيونية في فلسطين قد فكر بها المستعمرون الأجانب : البريطانيون والفرنسيون خاصة منذ أوائل القرن الماضي ، ومع صعود موجة الاستعمار الأوروبي وانتشار سيطرته ، فان البداية السياسية المنظمة لم تبدأ إلا بوعد بلفور سنة ١٩١٧ ، عند قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية . وكان نمو هذا المشروع الاستعماري يتناسب طردياً مع سقوط فكرة الاستعمار. وحين قامت دولة الاحتلال الصهيوني كانت الاشتراكية تسيطر على ثلث سكان المعمورة ، وكانت الدول المستعمَرة في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية قد استقلت أو سارت على طريق الاستقلال . والجدير بالذكر أن انتصارات دولة الاحتلال كانت تزداد وتتعزز كلما انهارت المواقع الاستعمارية، وكلما تقدمت حركات التحرر الوطني والحركة الشيوعية العالمية .

وكانت الحركات القومية الاوروبية متصارعة متحاربة ، بريطانيا ضد فرنسا ، وفرنسا ضد المانية وروسية وروسية ضد فرنسا والمانيا وتركية . وكانت الحربان العالميتان الأولى والثانية بسبب هذه التناقضات والصراعات ، كما أن هذه التناقضات والصراعات ما زالت قائمة داخل المعسكر الرأسمالي؛ حتى بعد أن انعقد لواء القيادة للولايات المتحدة الأمريكية .

أما الحركة الصهيونية فهي الحركة الوحيدة التي نظّر لنشوئها الاستعماريون ، وتبنتها ورعتها الأوساط الاستعمارية ، ثم ساعدتها على تحقيق أهدافها ، وما زالت تمدها بكل أسباب البقاء والسيطرة . وما ذلك إلا لأن الحركة الصهيونية نمت في أحضان الاستعمار البريطاني وترعرعت في أحضان الامبريالية ، وهي من حيث الايديولوجية والأهداف تنسجم مع ايديولوجية الاستعمار والامبريالية ومصالحها ومطامحها .

وما كان ممكناً أن يوجد الاحتلال الصهيوني لو كان الاستعمار والامبريالية لا يريدان بقاءه ولا يوافقان على استمراره . ولم يكن بعد مخطط مرسوم لحماية مصالحهما .

وفي الوقت الذي كانت فيه الحركات القومية الأوروبية خطوة تقدمية إلى الأمام ، أنهت عالم أوروبا الاقطاعي البطريركي المتخلف ، ووحدت الشعوب المجزأة قومياً ، ووضعت أساس تطورها البرجوازي ، فإن الحركة الصهيونية تعارض اتجاه تمثل اليهودي، وهو اتجاه التقدم في العالم الحديث* وتسعى لاستقطابهم في « غيتو كبير » . وهي فوق ذلك تلعب دوراً تهديمياً بالنسبة لنهضة الأمة العربية لأنها تسعى إلى ما يلي :

١ – إبقاء الأمة العربية مجزأة سياسياً، وتكريس الانقسامات الطائفية في صفوفها ، وتحريض الأقليات الدينية على التمرد والعصيان والارتباط بالقوى الاستعمارية .

* ـ وهذا هو رأي لينين: الأعمال الكاملة، المجلد السابع (بالانجليزية) ص١٠١

٢ – إخضاع المنطقة العربية للسيطرة الصهيونية والامبريالية وفتح أسواقها وحدودهـا لرؤوس الأموال والخبرات والفنيين الأجانب عامة والصهيونيين خاصة .

٣ – منع التطور القومي والنهضة القوميـة بالقوة والعنف وفرض الخضوع والاستسلام والمذلة والشعور بالضعف والتخلف .

ويغال آلون يُجسّد هـذه الفلسفة القومية الدينية البرجوازية العرقية الغيبية . وهو ينظّـر لها ويمارسها ، يكتب عنها ويقاتل من أجلهـا . وهو يلعب دوراً سياسياً ودوراً فكرياً ودوراً عسكرياً .

٣ – آلون يُجسّد الاستراتيجية الصهيونية في المرحلة الحالية

« آلون رجل عسكري وخطته تجسد اعتبارات استراتيجية » هـذا ما قاله أحد مقابليه [٣] ، ولكني أقول أكثر من ذلك : « آلون سياسي وأفكاره تجسد الاستراتيجية العامة للاحتلال الصهيوني في فلسطين » .

وإذا كان هـذا الشمول واضحاً في كل كتبه ومقابلاته ودراساته ، فإنه واضح أيضاً في ممارساته . فلقد قـام بهـذا

---

3 - Jo and Mer. Vol, XVII, No. 52. 1968 P. 6-7 interview

الدور وهو في البالماخ ، ثم عندما أصبح نائباً فوزيراً للعمل ، ووزيراً لاستيعاب المهاجرين ونائباً لرئيس الوزراء بعد ذلك . وواصل مهماته حين أصبح نائباً لرئيسة الوزراء ووزيراً للمعارف والثقافة وعضواً في لجنة الأمن والدفاع بمجلس الوزراء . وهو فوق ذلك من المرشحين البارزين لرئاسة الوزراء في دولة الاحتلال ؛ إن لم يكن أبرز المرشحين .

ولقد قالت عنه إحدى الصحف حين بحثت موضوع التنافس على رئاسة مجلس الوزراء : « انه ملتصق بالتراب ، يفهم العرب الذين ترعرع بينهم ، وهو مقاتل كل حياته ، وبطل طريقة الحياة الجماعية ، وكان عضواً مؤسساً لكيبوتس جينوسّار على شواطيء بحيرة الجليل منذ كان ابن تسعة عشر عاماً »[٤] وهو ذو « سجل عسكري باهر » .

ان هذا الصهيوني النموذجي إذن رجل استراتيجي . وهو لذلك يبحث كل القضايا من زاوية الاستراتيجية الشاملة أو القومية[٥] . وإذا كان من الطبيعي أن تخضع السياسة الخارجية والسياسة الداخلية نحو العرب في الأراضي المحتلة

4 — Israel Magazine ; Take Five. Vol. 1, No· 10, 196 9, P. 23-27.

٥ - الهيثمي : محمد فاروق ، في الاستراتيجية الاسرائيلية ، مركز الأبحاث (نوفمبر) ١٩٦٨ ، ص ٢٨ ، وليدل هارت : الاستراتيجية وتاريخها في العالم ، دار الطليعة، طبعة ثانية ، ص ٣٩٥

واستراتيجية العمل العسكري للاستراتيجية الشاملة ، فإن آلون لا ينسى أن يخضع حتى قضايا العمال والتعليم لهذه الاستراتيجية عندما يتحدث عنها . المجتمع كله ، فيما يرى ، مطالب بأن يحقق استراتيجية واحدة : هي استراتيجية الاحتلال الصهيوني .

فحين تحدث آلون ، وكان وزيراً للعمل، عن العمل والعمال تحدث عن :

١ « زيادة انتاجية السكان والاقتصاد في اسرائيل » .

٢ – « تسريع عملية التصنيع من جهة وتكثيف الزراعة في الأجزاء الأقل تطوراً من اسرائيل من جهة أخرى » .

٣ – « بذل جهد خاص ... لزيادة الانتاج بالنسبة لكل وحدة عمل ولتحسين النوعية وتخفيض الكلفة » .. وذلك من أجل أن تتمكن دولة الاحتلال « من المنافسة في الأسواق العالمية ، حيث النوعية والسعر حاسمان » .

٤ – من واجب الهستدروت أن يواصل القيام بدوره بانسجام مع مخطط الدولة .

٥ – وعلى الطبقة العاملة أن تعد نفسها للقيام بمهامها من خلال استعدادها لمزيد من الانتاجية وتسليمها بمستويات الانتاج

الاوروبية ، وأن تكون مستعدة لقبول ظروف العمل التي يفرضها الوضع الخاص في دولة الاحتلال[٦] .

وحين تحدث في حفلة تخرج، وكان وزيراً للمعارف والثقافة لخص استراتيجية دولة الاحتلال الصهيوني في ست نقـاط ، منها :

(١) « ٢ — تعلـيم الجندي أن الهدف من خدمته ليس أكثر من الدفاع عن المجتمع ، وانه حتى عندما يكون هنالك عمل هجومي محدد بالمعنى العملياتي فإن هذا العمل يبقى دفاعياً من وجهة النظر الاخلاقية » .

(٢) « ٥ — الاعتراف بان اسرائيل سوف « تستضيف أقلية عربية ذات حجم وانها ستكون محاطة دائماً بجيران عرب » .

ولم يفته ان يدعو في هذه المناسبة إلى السلام «لأن جيلاً يتوقف عن الايمان بالسلام سوف لا يؤمن بالحلول السلمية ، وسوف يقبل حالة الحرب الدائمة على أنها الوسيلة الوحيدة الممكنة للبقاء » ولكنه أضاف : « علينا أن نبني مجتمعنا كما لو أن حالة الحصار غير موجودة ، وأن نبقي

6 — Jewish Observer : Vol : 14, No. 4, Jan. 1965, P. 7-9.

عليه في حالة حرب في الوقت ذاته »[٧] .

وفوق هذا كله فإن آلون هو صاحب المشروع المعروف باسمه ، والذي يحدد استراتيجية العدو فيما يتعلق بالأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ .

إنه يجسد الاستراتيجية الصهيونية لأنه يفلسفها وينظر لها، ولأنه يشرحها ويطرحها ، ويبيّن أهدافها وحدودها وأبعادها .

فما هي الأهداف الاستراتيجية العامة بالنسبة لألون ؟

انها تتلخص فيما يلي :

أولاً : بقاء دولة الاحتلال قوية ومسيطرة وضمان حمايتها من أي هجوم عربي .

ثانياً : التوسع السكاني عن طريق الهجرة المستمرة لحل مشكلة القلة العددية ، ولملء الفراغات السكانية في المناطق القليلة السكان أو التي هاجر سكانها.

ثالثاً : إحداث تطور اجتماعي واقتصادي وعلمي يضمن تفوق مجتمع الاحتلال على المجتمعات العربية المتخلفة .

رابعاً : إعداد مجتمع الاحتلال إعداداً عسكرياً وخلق جيش

---

7 -- Jo and Mer. Vol XIX, No. 8, Feb. 20, 1970, P. 14.

مدرب جيداً ومسلح جيداً يستطيع تحقيق انتصار سريع حاسم ويكون قوة ردع فعالة[٨] .

خامساً : فرض حدود ملائمة تؤمن إمكانيات الدفاع عن دولة الاحتلال وامكانيات الهجوم على المراكز المأهولة والصناعية في البلاد العربية .

سادساً : فرض إتفاقية « سلام » على الأمـــة العربية تؤمن الاعتراف بدولة الاحتلال وتضمن لها « الحركة الحرة للسلع والرجال والأفكار »[٩] .

الهدف الأساسي من بين هذه الأهداف هو البقـاء ، بقاء دولة الاحتلال وبقاء مجتمع الاحتلال . ويجري التركيز دائمـاً على هذا الهدف لاستدرار عطف الرأي العام العالمي من جهة ، ولتعبئة الرأي العام الداخلي من جهة ثانيـــة . الصرخة التي تطلقها أبواق الاحتلال دائمـــاً : وجودنا في خطر ، ونحن مهددون في وجودنا . وهذه الأبواق جازمة كل الجزم في هذا الاعتقاد جزم القاتل الذي يحس أن شبح القتيل يطـارده أينما ذهب . انه يحس أن عيناً تطارده حتى لو اختفى في جُبّ .

---

٨ -- آلون، يغال : ثلاث حروب وسلام واحد ، دار النهضة للنشر ط . أ سنة ١٩٧١ (بالعربية) ص ١٨٧ .

و : العابد ، ابراهيم : مدخل إلى الاستراتيجية الاسرائيلية ، مركز الابحاث ، ص (٩ – ١٧) .

٩ — Jo and Mer: Vol. XVII, No. 52, 1968, P.(6-7).

وهم يؤكدون هذا الاحساس دائماً ، و « لقد اتضح – في رأيهم -- أن الموقف العربي الأساسي تجاهنا لم يستهدف القضاء على اسرائيل كدولة فقط . بل إبادة سكانها أيضاً ، لأن كيان الدولة يقوم على أساس تركيز السكان ، وهذا التركيز لا يمكن إزالته بدون مجزرة » (١٠) . ولكي تزيد هذه الأبواق هذه الحقيقة تأكيداً يكررون دائماً أن العرب يعترفون بها . وها هو آلون يؤكد ، وهو يبرر حرب حزيران ، أن الرئيس جمال عبد الناصر اعترف : « في صراحة مذهلة أن كل هذه الاستعدادات موجهة لحرب إبادة ضد اسرائيل » (١١) .

وحماية البقاء في نظر آلون وأمثاله تبرر كل شيء : الانتقام والحرب والتوسع .

وبينما يرى دايان أن حرب سنة ١٩٥٦ أسبابها الأساسية ثلاثة : « الاستعدادات المصرية لحرب شاملة ضد اسرائيل ، أعمال الارهاب العربية التي تقوم بها عصابات مدربة ، وحصار الملاحة الاسرائيلية في خليج العقبة » (١٢) ، فإن آلون يرى

---

١٠ - هركابي ، يهوشفط : موقف اسرائيل في النزاع الاسرائيلي العربي – دار النشر العربي ، ١٩٦٨ ، ص ٦ – ٧ .

١١ – الون ، يغال ، تكوين الجيش الاسرائيلي الاسرائيلي ، الفصل الخامس ، الصفحة الأولى .

١٢ – General, Dayan : Diary of the Sina Campaining. 1956, 1967. P. 12.

أن « أوضاع الأمن السابق المشارة إليها» تركت « الاسرائيليين وليس أمامهم خيار إلا أن يلجأوا إلى حرب إجهاض» بوصفها شراً لا بُدّ منه » [١٣] . فالحرب هدفها « ضمان الكيان الذاتي » والخطر الذي يتعرض له الكيـان « هو الذي يبرر توسعنا الذي لم يكن مدبراً سلفاً ، وإنما جـاء كرد فعل لعدوانهم (أي العرب) ليس إلَّا » [١٤] .

وما قيل عن حرب سنة ١٩٥٦ قيل عن حرب سنة ١٩٦٧.

ولكي يتم ضمان « البقاء » لا بُدّ من توفير « ضمانات » متعددة أهمها :

١ – التوسع السكاني ، لأن دولة الاحتلال تمثل قلة عددية في البحر العربي الواسع . و « قلة عدد اليهود في البلاد يضعف قوة الدولة» وعليه لا بد « أن يزداد عدد اليهود بمعدل سريع لا من أجل تأمين تدعيم التفوق الديمغرافي فقط ، وإنما الزيادة مطلوبة أيضاً لتطوير السكان كقوة قومية واجتماعية مبلورة تستطيع أن تتكفل نفسها اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً وسياسياً وعسكرياً » .

ويتم النمو السكاني عن « طريق النمو الطبيعي والهجرة الجماعية » [١٥] .

---

١٣ – آلون ، يغال : المرجع السابق نحو حملة سيناء .

١٤ – هركابي ، يهو شفاط : المرجع السابق ، ص ١٠ .

١٥ – آلون ، يغال : ثلاث حروب وسلام واحد ، ص ١٨٧ .

من هنا تأتي أهمية الهجرة التي ترتبط دائماً بمسألة الأمن في نظر القادة الصهيونيين . ولا يستهدف النمو الكافي زيادة العدد فحسب ، بل خلق تكتل بشري قادر على زيادة طاقاته البشرية والانتاجية ، وعلى سد الفراغات الجغرافية . ومن هنا يربط القادة الصهيونيون قضية الأمن بالهجرة ، ويقولون : « لن يكون هنالك أمن لاسرائيل بدون الهجرة »[١٦] .

وعلى الرغم من أن الحركة الصهيونية قد عملت بشكل متواصل ومنظم منذ سنة ١٨٩٧ من أجل هجرة اليهود إلى فلسطين ، فانها لم تنجح في ذلك . ولم يزد عدد المهاجرين من يهود العالم إلى دولة الاحتلال حتى اليوم عن ١٧ ٪ فقط[١٧] . ولهذا فإنها اليوم تخوض معركة حادة مع الاتحاد السوفياتي من أجل هجرة اليهود السوفييت . وهي في ذلك لا تستهدف استقدام مهاجرين جدد فحسب ،بل تستهدف خدمة الامبريالية العالمية بالإساءة إلى الاتحاد السوفياتي عالمياً ، وإثارة «شقاقات» داخلية وخلق جو صالح لنمو عوامل التآمر والتخريب .

كما ان الهجرة تستهدف خلق واقع جديد في الأراضي المحتلة ، وهو ما يسميه الون « واقع استيطاني » « لأن

---

١٦ – الهيثمي : الدكتور محمد فاروق : في الاستراتيجية الاسرائيلية، مركز الأبحاث (٢٤) ١٩٦٨ ص ٩٤ ، اقتباساً عن بن غوريون .

١٧ – الهيثمي : الدكتور محمد فاروق : المرجع السابق ، ص ٧٤ .

الاستيطان في المناطق الحيوية وفي الحدود الملائمة هو أحد الوسائل الرئيسية في النضال السياسي من أجل تخطيط حدود آمنة »[١٨]. ثم إن هذا الواقع الاستيطاني يستهدف توفير مزيد من الامكانيات الدفاعية .

ومن هذا الباب اقترح الون الشريط على طول نهر الاردن. و «حد الأمن هذا يبقى» ، كما يقول الون ، «خطاً نظرياً ما لم يحرسه ويدافع عنه مقيمون يهود » . ويضيف الون ان هذه المستوطنات على طول النهر ستستخدم « ضماناً ضد تسلل محتمل للرجال والسلع إلى مراكز السكان في الضفة الغربية »[١٩].

٢ – ولا بدّ من أجل الحصول على تفوق سياسي وعسكري حاسم من إحداث تطور اجتماعي واقتصادي وعلمي . المجتمع « المتقدم » لا بد من أن يزداد تقدماً ليواجه بتقدمه تخلفنا . الهوة لا بد من أن تزداد بين « المتقدمين » و « المتخلفين » .

ويرى آلون أن اسرائيل تحظى «بميزة تفوق بارزة واحدة» وهي مبناها الاجتماعي ونظام حكمها السياسي . فإسرائيل دولة ديمقراطية اشتراكية وسياسية تقف أمام أنظمة حكم متخلفة ، ارستقراطية ــ اوتوقراطية ــ استبدادية مطلقة

---

١٨ – العابد ، ابراهيم : المرجع السابق ، ص ١١ .

١٩ – Jo and Mer. Vol. XVII, No. 52, 1968. P. (6-7)

ودكتاتورية مصابة حتى الصميم بالفساد الطبقي والشخصي ... »[٢٠]

ويجب أن يستمر هذا التفاوت ، كي يستمر التفوق. والزمن ليس ضد دولة الاحتلال - كما يرى ألون - « وفي المستقبل القريب لن يكون بالضرورة ضدنا لمدة جيلين آخرين على الأقل » « لأن هناك صلة وثيقة بين التقدم الاجتماعي والتنمية من ناحية والقدرة على استخدام الخبرة الفنية والعلمية السريعة التطور من ناحية أخرى »[٢١] .

ويستهدف احداث التطور المذكور :

أ - زيادة تماسك المجتمع بتقليص الفوارق الاجتماعية ورفع المستوى الثقافي .

ب - « تسريع عملية التصنيع من جهة وتكثيف الزراعة في المناطق الأقل تطوراً في«اسرائيل»من جهة أخرى»،وتطوير الصناعات الموجودة وجعل الانتاجية مساوية لتلك في اوروبة الغربية ، وزيادة انتاجية العمل وتحسين نوعية الانتاج وتخفيض الكلفة [٢٢] .

---

٢٠ - الون ، يغال : المرجع السابق ص ٩ ١ .

٢١ - آلون ، يغال : تكوين الجيش الاسرائيلي .

٢٢ - Jewish Observer : Vol. 14 No. 4 Jun. 1965 P. (7-9).

ج – تطوير الصناعات الحربية . و «لقد طرأ في السنوات الأخيرة تقدم ملموس على تطبيق البحوث العلمية والتكنولوجية والالكترونية للمصلحة العسكرية، كي تستغل في حرب حاسمة آلية وكبيرة »[٢٣] .

وتظل دولة الاحتلال بمثل هذا التقدم الاجتماعي والاقتصادي والعلمي دولة متفوقة .

٣ – ولا بُدّ من أن يصحب التوسع السكاني والتطور الاجتماعي والاقتصادي والعلمي وجود جيش قوي ، يتم تدريبه أحسن تدريب ويُسلح بأحدث الأسلحة : وذلك من أجل تأمين إمكانيات دفاع فعّال وامكانيات هجوم أكثر فعالية. أن وضع « اسرائيل » الجغرافي والبشري لا يسمح لها بقبول هزيمة . ويصور آلون هزيمة الجيش على أنها « إبادة قومية وشخصية »[٢٤] . ومن هذا المنطلق يصرخ دايان : « إننا لا نستطيع أن نخسر ... يجب أن نكرس كل مقومات حياتنا لهذا الغرض . وإذا كان ذلك يعني تضحيات جساماً فيجب أن نقبل بها »[٢٥] .

---

٢٣ – آلون ، يغال : ثلاث حروب وسلام واحد ، ص ١١٢ .

٢٤ – العابد ، ابراهيم : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

٢٥ – العابد ، ابراهيم : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

ولكي لا تحدث الهزيمة أبداً ويحدث النصر دائماً كان لا بُدّ مما يلي :

أ – إخضاع كل الحياة في دولة الاحتلال لحاجات الحرب. ومن هنا كان على السكان والاقتصاد والسياسة أن تصبح جزءاً من استراتيجية حرب طويلة المدى .

وقد « عالجت اسرائيل موضوع نقصها الديموغرافي بتنظيم جيش احتياط يمتاز بمستوى وعي استعدادي مرتفع ، وكفاءة حربية ممتازة ، وكذلك بدمج معظم أبناء الشعب في المجهود الحربي على اختلاف أنواعه »[٢٦] . والحل هـــذه المعضلة حلاً جذرياً ، بنت دولة الاحتلال قواتها المقاتلة على أسس أربعة : « جيش نظامي صغير ، الخدمة الوطنية أو التجنيد الاجباري ، الاحتياط ، الدفاع الاقليمي القائم عن المستوطنات »[٢٧] .

وتستخدم هذه القوى كلها استخداماً فعـــالاً في حالات الحرب ، وحسب مخطط مُعَدّ مسبقاً .

وبما أننا تحدثنا عن الاهتمام الزائـــد بالتطور الاجتماعي والاقتصادي والعلمي فلن نعود إلى ذلك الآن .

---

٢٦ – آلون ، يغال : المرجع السابق ، ص ١١٠ .

٢٧ – Allon, Yigal : Sheild of David, Weidenfeld and Nicolsan, 1970, Chap. 7· P. 232.

ب – إعداد الجيش إعداداً كاملاً تامـــاً للقتال بتدريبه أحسن تدريب . ويركز القـــادة الصهيونيون على موضوع التدريب . ويرى آلون أن « مستوى وكفاءة التدريب » قد ساهم « في إعداد الجيش للمواجهـــة الحقيقية وتحقيق النصر . وذلك بفضل التدريب الفردي في نطاق تدريبات الوحـدات الرئيسية ، بمـــا في ذلك التدريبات التكتيكية والتمرينات الجماعيـــة في ظروف مشابهة بقدر المستطاع لظروف المعركة الحقيقية »[٢٨] ، كما يجري الاهتمام بما يسميه آلون « بلورة جيش الدفاع الاسرائيلي كجيش ذي قيم إنسانيـــة ورسالة اجتماعية وقومية وتنمية روح الطاعـــة الناجمة عن الوعي ، وتحديد مقاييس للشجاعة غير المقيّدة »[٢٩] .

وبينما ينص برنامج التدريب المعمول به حالياً على أن يكون التدريب اجبارياً من سن ١٥ إلى ٤٩ للرجال والنساء ؛ فان جيش دولة الاحتلال « يواكب التقدم العسكري علمياً ويتلقى أحدث أنواع التدريب »[٣٠] .

---

٢٨ – آلون ، يغال : ثلاث حروب وسلام واحد ، ص ١١٢ – ١٣٣ .

٢٩ – آلون ، يغال : المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

٣٠ – الكيلاني ، هيثم : المذهب العسكري الاسرائيلي ، م ، أ ، ١٩٦٩ ، ص (١٦٢ – ١٦٣) .

ج - الحصول على السلاح الأكثر حداثة ، وذلك من أجل احراز تفوق عسكري . ويؤكد آلون أن ليس أمـام دولة الاحتلال خيـار « سوى تجهيز جيش الدفـاع بأحدث المعدات » [٣١]. ولا بد من أجل الحصول على أحدث المعدات من أمرين أولهما : توثيق العلاقات مع الدول المنتجة وثانيهما : تطوير الصناعات العسكرية محلياً .

وما يأتي بعد هذا يكون ضمن نطاق الاستراتيجية . وهو ما سنبحثه فيما بعد .

٤ - وفوق هذا وذاك لا بد من حـدود لدولة الاحتلال تيسّر الدفاع ، كما تيسر الهجوم . حدود ما قبل حزيران لم تكن كذلك . ولقد كانت دولة الاحتلال : « ساحلاً ضيّقاً ، ظهرها إلى البحر، مطوقة من اليابسة، ومهددة بحصار بحري، ومفروض عليها أن تصمد وحيـدة أمـام هـذا الطوق الكامل »[٣٢] . أنهـا « تفتقر إلى العمق الجغرافي »[٣٣] . وكثيراً ما تحدث القادة الصهيونيون عن مشكلة العمق الجغرافي قبل حزيران وبعـده . ولكن حرب حزيران خلقت ظروفاً جديدة جعلت آلون يعلن: «ان المعطيات الجغرافية والسياسية

---

٣١ - العابد ، ابراهيم : المرجع السابق ، ص ٤٤ .

٣٢ - آلون ، يغال : المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

٣٣ - آلون ، يغال : المرجع السابق ، ص ١١٠ .

الحالية تمنح اسرائيل إمكانيات جديدة تجعلهـا غير قابلة للاحتلال» . ولا يكتفي آلون بذلك بل يرى أن عليهم تدعيم تجمعاتهم « الدفاعية في ظروف طوبوغرافية مريحـة وإعداد المناطق الجديدة كقواعد هجومية ، فيما إذا فرض العدو على «اسرائيل» حرباً جديدة » . ولم يفته أن يشير إلى الأهمية الكبرى « لحقيقـة وجود قوات لجيش الدفاع الاسرائيلي في جميع الجبهات، قريبة من المراكز المأهولة والمراكز الاقتصادية، بما في ذلك عواصم جميع الدول المجاورة » . وآلون بعد هذا لا يعفي نفسا من تحديـد ميزات الحدود الجديدة مع سورية والاردن ومصر [٣٤] . ويضيف آلون تعبيراً عن هذه القناعة بـ « أن وجوداً اسرائيلياً مدنياً وعسكرياً وسياسياً في التجمع الاستراتيجي الطبيعي يؤمن للدولة عمقـاً جغرافياً ومواقع طوبوغرافية دفاعية مريحـة ، وهو القاعدة لضمان الأمن الاسرائيلي » [٣٥] .

هنا يبرر الاحتلال المزيد من الاحتلال بحجة خلق الحدود الملائمة للدفاع والهجوم . وليس مشروع آلون إلا حلقـة من حلقات هذا الوجود المدني والعسكري .

---

٣٤ – آلون ، يغال : المرجع السابق، ١٣٧ – ١٣٨ .

٣٥ – آلون ، يغال : المرجع السابق ، ١٥٩ .

٥ – ويتوّج هذا كله إتفاقية سلام تفرض على الأمــة العربية فرضاً : « الاعتراف بالأمر الواقع » ، تعترف فيهـا الأمة العربية بوجود دولة الاحتلال وبحدودها الآمنــة . « فالسلام لا بُدّ آتٍ بحكم عامل الزمن وحتمية الواقع »[٣٦].

ويعترف آلون ، كما يعترف غيره ، أن إمكانيات « السلام » « لا تزال بعيدة المنال » ، ولكنه على الرغم من ذلك يرى « أن الواجب يقضي على « اسرائيل » أن تخطط لإمكانيات حلول مؤقتة أو ثابتة تؤكد فيها للحكومات العربية ، وعلى الأخص للشعوب العربية بالذات أهمية الفائدة التي تجنيهـا في المستقبل نتيجة لمعاهـدات السلام والتعاون الاقتصادي مع اسرائيل »[٣٧] .

كيف يتحقق السلام ؟

انه لن يتحقق إلا نتيجة تفوق عسكري اسرائيلي حاسم، يُضطر العرب بسببه للاعتراف بالأمر الواقع . السلام يكون إذن نتيجة الاستسلام ، وبالتالي التسليم . والعرب لا يمكن أن يفهموا غير سياسة العصا الغليظة . وهم لا يتعلمون ، فهم بعد حرب حزيران « أضاعوا الدرس دون أن يتعلموا منه ، كما كانت الحال سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ » فهل سيتعلمون يوماً ؟

---

٣٦ – آلون ، يغال : المرجع السابق ، ١٨٧ .
٣٧ – آلون ، يغال : المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

ان ألون يؤكد « أنه يبــدو ان الدرس سوف لا يجري تعلمه أبداً » (٣٨) .

٦ – ولكن هذا كله لا يحقق نصراً فالذي يحقق النصر هو الخطة القتالية القائمة على الاستراتيجية الواضحة المحددة ذات الطبيعة الهجومية ، القادرة على إحباط مخططات العدو ، قبل تنفيذها أو عند البدء بتنفيذها أو بعد البدء .

وعليه فلا بُدّ من أن تقوم الاستراتيجية العسكرية لدولة الاحتلال على ما يلي :

أ – وجود قوات عسكرية، يكون وجودها عامل ردع، يخيف الخصم ، ويجعله عاجزاً عن دخول ميدان القتال . وهذا ما تحدثنا عنه في فقرة سابقة .

ب – اعتبـــار الهجوم أحسن وسيلة للدفاع . ومن هنا طوّر آلون نظرية ما أسماه حق الهجوم المضاد المسبق . فما الذي يعنيه الهجوم المضاد المسبق ؟ أنه يعني القيـــام بهجوم شامل وصاعق على « العدو » قبل أن يبدأ هجومه المتوقع . وقد يشن الهجوم المضاد المسبق « أحياناً قبل شهور وأحياناً قبل أسابيع وأحياناً قبل أيام قليلة من هجوم العدو المتوقع . وذلك لضمان قلب المائدة عليــه . وعندما لا يكون هناك

٣٨ – Allon, Yigal : Shield of David P. 266.

مخرج آخر ، قد يكون من الضروري للقوات الاسرائيلية أن تسبق الغزو ولو بساعات قليلة ... المهم أن تسبقه »[٣٩] .
ان هذا الهجوم المضاد المسبق حق . وهذا الحق تمارسه دولة الاحتلال « كلما تأهب (العدو) لهجوم فعلي عليها ، وكلما نقض التزامات ذات قيمة أمنية صرفة » . وقد طوّرت دولة الاحتلال قواتها لتستطيع القيام بهذه المهمة .

ويكون هذا الهجوم المضاد المسبق في الحالات التالية :

الأولى : « حشد قوات العدو بصورة فعلية ومرئية وملموسة بغرض القيام بعملية هجومية » .

الثانية : « تدهور جذري في حالة الأمن بصورة عامة نتيجة خرق العدو لتعهداته »[٤٠] .

ويوضح آلون الحالات التي يجوز لدولة الاحتلال فيها تخطي « خطوط وقف اطلاق النار لعملية غزو قصيرة المدى أو للبقاء مدة أطول » . وهذه الحالات هي :

الأولى : « لغاية مكافحة الحرب الارهابية والتخريبية التي تنفذ من قواعد موجودة وراء خطوط وقف اطلاق النار ، عندما لا تتوفر امكانية صدها بوسائل محدودة » .

---

٣٩ - آلون ، يغال : تكوين الجيش الاسرائيلي ، الفصل الرابع .
٤٠ - آلون ، يغال ، المرجع السابق ، الفصل الرابع .

الثانية : « بغية تقديم العون لحلفاء في الدول المجاورة » .

الثالثة : « في حالة تغيير خطير الوضع في بلد مجاور » .

الرابعة : « في حالة الهجوم علينا أو في حالة تحشد قوات العدو واستعدادها للهجوم »[٤١].

وعلى الرغم من نتائج حرب حزيران فإن آلون ما زال يعتبر بأن من واجب دولة الاحتلال «المحافظة على حقها الأدبي وكفاءتها العملية للقيام بهجوم معاكس مسبق طالما لم تتوافر بعد ظروف تنعدم فيها احتمالات نشوب حرب جديدة »[٤٢].

ج – وجود مصلحة استعلامات (مخابرات) قادرة على جمع المعلومات وفرزها وتحليلها بسرعة فائقة ودقة فائقة تجعلانها مؤهلة لمتابعة التطورات وإعطاء صورة صحيحة عنها ، وتتيح للقيادة اتخاذ القرارات السليمة في الوقت المناسب . ودولة العدو لديها مثل هذه المصلحة التي يعتبرها آلون « من أنجع وأوثق وأقدر مصالح الاستعلامات في العالم ، وذلك من ناحية جمع المعلومات والدقة في تحليل التطورات العسكرية والسياسية والاجتماعية في معكسر العدو » [٤٣] .

---

٤١ – آلون ، يغال ، ثلاث حروب وسلام واحد ، ص ١٧٨ .

٤٢ - آلون ، يغال ، المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

٤٣ – آلون ، يغال ، المرجع السابق ، ص ١١٢ .

د – القيام دائماً بالمفاجأة والمبادأة استراتيجياً ، وإن لم يكن ممكناً فتكتيكياً ، كما حصل في الخامس من حزيران . وهذا يقتضي ألا يسمح لنـــا – نحن العرب – بالاستفادة من المفاجأة والمبادأة [٤٤].

هـ – اعتبار أن الحرب ، أية حرب ، يجب أن تكون قصيرة وحاسمة . هذا ما حدث سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ ، وهذا ما يجب أن يحدث في المستقبل . أما الأسبـــاب فهي « عسكرية وسياسية » [٤٥].

و – نقل المعركة إلى أرض العدو . وهذا من وجهة نظر آلون « مبدأ أمني لا يعرف معنى للتراجع » [٤٦] . ولقـــد طبق العدو هذا المبدأ سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ .

٧ – وانتهجت دولة الاحتـلال في الميدان الدولي سياسة مرنة وبارعة استهدفت :

أ – إقامة علاقات وثيقة مع الدول الكبرى ، مع عدم الاعتماد على دولة واحدة ، وذلك لضمان الدعم السياسي من جهة والحصول على الأسلحة المتطورة من جهة أخرى .

---

٤٤ – آلون ، يغال ، المرجع السابق ، ص ١٢١ .
٤٥ – آلون ، يغال : تكوين الجيش الاسرائيلي ، الفصل الرابع .
٤٦ – آلون ، يغال : ثلاث حروب وسلام واحد ، ص ١١٠ .

ب – « إقامة علاقات مع الدول الصغيرة»، وخاصة الدول النامية في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية »[٤٧] من أجل علاقات سياسية أوسع وأسواق تجارية أرحب .

ومع ذلك فإن دولة الاحتلال لا تسمح لنفسها بالاعتماد على السياسة الدولية فحسب ، لأنها لا تثق بسلامة الاعتماد على « ضامن » أجنبي . ويعطي آلون مثلاً على ذلك مستقىً من عدم نجاعة « تعهد الدول البحرية سنة ١٩٥٧ ولا قوات الطوارىء » فيما يتعلق بخليج العقبة [٤٨] . كما أن قادة دولة الاحتلال لا يفتأون يتحدثون ، عند الحديث عن ضرورة تعدد العلاقات الدولية مع الدول الكبرى ، عن موقف فرنسا من إيقاف صفقة الميراج بعد حرب سنة ١٩٦٧ .

وعلى الرغم من انتهاج هذه السياسة عالمياً ، فإن دولة الاحتلال تركز اهتمامها على العلاقة مع الولايات المتحدة ، ويعود ذلك إلى سببين ، أولهما : اهتمام الولايات المتحدة بمنطقة الشرق الأوسط نتيجة حرصها على ضمان مصالحها فيها . وثانيهما : امتلاك الولايات المتحدة لتكنولوجيا الأسلحة الأكثر تطوراً .

---

٤٧ – آلون ، يغال تكوين الجيش الاسرائيلي ، الفصل الرابع .

٤٨ – آلون ، يغال : ثلاث حروب وسلام واحد ، ١٣١ .

وحين يتحدث آلون عن هذه الحقيقة لا يخفي الحقائق بل يكشفها . فهو يؤكد أن العلاقات بين الولايات المتحدة واسرائيل « علاقات ودية متينة » أما العوامل التي ساعدت على ذلك فهي « مصلحة اميركا في الحفاظ على الأوضاع الراهنة في الشرق الاوسط ، وكذلك العطف العميق الذي يكنه « لاسرائيل » جزء كبير من الشعب الامريكي من اليهود وغير اليهود على السواء » . وبسبب هذا ، بسبب هذة الحقيقة « الجغرافية السياسية » ولأن الحفاظ « على الأوضاع الراهنة في الشرق الاوسط ، بالنسبة للولايات المتحدة مهم لا أقل ، ولربما أكثر ، مما هو عليه في جنوبي شرقي آسيا » فقد أصبح وجود دولة « اسرائيل » مستقلة وقوية في قلب الشرق الأوسط ، وعلى شواطىء البحر المتوسط .. مصلحة امريكية أيضاً » . وإذا كانت الولايات المتحدة مضطرة « إلى إراقة دماء أبنائها للمحافظة على أوضاع راهنة غير مستقرة » في جنوب شرق آسيا ، « فإن « اسرائيل » تقوم بمهمة الدفاع عن كيانها بقواها الذاتية » وهي لا تشترط شيئاً غير تزويدها بالمعدات الحربية [٤٩] .

ان هذه العلاقة « الودية المتينة » ذات أهمية خاصة بالنسبة للوجود الصهيوني في فلسطين . ومهما حاولت دولة الاحتلال

---

٤٩ - آلون ، يغال : المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

أن توسع نطاق علاقاتها، فإنها مجبرة على أن تأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار. ووجود هذه المصلحة المتبادلة: حاجة الولايات المتحدة إلى الدور الذي تلعبه دولة الاحتلال وحاجة دولة الاحتلال إلى مساندة الولايات المتحدة ومساعدتها هو الذي يفسّر هذه العلاقة « الودية المتينة » . وما دامت الولايات المتحدة حريصة على مصالحها في منطقة الشرق الاوسط ، فإنها ستكون حريصة على بقاء دولة الاحتلال واستمرار تفوقها . وهذا يعني استمرار التأييد واستمرار تدفق المساعدات .

٤ – نظرة يغال آلون إلى الشعب الفلسطيني والأمة العربية

تجسم نظرة يغال آلون للشعب الفلسطيني وللأمة العربية نظرة الحركة الصهيونية . انها نظرة عرقية عمياء فيها الكثير من الاستهتار والكثير من الاستخفاف .

وتقوم نظرة يغال آلون إلى الشعب الفلسطيني والأمة العربية على المنطلقات التالية :

الأول : أن « لليهود » حقاً تاريخياً في فلسطين ، وأن هذا الحق التاريخي هو الذي يقرر مصير المنطقة ، ولا حق

سواه (*) . ولكن ما هي حدود هـذا الحق ؟ وإلى أين تمتد رقعة هـــذا الحق التاريخي ؟ هنالك إجابات مختلفة آخرها جواب آلون الذي يقول : «أما فيما يتعلق بالروابط التاريخية ، فلا يقتضي علينا أن نقيّد سياستنا بمقياس الخـارطة القصوى التي عرفهـا التاريخ كمفهوم أدبي ، قومي وسياسي » . وعند عدم التقيد بمقياس الخارطة القصوى « لن يكون هنالك مجال لاعتبار هذه الخطوة كعملية ضم حسب المفهوم السياسي ولا كعمل باطل من الناحية الأدبية »(٥٠) .

وعلى هذا : « ليس للمملكة الأردنية أي حقوق تاريخية أو سياسية شرعية للمطالبة بملكية ما يسمى الضفة الغربية »

---

* – ولقد اكتشف بعض الصهيونيين ان هذا الادعاء وحده لا يكفي. قال أوتو واربورغ رئيس المنظمة الصهيونية العالمية (١٩١١ – ١٩٢٠): « ان الحق التاريخي الذي يستند على امتلاكنـــا لفلسطين قبل ألفي سنة لا مفعول له وحده ، وفي حد ذاته بنظر الدول الكبرى ، بل يتوجب علينا إيجاد صيغة عصرية لذلك الحق ، كي تضاف إليه. هذه الصيغة تقوم على ان تُظهر ، ان لم يكن شرعياً أو حقوقيـــاً de juye فبحكم الواقع الفعلي de facto ، أن فلسطين تخضع لنفوذنا الاقتصادي ، وان جميع ما أحرزته تلك البـــلاد من تقدم كبير وملموس يرجع في الأصل إلى مبادرتنا وقوة وسائلنا الاقتصادية وفعاليتها ، ولم يتم إلا بفضلها». العظم، صادق جلال : دراسات « يسارية » ، ص ٨٠ .

٥٠ – آلون ، يغال : المرجع السابق ، ص ١٥٩ .

كما أنه « يشك من ناحية تاريخية في أمر ملكية مصر لشبه جزيرة سيناء . والحوار مع مصر في هذه الناحية على أساس سياسي وليس على أساس قانوني » .

ولكن آلون بعد هذا يشير إلى أنه « ... من الجائز طبعاً » أن تقرر دولة الاحتلال « التنازل عن مناطق معينة في إطار معاهدة صلح » كي تصل إلى « هدف أكثر أهمية » ولكنه يحذّر من التفريط « بأية مساحة يكون فيها تنازل مبدئي عن » (حقهم) « التاريخي في الوطن كله » [٥١] .

وهذا الادعاء التاريخي يتجاهل شعب فلسطين وعلاقته التاريخية بأرضه ، ويلغي تاريخ المنطقة منذ الفتح العربي حتى اليوم . كما ان هذا الادعاء التاريخي لا يشير من قريب أو بعيد إلى علاقة يهود اليوم بيهود الأمس ، ولا يجيب لنا على هذا السؤال: هل يهود اليوم هم الاستمرار التاريخي والانثروبولوجي والسياسي ليهود الأمس ؟ وما داموا ليسوا كذلك كما يقرر التاريخ والانثروبولوجيا والسياسة [٥٢] فما معنى هذا « الحق التاريخي » ؟

---

٥١ – آلون ، يغال : المرجع السابق ، ص ١٦١ .

٥٢ – حمدان ، جمال : اليهود انثربولوجياً ، دار الكاتب العربي ، القاهرة .

الثاني : الضرورات الأمنية ، وهي ضرورات بلا حدود أيضاً ، إذ إنهـا لا تتعلق بالتهديد الفعلي بل بالتهديد المتوقع والمحتمل. ولهذه الضرورات الأمنية يجب أن تخضع كل حقائق الحياة والتاريخ . فالحدود مثلاً يجب أن تتغير ، ويستعاض عنها بحدود آمنة . والحدود الآمنة هي « الحدود السياسية التي تعتمد على عمق جغرافي ، وعلى حواجز طبيعية كالحواجز المائية والجبلية والصحراوية والممرات الضيقة التي تحول دون تقدم القوات البرية الآلية ، إذ إنها تؤمن من ناحيـة إمكانية اتخاذ ترتيبات تحذيرية مسبقة ناجعة ضد اقتراب مقاتلة معادية، وتستغل من الناحية الثانية لانشاء قواعد مريحـة لهجوم معاكس » [٥٣] . ولكن ما هو الخط النهائي لهذه الحدود ؟ هل هو حدود هزيمة حزيران ؟ انه كذلك مؤقتاً، ولكن أي تهديد جديد ينشأ من وراء هذه الحدود لا بُدّ من أن يطرح قضية تغييرها .

هنالك إذن «حقيقتان» فقط ، الحق التاريخي وضرورات الأمن . وبينهما يضيع الشعب الفلسطيني والأمة العربية وكل القيم الانسانية والحقائق التاريخية . ومن اقتنع فليقتنع وإلا فالحرب .

ولا ينسى آلون ، بعد هذا ، من أن يتكرم على الشعب

---

٥٣ – آلون ، يغال : المرجع السابق ، ص ١٦٢ .

الفلسطيني بدولة في شرق الأردن ، في « الضفة الشرقية من النهر » مع العلم « بأن الضفة الشرقية جزأ لا يتجزأ من أرض اسرائيل الكاملة » . أما العرب في الأرض المحتلة « ... فهناك إمكانية مساعدة ... الذين يريدون إقامة إدارة ذاتية مستقلة كنوع من الحكم الذاتي لا يتدخل في الشؤون الداخليـة لدولة اسرائيل ، كما لا تتدخل اسرائيل في الشؤون الداخلية لمناطق الادارة العربية » . ويتم « تعاون اقتصادي وثقـــافي مع احتفاظ اسرائيل بالشؤون الأمنية والخارجية »(٥٤) . ولكن قيام مثل هذا الحكم الذاتي يقتضي قيام اتصـــالات بين دولة الاحتـــلال والسكان العرب الأصليين الذين يبدي معظمهم الضغينة « لاسرائيل » كما يقول آلون . وإذا كانت مثل هذه الاتصالات لن تؤدي « إلى اتفاق قريب » فإنهـــا « ستثير مشاعر القلق في الدول العربيـــة ، وتساعد على التغلب على ترددها بشأن بدء التفاوض مع اسرائيل »(٥٥) .

وإذا كان آلون ، مثل كل القادة الصهيونيين لا يعترف بالشعب الفلسطيني، فإنه ليس غريباً أن يحاول عدم الاعتراف بحركة المقاومة الفلسطينية «كحركة تحرير قومية حسب المألوف في المفهوم السياسي » « على الرغم من وجود محـاربين ذوي

---

٥٤ – آلون ، يغال : المرجع السابق ، ص ١٦٢ – ١٦٣ .

٥٥ – آلون ، يغال : المرجع السابق ، ص ١٦٥ – ١٦٦ .

وعي قومي ، يتمتعون بمزايا ايديولوجية في صفوف منظمات التخريب والإرهاب » .

والشعب الفلسطيني الذي يكن ضغينة للاحتلال - كما يعترف آلون - « يعترفون في محادثاتهم الشخصية بانعدام الأمل في دحر اسرائيل في ميدان القتال » [٥٦] . ويحاول آلون أن يجعل من هذه الموضوعة حقيقة مطلقة ، ذلك « ان عامل الزمن لا يعمل في غير صالح اسرائيل » [٥٧] . وإذا كانت مصر قد تعهدت بتحرير فلسطين فتلك « مهمة لا طاقة للعالم العربي على تحقيقها » ، بأية وسيلة من الوسائل « السياسية أو العسكرية » [٥٨] .

ولا يكتفي آلون بتأكيد ما ذكرنا،انه يذهب إلى أبعد من ذلك . انه يتحدث عن احتمالات انتصار الامة العربية في المستقبل مؤكداً أنها أضعف من احتمالات النصر في حزيران سنة ١٩٦٧ [٥٩] ، والعرب فوق ذلك لا يتعلمون و « التجربة تشير إلى أنه لا يمكن أن يؤمل منهم وزن الامور بصورة

---

٥٦ - آلون ، يغال : المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

٥٧ - آلون ، يغال : المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

٥٨ - آلون ، يغال ، المرجع السابق ، ص ٣٩ .

٥٩ - آلون ، يغال : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

سديدة ومنطقية»[٦٠]. ولهذا لا بد من أن تظل العصا الغليظة فوق رؤوسهم .

٥ – ملاحظات حول أفكار آلون :

ان دراسة أفكار آلون تؤكد الحقائق التالية :

أولاً : أن آلون استمرار من الناحية النظرية لهرتزل والمفكرين الصهيونيين . وأن أفكاره هي حصيلة التجربة والممارسة وتنظير لها . وإذا كانت صهيونية هرتزل قد «جمعت الصوفية الدينية المتطرفة إلى نوع من اليوتوبية أو الرؤيوية العلمية »[٦١] ، فان أفكار آلون لا تخرج عن هذا الاطار . انها فلسفة قومية برجوازية تحوّل التاريخ إلى اسطورة ، وإلى ميتافيزياء ، وتعجز عن رؤية حركته الحيّة . والصهيونية ، ككل فلسفة برجوازية قومية ، تستند إلى الميتافيزياء في نظريتها ، وتستند إلى العلوم في ممارستها . وهي في هذا لا تبتعد عن نشأتها وأصلها وعن طبيعتها ، ولا تخرج عن اطار المناخ الذي ولدت فيه وترعرعت : عالم الرأسمالية ثم الامبريالية .

---

٦٠ – آلون ، يغال : المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

٦١ – رزوق، اسعد : اسرائيل الكبرى.. دراسة في الفكر التوراتي الصهيوني ، مركز الأبحاث ، ص ١٨ .

ثانياً : أن نظرية الحق التاريخي التي يستند إليها آلون ، وتستند إليها الحركة الصهيونية ، ليست إلا رومانسية قومية . والصهيونية حركة قومية كما يرى هرتزل «مسألة قومية وليست مسألةاجتماعية أو دينية وإن كانتتتخذ هذين الطابعين وغيرهما في بعض الأحيان »[٦٢]. ولكن « بما أن الصهيونية تنتمي إلى الفئة المتأخرة من الحركات القومية البرجوازية نجدها متأثرة إلى أبعد الحدود بالحركات القومية الأوروبية الكبرى ، كما في البلقان وايطاليا والمانيا ، وتحمل كافة السمات الرئيسية لهذه الحركات »[٦٣] . ولهذا يصبح الحق التاريخي مبرراً للاستعمار ولإجلاء الشعب الأصلي والشعور بالتفوق والامتيـــاز سبباً للاحتلال ولاضطهاد الشعوب الاخرى.والشعب المختار « سوف يصبح من جديد شعباً مختاراً بعد استعادة سيادته القوميـــة وينير الطريق أمام العالم »[٦٤]. ولكي تتحقق السيادة القومية « للشعب المختار » لا بد من أن يزول شعب آخر . وما المانع ما دامت الحركات القومية البرجوازية سلكت السبيل عينه ؟

---

٦٢ – العظم،صادق جلال : دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية، دار الطليعة ، ص ٩٧ .

٦٣ – العظم ، صادق جلال ، المرجع السابق ، ص ٨٨ .

٦٤ – الحلو ، انجلينا : عوامل تكوين اسرائيل ، مركز الأبحاث ، ص ٤٤ .

ثالثاً : أن الحركة الصهيونية منذ البدء ، وقبل مؤتمر سنة ١٨٩٧ عرفت أهمية وجودها بالنسبة للاستعمار . ولقد عرف الاستعمار هذه الحقيقة . ولم يكن غريباً أن يوجه نابليون نداءه ، ولا كان غريباً أن يزداد اهتمام أوساط بريطانية معينة في أوائل القرن الماضي بعودة اليهود ؛ ولا أن يزداد اهتمام رجال السياسة في بريطانية بهذه القضية مع ابتداء النصف الثاني من القرن الماضي[٦٥] . وكان هرتزل ، يدرك ، كما يدرك آلون اليوم ، حاجة العالم الاستعماري إلى دولة اسرائيل المقترحة ، وحاجة دولة اسرائيل المقترحة إلى العالم الاستعماري . ولذلك فقد طرح هذه القضية بوضوح وصراحة ، كما يطرحها آلون اليوم. وإذا كان هرتزل يقول لو تمت سيطرة اليهود على فلسطين لصاروا « يشكلون آنذاك جزء من الرديف أو السد الأوروبي بوجه آسية ، ومركزاً طليعياً للمدنية ضد البربرية »[٦٦] ، فإن آلون يؤكد هــــذه الحقيقة اليوم بشكل آخر ، إنما لا يقل وضوحاً ، كما ذكرنا من قبل . ان هذا الدور الذي تلعبه دولة الاحتلال لمصلحة الامبريالية العالمية ،وزعيمتها الولايات المتحدة، يربط بين مصيرها ومصير الامبريالية عدا عن انه يجعلها ، لكونها استعماراً وبسبب هذا الدور الذي تلعبه ، تقف في

---

٦٥ – الكيالي ، عبد الوهاب : المطامع الصهيونية التوسعية ، م. أ، ١٩٦٦ ، ص (١٢ – ١٣) .

٦٦ – الحلو ، انجلينا : المرجع السابق ، ص (٢١ – ٢٢) .

مواقع الامبريالية ، وتكون أداة من أدواتهـا . فما هي اذن رسالتها التمدينية ؟ انها رسالة الاستعمار والامبريالية : النهب والاستغلال والقتل والاضطهاد . وإذا كان بن غوريون يبدو لاسحق دويتشر « أحد آخر مستودعات فلسفة عبء الرجل الأبيض » فإن آلون ودولة الاحتلال ما زالا يبدوان كذلك. ولذلك فان الغرور والترفع الأوروبي العتيق اللذين يبدوان من الاسرائيليين نحو الافريقيين والآسيويين ، كما يشير دويتشر . واللذين يقودان إلى التقليل «من امكانيات جيرانهم ومن قدرتهم على التقدم »[٦٧] يبدوان بوضوح في فكر آلون، ولا ينفصلان عن طبيعة تكوين دولة الاحتلال ، وعن طبيعة الفكر الذي يسيّرها ، والدور الذي تلعبه .

رابعاً : تقوم الاستراتيجية العسكرية لدولة الاحتلال على ما يلي :

أ - الجيش القوي .

ب - الشعب المعبأ المعد .

ج - التفوق التكنولوجي .

د - المفاجأة والمبادأة .

هـ - الحرب الصاعقة الحاسمة .

---

٦٧ - دويتشر ، اسحق : دراسات في المسألة اليهودية ، دار الحقيقة ١٩٧١ ، ص ١٢٠. The non jewish jew , page 121 - 122

وآلون من منظري هذه الاستراتيجية ومن مطبّقيها . وهي الاستراتيجية العسكرية النموذجية للاستعمار والامبريالية. ولا يجوز لنا أن ننسى أن ألمانيا النازية كانت مجلية في هذا المضمار . وأن الولايات المتحدة تنهج هذا النهج .

ولكن آلون ينسى أن هذه الاستراتيجية لها علاجها . وان تجارب الشعوب في العقود السبعة الماضية من هذا القرن قد أثبتت هذه الحقيقة. ولقد كانت استراتيجية حرب الشعب هي الرد الناجع . ولقد هزمت استراتيجية حرب الشعب الطويلة المدى الجيوش الجرارة المتفوقة تكنولوجياً ، وحرمت الدول الغازية من جني ثمار المفاجأة والمبادأة ، ومن استثمار نتائج الحرب الصاعقة . وإذا كانت دولة الاحتلال الصهيوني قد نجحت ثلاث مرات في هذا الشكل من الحروب . فلقد نجح هتلر من قبل ثلاث مرات في النمسا والسويد وبولندا ، ولكنه هزم في الحرب الشاملة الطويلة المدى . كما ان الجيوش الجرارة المتفوقة تكنولوجياً هزمت في الجزائر وفياتنام والهند الصينية . فلماذا لا تهزم في فلسطين ؟ اننا داخل حركة التاريخ ولسنا خارجها ، ولا يستطيع آلون أن يوقف التاريخ أو أن يرجعه . وإذا كان يعتبر وجود قواته على مقربة من دمشق أو القاهرة يزيد من احتمالات نصر جديد ، فإننا نذكره بنابليون الذي هزم على أبواب موسكو ، وبهتلر الذي هزم على أبواب لينينغراد وستالينغراد . امّا أن يكون أمل

انتصارنا في المستقبل أضعف منه في الماضي ، فهذا مـــا لا يستطيع أن يجزم به أحد ، خاصة بعد القتال الضاري الذي خاضته الجماهير ضد العملاء في الأردن خلال العام المـاضي . ان حرب التحرير الشعبية تولد في المنطقة لا شعارات فقط ، إنما نظرية وممارسة . وبولادتها تنتهي أسطورة الجيوش التي لا تقهر وأسطورة التفوق التكنولوجي وأهمية المفاجأة والمبادأة والحرب الصاعقة استراتيجياً [٦٨] .

٦ .. خـــاتمة

وإذا كان آلون واثقاً من أننا شعب لا يتعلم ، لأننا، وعلى الرغم من هزائمنا لم نجلس إلى مائدة المفاوضات ونوقع على صك الاستسلام ، فإن عليه أن يتعلم درساً من هذه الواقعة . انهـا تعني أن لا إمكانية لإقناع هذه المنطقة بالاستسلام للسيطرة الصهيونية ، مهما كانت العصا غليظة والضربات موجعة . وقد يجد آلون خونة يتعاونون معه في المستقبل ، ولكنــه سيجد جماهير ترفض وتقاتل ، وتزداد ضغينتها حتى عندما تكون عاجزة .

ولن يفيد دولة الاحتلال في هذه المعركة الطويلة المدى جيشها المدرب جيداً أو المسلح جيداً ، ولن تنقذها تحالفاتها

٦٨ – المفاجأة والمبادأة والحرب الصاعقة لا تنتهي أهميتها تكتيكياً.

مع القوى الامبريالية ، ولا حدودها الجديدة ولا مواقعها القريبة من المراكز الآهلة والصناعية في الوطن العربي. ستكون الحرب شرسة وطويلة وذات تكاليف باهظة ، وستستخدم فيها أحدث مبتكرات التكنولوجيا ولكن الذي سينتصر فيها هو الانسان وإرادة الانسان وقضية تحرر الانسان . ولسوف تسقط ميتافيزياء الفكر والفلسفة وميثالوجيا التاريخ والأوهام العرقية مع سقوط المواقع الامبريالية والصهيونية . ولن يبقى من الصهيونية أكثر مما بقي من النازية ، ولن يبقى من آلون ودايان وغيرهما أكثر مما بقي من هتلر وغوبلز وأضرابهما .

ناجي علوش

١٢ / ٨ - ١٢ / ٩ - ١٩٧١

تقديم

بقلم مايكل هوارد

إنكار الذات والتواضع ليسا من الخصائص الثابتة للقادة العسكريين الذين يتصدون للتأليف . ومع ذلك ، فإن أحداً لن يخرج من قراءة كتاب يغال آلون مدركاً أي دور بارز لعبه هذا الرجل من خلق الجيش الاسرائيلي و«الأمة الاسرائيلية». ففي هـذا الكتاب لن يظهر اسم آلون على الاطلاق تقريباً ، فقط واجبه كمؤرخ هو الذي أرغمـه على أن يضمّن ، بين مستنداته ، رسائل وأوامر صادرة منه شخصياً ، تلقي ضوءاً فريداً على « نضال اسرائيل » في مراحله المبكرة . ان يغال آلون واحـد من آباء اسرائيل المؤسسين ، ولكنه من أقلهم شهرة خارجها . ولقد كان مما يتفق تماماً مع طبيعته ، انه لم

يحاول استخدام هذا الكتاب لجعل ما ساهم به هو شخصياً من التاريخ ، أكثر معرفة وذيوعاً .

آلون من « الصابرا » فهو اسرائيلي بالمولد .. وهو غير عادي بين الصابرا أنفسهم ، ذلك أن جديه ، لا أبويه فقط ، قد عاشا في فلسطين . ولد عـام ١٩١٨ في مستعمرة بالجليل أسسها آباؤه .. واكتسب أول خبرتـه العسكرية في صباه ، وهو يدافع عن المستعمرات اليهودية ضد الهجمات العربية في سنوات الاضطرابات من الثلاثينات . تربى ، لون في الهاجاناه ، التي يروي تاريخها في هذا الكتاب ، وفي أوائل العشرينات من عمره ، ساعد في إنشاء قوتها الضاربة « البالماخ » التي خـدم فيها خلال السنوات الأخيرة للحرب العالمية الثانية ، وأصبح في عام ١٩٤٥ — في السادسة والعشرين من عمره — قائداً لها. وبهذه الصفة كان آلون القائد العام الفعلي للقوات الاسرائيلية المسلحة . ولم تكن مسئوليات آلون قاصرة على الغارات التي تشن ضد العرب وقوات الاحتلال البريطاني ، ولكنه كان مسئولاً أيضاً عن عمليـات الهجرة السرية التي كانت تتم رغم معارضة بريطانيـا ، وما تبعها من إنشاء مستعمرات سرية ، غالباً ما كانت تبنى في أعمـاق مناطق آهلة بالسكان العرب ، مما كان يستدعي الدفاع عنها حتى في أثناء بنائها .

وبانتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين ، أصبح بقاء اليهود

يعتمد على قوة سواعدهم وحدهـــا . ومن الحرب الأولى بين العرب واسرائيل (١٩٤٨ – ١٩٤٩) برز آلون بوصفـــه القائد الخارق للقتال . في المراحل الأولى للحرب نظم الدفاع عن الجليل الشرقي لمواجهـة الغزو العربي من سوريا ولبنان ، وقاد العملية التي خلصت هذا الجزء من البلاد ـ بما فيه صفد ـ للدولة الجديدة . بعد ذلك ، وفي الجبهة الوسطى، قاد القوات التي صدت جيوش شرق الاردن ومنعتها من تمزيق اسرائيل إلى نصفين ، وأبقت الطريق إلى القدس مفتوحاً . وأخيراً على الجبهة الجنوبيـــة ، قاد ضد المصريين العمليات التي أمنت لاسرائيل صحراء النقب ومعبراً حيويـاً إلى البحر الأحمر في إيلات . ان حملاته العسكرية لم تضمن إلى حد كبير ، بقاء اسرائيل وحسب ، ولكن بقاءهـــا كدولة زاخرة بالحيوية أيضاً .

وبكسب السلام بصورة غير مؤكدة ، تحول آلون إلى إعـداد نفسه كرجل دولة . قضى خمس سنوات في الدراسة بجامعات اسرائيل وانجلترا ، ثم انتخب في البرلمان الاسرائيلي (الكنيست) . ومنذ ذلك الوقت وهو شخصية رئيسية في حياة اسرائيل السياسيـــة ، ومن أكبر الأصوات نفوذاً في مجالس اسرائيل في الحرب والسلم على السواء. ان هذا الكتاب يجب أن يقرأ ، لا كمجرد دراسة أكاديميـة لتطور اسرائيل العسكري ، بل لما يقدمه من نظرة ثاقبـة داخل فكر رجل

يحتمل أن يلعب لفترة طويلة دوراً رئيسياً في الأحداث السياسية للشرق الأوسط . وبالنسبة للمحلل العسكري والمؤرخ ، فإن للكتاب بدون شك أهمية غامرة . ان جيش اسرائيل قد خلق وهو يعمل . ولقد كان قوة نظامية وجيشاً احتياطياً في وقت واحد . ان رجال الاحتياط في هذا الجيش (هم ببساطة جنود نظاميون في إجازة أحد عشر شهراً كل عام) على حد تعبير ايجال يادين ، لقد كان هذا الجيش ، ولا يزال ، يتمتع بحرية منعشة من التقاليد العسكرية البالية . في أيامه الأولى اختط لنفسه تركيبة وسط بين نظم الجيش البريطاني – الذي خدم فيه الكثير من اليهود – وأسلوب البالماخ الأقل انضباطاً . وهذه التركيبة حسنت بعد ذلك كثيراً في ظل أشق الاختبارات . ان هذا الجيش لم يأخذ أسلحة أجنبية فقط ، ولكن أفكاراً أجنبية أيضاً – خاصة أفكار سير بازيل ليدل هارت – وطوعها لاحتياجاته . انه الآن منظمة عسكرية فريدة النجاح ، تحتل بخاصة بعد حرب الأيام الستة ، مكانة عالمية .

كلمة للتحذير .. ان آلون يكتب لقومه ، لا للأجانب ، وليس للانجليز بصفة خاصة . ان روايته للسياسة البريطانية في ادارتها الانتداب ، ومقاومة اليهود لها ، ليست بعيدة عن التحيز . كذلك فإن القراء العرب لن يكونوا وحدهم الذين

سيصدمون إلى حد ما بما يقوله آلون عن « تحرير » المدن والمراكز العربية من سكانها عام ١٩٤٨ . ويبـدو أن آلون ليس أكثر وعياً من غالبية مواطنيه بالسخرية التي تحملها كلمة « تحرير » أرض من سكانها الذين عاشوا فيها أجيالاً . ومع ذلك فإن اليهود – كما يوضح آلون – قد حاربوا عام ١٩٤٨ بيأس رجـال ونساء (ليس أمامهم خيار آخر) . وهم ما زالوا يفعلون ذلك حتى اليوم .

مقدمة

نشأت فكرة هذا الكتاب من مقال ساهمت به في مجموعة مقالات قدمت إلى الكابتن ليدل هارت في مناسبة عيد مولده السبعين ، بعنوان (الحرب في النظرية والتطبيق) وهو يحاول أن يشرح في اختصار تطور نظرية الدفاع العسكرية لاسرائيل، منذ كانت المستعمرات اليهودية الأولى في فلسطين تتولى مهمة الدفاع عن نفسها في أواخر السبعينات من القرن التاسع عشر، حتى حرب الأيام الستة ، وإلى الآن . ان الكتاب لم يقصد به أن يكون تاريخاً للأحداث العسكرية لتلك الفـــترة . ان الأحداث لا تذكر إلا لتوضيح تأثيرهـــا على تطور النظرية العسكرية ، وما كان لهذه النظرية بدورهـا ، من تأثير على الأحداث .

والكتاب يحوي الكثير من المادة غير العسكرية ، وبصفة خاصة السياسية والاجتماعية . ولم يكن من الممكن تجنب ذلك، فهنـــاك علاقة لا تنفصل بين الجوانب السياسية والاجتماعية

والاقتصادية لنمو المجتمع اليهودي والدولة اليهودية ، وبين التطورات التي تمت في ميادين الاستراتيجية العسكرية والقوة المسلحة .. واكرر .. انني أشرت إلى هذه المسائل غير العسكرية ،فقط عندما أثرت أو تأثرت بالتطورات العسكرية.

ولقد ضمنت القسم الثاني من الكتاب نخبة من المستندات المعتمدة والروايات المعاصرة، تغطي الفترة منذ إنشاء الهاجاناه حتى حرب الأيام الستة ، والغرض منها هو إعطاء القارىء صورة من الداخل ، للمبادىء والأساليب والروح ، التي هدت وأنعشت نمو قوات الدفاع الاسرائيلية . وهي تفيد - كما أرجو - في تقديم أدلة معاونة على روايتي الرئيسية في خلق جيش اسرائيل .

إن ديني الرئيسي من العرفان في كتابة هذا الكتاب للبروفيسوره دورثيا كروك الاستاذةبقسم اللغة الانجليزية بالجامعة العبرية بالقدس ، التي أعادت تحرير المخطوط كله ببراعة تدعو للاعجاب ، وقدمت الكثير من التعليقات والمقترحات القيمة .

كما أود أن أشكر مستر جافرييل كوهين من قسم التاريخ بجامعة تل أبيب، لاهتمامه ومعاونته، خاصة فيما يتعلق بالوثائق التي تشكل القسم الثاني من الكتاب .

ولقد ضمنت الكتاب مقالتي الأصلية (الحرب في النظرية والتطبيق) بتصريح كريم من السادة كاسل ، الذين أشكرهم على ذلك .

القدس .. اغسطس ١٩٦٩

الدفاع عن الارض

القسم الأول

الفصل الأول

قبل دولة اسرائيل

قام جيش الدفاع الاسرائيلي رسمياً في السابع والعشرين من يونيو عام ١٩٤٨ . عندئذ كانت الهاجاناه[١] اليهودية تقاتل منذ ستة أشهر حرب دفاع عن النفس ضد الفدائيين العرب المحليين يدعمهم متطوعون من الدول العربية المجاورة . وقبل ذلك بستة أسابيع فقط ، في الخامس عشر من مايو ١٩٤٨ انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين – بناء على قرار الأمم المتحدة الصادر في ٢٧ نوفمبر ١٩٤٧ – وأعلن قيام دولة اسرائيل . وتعرضت الدولة اليهودية الناشئة لغزو الجيوش النظامية لست دول عربية وحدت قواتها مع الوحدات العربية المحلية. كانت الجيوش الغازية هي جيوش مصر وشرق الأردن والعراق وسوريا ولبنان وفصائل من المملكة السعودية اندمجت مع الجيش المصري . إن اعلان قيام دولة اسرائيل – في وجه

تهديدات صريحة بالتدمير من جانب قوات عربية متفوقـــة تفوقاً عددياً ساحقاً — قد يبدو عملاً من أعمـــال الجسارة الخارقة ، إن لم نقل مجـــازفة كبرى . ولكن هذا العمل لا يمكن فهمه على وجهه الصحيح إلا على ضوء التاريخ السابق لنشأة القوة العسكرية اليهودية .. وهي قوة بدأت قبل ذلك بحوالي سبعين عاماً كمجموعة من جماعات صغيرة من الخفراء ، ونمت حتى غدت ذلك الجيش «المتألق» الذي كسب حرب الأيام الستة .

وكان مما له أهمية كبرى لمنظمة الدفاع اليهودية ، خـلال تاريخها كله ، ذلك التوافق بين نموها — سواء كانت سرية أو شبه سرية ، شرعية أو جيشاً نظامياً في ظل الحكم العثماني أو البريطـــاني أو حكم مستقل — وبين التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للمجتمع اليهودي في فلسطين . ان لكل مرحلة منها مثيلتها من الأخرى ، وكل منها تأثر بالآخر بصورة دائمة . كذلك كانت هناك علاقة تبادل بين المهـــام المدنية والعسكرية لعملية التوطن اليهودي في فلسطين . كان الشعب ومؤسساته المنتخبة ، القوميـة والمحليـة ، هو الذي يزود الهاجـاناه بالقوى البشرية ورأس المـــال والقواعد الاستراتيجية والدافع الايديولوجي والسلطة السياسية ، لإنشاء المنظمة واستمرارها وأداء عملها . وقدمت الهـــاجاناه من جانبها للمجتمع اليهودي والحركة الصهيونية العـــالمية وسائل

الدفاع المباشر عن النفس ، الفردي والجماعي . وأصبحت في الوقت المناسب أداة عسكرية ذات قيمة عامة لمشروعات أكثر جرأة في ميادين التوطن والسياسة نهض بها هذا المجتمع.

منذ عام ١٨٨٠ ، والبلاد لم تزل تحت الحكم العثماني وعدد سكانها من اليهود لا يزيد على بضع عشرات من الآلاف (٢) ، بدأ تكوين خلايا محلية للدفاع عن النفس ضد السطو والسرقة وقطع الطريق والقتل والاغتصاب(*). وكانت هذه الأعمال في غالبيتها غير سياسية الطابع ، ولكنها كانت تحمل بصورة غير مباشرة بعض التضمينات والنتائج السياسية . وعندما تبين اليهود انهم لا يستطيعون أن يركنوا مطمئنين إلى حماية السلطات العثمانية ، أخذوا يعتادون شيئاً فشيئاً على الاعتماد على أنفسهم في حماية أرواحهم وشرف نسائهم وممتلكاتهم .. وبالطبع صميم حقهم من الحياة بالأرض المقدسة . وهكذا ظهر مع بداية القرن الحالي عدد من المنظمات العسكرية الناشئة ذات الاتجاهات السياسية . وكان أهمها جميعاً منظمة « هاشومر » أي الحارس ، التي كانت مقدمة لظهور الهاجاناه . بدأت هذه المنظمة تفكر لأول مرة في الخدمة على أساس قومي عام .. كانوا على استعداد للتطوع لأي مهمة دفاعية في أي مستعمرة يهودية مهما كانت نائية ، بل انهم كانوا يفضلون مساعدة المستعمرات الأكثر بعداً ، حيث كانوا يشتركون مع مزارعيها وشبابها في الدفاع عن القرية وحقولها ومزروعاتها .

* — هكذا يصف الاسرائيليون العمليات الباسلة للمقاومة الفلسطينية سنة ١٩٤٨ .

أثناء الحرب العالمية الأولى ، وخاصة بعد وعد بلفور [٣] ودخول الولايات المتحدة الحرب ، كان الأتراك يشكون في ولاء يهود فلسطين للامبراطورية العثمانية ويتهمونهم بالتعاون مع الانجليز (ولقد كانوا على حق في هذه الشكوك) . وعندما اكتشف الاتراك ان منظمة (نيلي) [٤] اليهودية تقوم بأعمال مخابرات لمصلحة الحلفاء وراء الخطوط العثمانية الالمانية، أطبقوا على جميع المنظمات اليهودية، العسكرية وشبه العسكرية، وطردوا إلى الشمال (في الجليل) كل الجاليات اليهودية المستوطنة على مقربة من مصر في الجنوب، حيث كانت القوات البريطانية تتقدم نحو فلسطين . وفي تلك الفترة ، أنشئت أول كتائب يهودية تابعة للجيش البريطاني الذي كان يقاتل على مسرح الشرق الاوسط . وكانت تضم متطوعين يهود من فلسطين وبريطانيا وامريكا . وهي التي أتاحت لشباب اليهود فرصة اكتساب تدريب عسكري وتنظيم أفضل ، كما حصلوا على كمية معينة من المعدات العسكرية الخفيفة ، أثبتت بعد ذلك انه كانت لها قيمة كبرى .

وبعد الحرب مباشرة ، تقرر انتداب بريطانيا على فلسطين نيابة عن المنظمة الدولية في ذلك الوقت — عصبة الأمم . وبدأ تنفيذ تعهدات بريطانيا في وعد بلفور بشأن حق اليهود في الهجرة والتوطن بفلسطين وإنشاء وطن قومي لهم بها . وهنا بدأ التوتر بين العرب واليهود يكتسب طابعاً سياسياً

أكثر . في البداية كانت الأعمال العدائية محددة في جزء بسيط من السكان العرب ، ولكنها ما لبثت أن اتسعت نتيجة لأحداث معينة..أساساً طرد الملك فيصل الأول[٥] من دمشق، ثم السياسة المترددة وعدم القدرة على اصدار القرارات من جانب دوائر معينة في حكومة الانتداب . ولكن هذه العداوة لم تنتشر أبداً –في الحقيقة– بين كافة السكان العرب . ومع ذلك ، فانه منذ ذلك الوقت أصبح التوتر بين العرب واليهود من الملامح الدائمة للحياة في فلسطين . ولقد أثر ذلك تأثيراً كبيراً على تطور المنظمة العسكرية اليهودية ونموها .

تميزت الفترة الواقعة بين الحربين (١٩٢٠ – ١٩٣٩) بسلسلة من الهجمات العربية على المستعمرات اليهودية ومراكز تجمع السكان اليهود ، وقد اشتهرت باسم (الاضطرابات العربية) . وكانت هذه الهجمات تأتي على دورات ، كل منها أوسع من سابقتها وأحسن عتاداً وطابعها العسكري أوضح . كانت هناك ثلاثة صدامات كبرى .. في أعوام ١٩٢١و١٩٢٩ و ١٩٣٦ – ١٩٣٩ . وكثيراً ما كانت القوات البريطانية تتدخل لاعادة الأمن والنظام ، ولكنها كانت أحياناً تتخذ ما يسمى بموقف «حيادي» . وحتى عندما كانت هذه القوات ترغب في المعاونة ، فإن ساعات وأحياناً أياماً كانت تنقضي قبل أن تتمكن من تقديم النجدة للمناطق المحاصرة[٦].

وعندما وجد اليهود انهم لا يستطيعون الاعتماد على سلطات الانتداب ، لم يكن أمامهم خيار سوى أن يطوروا منظماتهم العسكرية الناشئة . وكانت السلطات قد أعلنت اعتبارها هذه المنظمات غير شرعية ؛ ولكن اليهود أصروا ولم يردعهم رادع . وهكذا بدأت الهاجاناه تظهر تدريجياً إلى الوجود .

وقد تدعمت الهاجاناه خـــلال تلك الفترة بسيل الهجرة اليهودية القادمة من دول كثيرة ، وخاصة من شرق أوربا . وهذه الهجرة لم تزد من المورد البشري للهاجاناه من الناحيـة الكمية فقط ، ولكنها دعمته من ناحية الكيف أيضاً . لقد كانت غالبية الوافدين الجدد شابة ومثالية متحمسة ، ولقـد ذاق الكثير منهم طعم النشاط السري شبه العسكري ، عندما كانوا يدافعون عن الأحياء اليهودية في شرق أوربا ضد الغارات المعادية للسامية .

وكان تطوير وتخطيط المستعمرات الصهيونية الرائدة يتقرر من البداية وفقاً للاحتياجات السياسية – الاستراتيجية . كان اختيار الموقع مثلاً لا يتأثر بالاعتبارات الاقتصادية وحدها ، بل كان الأهم منها ، احتياجات الدفاع المحلي ، والاستراتيجية العامة للتوطن اليهودي (التي كانت ترمي إلى ضمان وجود سياسي يهودي في كافة أنحاء البلاد) ، وكذلك الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه المجموعة أو تلك من المستعمرات في أي

صراع عام يحدث في المستقبل ، والذي قد يكون حاسماً . وفقاً لذلك كانت الأراضي تشترى ، وفي معظم الأحيان تستصلح ، في أجزاء نائية من البلاد وفي أعماق مناطق آهلة بالسكان العرب ، أو على مقربة من الحدود السياسية للبلاد إذا كان ذلك ممكناً .

وهكذا كانت المستعمرات – القرى العادية، والكيبوتز[٧]، والموشاف[٨] – معزولة بعضها عن بعض بمسافات جغرافية وعوائق طبوغرافية وفواصل سكانية، عدا العقبات السياسية التي خلقها نظام الانتداب .

ونتيجة لهذا الوضع ، أصبح على كل مستعمرة يهودية أن تكون قلعة هاجاناه في الوقت نفسه . وصحب التخطيط الاقتصادي والزراعي لبناء المستعمرات ، تخطيط عسكري وترتيبات حربية . كان على ميزانية الهجرة أن تهتم بالسيف والمحراث على السواء .

ان هذه الاحتياجات قد أدخلت على التخطيط والتنفيذ العسكري للهاجاناه عناصر جديدة كثيرة ، بما في ذلك استراتيجية أكثر دقة على مستوى البلاد كلها ، تراعي الاعتبارات المحلية والتخطيط الشامل والقدرة الأكبر على الحركة ، وأوسع استخدام للمدافع الرشاشة الخفيفة . وفوق ذلك كله ، فإن هذه الاحتياجات عجلت بانشاء «قيادة عليا»

مدنية سرية – تتصرف بتفويض كامل من جانب المؤسسات السياسية الشرعية للمجتمع اليهودي في فلسطين – و « هيئة أركان حرب عامة » عسكرية سرية ، تتكون من الفروع المعتادة لمثل هذه الهيئة ويرأسها « رئيس لهيئة الأركان » .

ألحقت اضطرابات عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩ خسائر كبيرة في أرواح وممتلكات المجتمع اليهودي ، وكان قد أثارها الحاج أمين الحسيني مفتي القدس الأكبر (الذي هرب بعد ذلك إلى برلين النازية) . ولكن هـذه الاضطرابات نفسها حفزت وعجلت بتوسع جديد للهاجاناه . فأثنائها ازداد الفدائيون العرب حجماً وقوة ، وكان موقف القوات البريطانية بصفة عامة (كانت هناك بعض استثناءات مشرفة) هو موقف من ليس لديه أي رغبة في إخماد موجة العنف – كما يقضي واجبهم وفقاً لتعهدات حكومتهم – وعندما كانوا يحاولون عمل شيء ، كانوا يؤدونه بشكل مبالغ بحيث يأتي عديم الفاعلية . ولقد تبينت الهاجاناه مخاطر هذا الموقف . وكان من الواضح أنه ما لم توقف هذه الاضطرابات فوراً ، فإنها قد تزداد خطورة . وفي هذه الحالة قد تؤدي إلى مواجهة شاملة لا مفر منها ، وفي غير مصلحة اليهود . فالعرب يتمتعون في هـذا الوقت بمزايا عديدة .. التفوق العددي ، الاتصال الاقليمي مع الدول العربية المجاورة ، حياد الانجليز إن لم يكن تعاونهم غير المباشر . ان المواجهة في ظل هذه الظروف قد تؤدي إما إلى

تقويض قبضة اليهود على مناطق معينة في البلاد ، أو إرغام لندن على اتخاذ سياسة مناقضة لوعد بلفور والتزاماتها بمقتضى الانتداب . وهكذا لم تعد الحاجة إلى دفاع يهودي فعال مجرد حاجة للدفاع عن النفس والممتلكات ، وإنما تعززت باحتياجات البقاء السياسي .

وفي ذلك الوقت ساهمت بادرتان مشجعتان من جانب الانجليز ، في تطور الهاجاناه إلى حد كبير . كانت الأولى رسمية ، وهي إنشاء « شرطة المستعمرات اليهودية * » ، وهي قوة كانت تضم ثلاثة عناصر :

(أ) عدد صغير من الوحدات المتنقلة ، تدفع مرتباتها وتزودها بالمهمات حكومة الانتداب ، للقيام بكافة واجبات الحراسة المحلية .

(ب) عدد أكبر من قوات الشرطة الخاصة ، يسمح لها باستخدام أسلحة القوة المتنقلة للتدريب وفي حالات الطوارىء .

(جـ) وحدات متنقلة تقتصر خدمتها على مناطق محددة ، تمولها الحكومة أيضاً ، وهي المسئولة في مناطقها عن القيام بدوريات الحراسة للطرق والمحصولات ، وتعزيز حاميات المستعمرات التي تتعرض للهجوم ، ونصب الكمائن للفدائيين العرب أثناء اقترابهم من المناطق اليهودية أو انسحابهم منها .

أما البادرة الثانية فكانت غير رسمية ، وان لم تقل عن

* — أرجو أن يلاحظ القارىء أن الكاتب لا يستطيع الاستطراد في عملية التمويه والزعم بأن الاستعمار البريطاني لم يساعد في انشاء قوة اسرائيل .

الأولى أهمية . لقد ظهر على مسرح فلسطين الكابتن – الجنرال بعد ذلك – أورد وينجت . وكانت مصالح شركة نفط العراق هي التي أدخلته في الصورة . لقـــد أنزل الفدائيون العرب خسائر جسيمة بخط الأنابيب التابع للشركة والممتد إلى مصافي حيفا . ونتيجة لذلك أنشئت وحدة يهودية – انجليزية مشتركة تحت قيادة وينجت لحماية خط الأنابيب الحيوي ، عرفت باسم « الفرق الليلية الخاصة » . ولكن هذه الفرق كانت أقل عدداً وأفقر تسليحاً من أن تستطيع أداء مهمتها . لذلك تعاون وينجت سراً مع وحدات الهاجاناه المشابهـة لوحدته ، والتي تمارس نفس المهمة بالفعل ، وكثيراً ما كان يقترض السلاح من ترسانة الهاجاناه للقيام بغاراته وكائنه ، وكان معظمها يتم ليلاً في منـــاطق شاسعة بالجليل على جانبي خط الأنابيب . وفي الصباح كانت الوحدات غير الرسمية تختفي تمامـــاً ، وتعود الوحدة الرسمية إلى قاعدتها .

وقـــد زودت الهاجاناه قوتي الشرطة هاتين .. الرسمية وشبه الرسمية ، بالرجال واستخدمتها كغطاء لتدريباتها وعملياتها . وكان ظهور وينجت ـ بحماسة الصهيوني غير العادي ، المستلهم من التوراة ، ومواهبه العسكرية غير المعتادة وشجاعته الفائقة ـ حدثاً ذا أهمية تاريخية للهاجاناه. عندما ظهر وينجت رأى المقاتلون اليهود أمامهم رجلاً انجليزياً يحمل نفس مبادئهم ، تشرب قصص التوراة مع حليب أمه ، لا يرى في رسالة الأنبياء

مجرد مادة محنطة في الكتب، ولكن الحقيقة البسيطة الواضحة في رأيه ، أن شعب التوراة وأرض التوراة شيء واحـــد . وبنزاهته المطلقة التي لا تلين* ،وهب نفسه دون تحفظ للتعاون مع جيش اليهود السري .

وكان زميل وينجت على الجـانب اليهودي ، ورفيقه في الفرع السري للهاجاناه ، إسحق صاده ، الذي كان عبقرية عسكرية بالمستوى العالمي، وواحداً من أعظم القواد في التاريخ اليهودي كله ، وأبا الحرب الحديثة ، واستاذ معظم القـــادة الاسرائيليين الشبان ، وأنا من بينهم . لقد أدخل مع وينجت تعديـــلات جوهرية على تكتيكات الهاجاناه . فمنها تعلمت الهاجاناه القيام بدوريات الحراسة للحقول والمزروعات والطرق النائية ، ونصب الكمائن على طرق العدو ، وشن الغارات على قواعده، مما ساعد على وقف مبادرته. نجح القائدان في إخراج الهاجاناه من خنادقها ومن وراء أسلاكها الشائكة ، إلى ميدان القتال المكشوف ، أي في إتباع سياسة دفاعية أكثر إيجابية.

ومثله مثل وينجت ، خلق صاده ليكون قائداً . ولكن رغم تشابه الرجلين فقد كانت بينهما اختلافات أساسية . كان وينجت فخوراً ومنطوياً على نفسه . أما صاده – الذي كان فخوراً هو الآخر – فقد كان متفتحاً وحاراً . كان وينجت نحيفاً حالماً ، بينما كان صاده قوياً ، مصارعاً محترفاً ، مقبلاً

* – أي نزاهة هذه ؟؟

على الحيـــاة زاخراً بالحيوية . ولد وينجت في ظل تقاليد المنشقين والمحصين الدينيين في انجلترا ، وكان متديناً أكثر منه عاطفي . وكان صاده نتـــاج رياح التغيير التي هبت على العالم اليهودي ، وللثورة الروسية العظيمة على وجه الخصوص. كان كل منهما بعيد النظر ، وكانا يطوران معاً نظريتهما العسكرية الثورية وفقاً لمقتضيات العصر ، ولكنهما يتخذان من الماضي البعيد – قصص البطولة في الكتب المقدسة – مثالهما الأول . ورغم كل ما كان بينهما من خلافات،فقد كان مصيرهما واحداً ، ربما لشجاعة تفكيرهما وروحهما المتوثبة العاصفة .. دائماً في مقدمة القافلة ، دائمـــاً يقابلان بسوء الفهم في بداية الطريق ، دائماً وحيدين .

وكان لقـــاء الرجلين مثمراً بصورة غير عادية . كتب المرحوم اسحق صاده .. « لبعض الوقت كنـــا نقوم بنفس الشيء الذي يفعله وينجت ، ولكن على نطاق أضيق وبمهـارة أقل . كنا نسير في (طرق متوازية) دون أن نتقابل ، حتى جاء لنا ووجدنا فيه قائدنا » . وأعتقد – دون تقليل من شأن مساهمة وينجت في صهر الفكر العسكري اليهودي – ان مجرد ظهوره كجندي محترف غير يهودي يحارب في صفوف اليهود قد أثبت صحة هذه (الطرق المتوازية) التي كان اسحق صاده وزملاؤه يناضلون نضالاً عنيفاً لتوضيحها .

ويمكن تلخيص الملامح المميزة لأسلوب وينجت الذي ترك طابعه على نظرية الهاجاناه العسكرية وتكنيكاتها ، فيما يلي :

كان أولها وأهمها النموذج الشخصي للقائد ، سواء أثناء العمليات الجريئة ، أو في التدريبات والمسيرات الطويلة المنهكة . ولطالما أسهب رجال وينجت في الحديث عن التشجيع الذي استمدوه من مثاله الشخصي . وكانت كلمته قانوناً . والثاني أنه كان يصر على النظام الدقيق ، المرتبط بغرض مفيد مع التركيز على الجوانب العملية لا الشكلية ، ولم يكن يتهاون في توقيع الجزاءات بسبب أهون المخالفات . والثالث أنه كان دقيقاً وبالغ الحرص في رسم الخطط التمهيدية للعمليات . كان يحرص قبل كل عملية على التأكد من أن رجاله يفهمون اسس خطته وأهدافها، كان يعتبرهم شركاء في التفكير والتنفيذ ، يجب كسب استعدادهم وحسن إدراكهم قبل بدء العملية . ورغم دقته البالغة في رسم الخطط، فقد كان موهوباً أيضاً بصورة غير عادية في الارتجال واستحداث المواقف وفقاً للظروف المتغيرة للمعركة . ولذلك فقد كان يحرص على منح السلطه لضباطه وتدريبهم على تولي القيادة ، وبأن يحزموا رأيهم بأنفسهم ويتخذوا قراراتهم دون الرجوع إليه. والرابع أن وينجت أدرك أهمية تركيز القوات حول الهدف الرئيسي في ظروف القتال ضد الفدائيين (وكانت هذه طبيعة المعركة التي خاضها في فلسطين عام ١٩٣٨) . ومع ذلك فقد كان

شديد البراعة في استخدام القوات المشتتة والمتفرقـــة إذا استدعت ظروف القتال ذلك . كان يهتم اهتماماً خاصاً باستغلال عنصر المفاجأة والحركة السريعة . وأخيراً فإنه يؤكد أهمية الدافع الايديولوجي في الحرب . كان وينجت يرى نفسه بعين روحه « جدعوناً » حديثاً ، يحارب على نفس أرض جدعون. وكثيراً ما كان يستشهد بالتوراة . وكان يؤمن ان الشعب اليهودي شعب فريد ، ومن حقه أن يعود إلى وطنه القومي التاريخي .

ولم يكن الماضي اليهودي في أرض اسرائيل هو وحده الذي استولى على قلب وينجت . كان معجبـاً بحاضر اليهود أيضاً . لقد تأثر تأثراً عميقاً بالمشروعات البناءة التي قام بهـــا اليهود في فلسطين،وبخاصة الكيبوتز والموشاف .. كان مبهوراً بالمستعمرات التي اقيمت في مناطق بعيدة ومعزولة ، بسبب الأهمية الاستراتيجية لهذه المناطق، وكذلك بقيام العمال اليهود ببناء (السياج الشمالي) – على طول الحدود بين فلسطين وكل من سوريا ولبنان – في ظل حماية يهودية . ولما كان قد وهب نفسه لنظرية الدفاع الإيجابي (أي بلغة العسكرية الاسرائيلية الحديثة نقل الحرب إلى أرض العدو) فقد كان شديد الحماس لافكار وعمليـــات مجموعات الكوماندوز اليهودية التي كانت تتقدم كثيراً أثناء الاشتباكات ولا تكتفي بالقتال من وراء المتاريس . ولقد ساعد إلحاقه بعض المقاتلين اليهود بوحداته ،

على إتاحة فرصة التدريب العملي لهم ، في ظروف ملائمة نسبياً . كان يعتبر نفسه من الناحية الفعلية ، عضواً في الهاجاناه . وكنا جميعاً ننظر إليه كذلك .. الزميل ، أو « الصديق » كما كنا نناديه .

في أواخر عام١٩٣٦ أصبح من الواضح ان حرب العصابات بين العرب واليهود في فلسطين، لن تنتهي بالانهيار التام لتركيز قوات أي من الجانبين . ولما كانت السلطات البريطانية تعتبر قوات الجانبين (غير شرعية) فان أياً منهما لم يكن يستطيع مهما طال الوقت ، أن يحقق مثل هذا التركيز في وجود البريطانيين. أي انه كان من أثر الوجود البريطاني تحديد حجم وحدات الجانبين المشتركة فيالقتال . وهكذا وجدت الهاجاناه نفسها مضطرة إلى التركيز على أساليب حرب العصابات .. تستفيد إلى أقصى حد ممكن من وحداتها الشرعية القليلة ، وتلجأ إلى استخدام وحداتها السرية – الأكثر عدداً – إذا دعت لذلك ضرورة ملحة . ولقد تعلمت الهاجاناه ، وبخاصة وحدات الميدان التابعة لها التي تسمى (فوش) أن تحارب في الحقرل ، بالليل وبالنهار ، في مجموعات صغيرة غالباً وأحياناً في مجموعات أكبر على مستوى (جماعة) . وقليلاً ما كان يتصادف أن تعمل بالتعاون مع وينجت على مستوى (كتيبة) مجزأة إلى وحدات أصغر . وقد تعلمت هذه الوحدات كيف

تقتفي أثر العدو في التلال وفي المناطق الزراعية ؛ وأن تنصب الكمائن ، وتشن الغارات ، وتحاصر العدو ؛ وأن تخلص نفسها من الاشتباك بسرعة إذا استدعى الأمر ذلك سواء لاعتبارات عسكرية أو سياسية .

كانت الأهداف الفورية للعرب هي إبادة أكبر عدد ممكن من المستعمرات القائمة – سواء بعزلهـــا أو بالهجوم المباشر عليها – ومنع إقامة مستعمرات جديدة ، وتحطيم المقـــاومة اليهودية ، والحيلولة بين اليهود وبين ادعاء صفة الدولة . وكان هدفهم النهائي إرغام الانجليز على الرجوع عن تعهداتهم للحركة الصهيونية ، وإقامة دولة ذات أغلبية عربية . أما أهداف الحركة الصهيونيـــة فكانت عكس ذلك على خط مستقيم .. كانت تسعى لحمـــاية جميع المستعمرات اليهودية ، في الريف والحضر على السواء ، ومهما كانت نائية أو مستعصية على الدفاع ؛ والمحافظة على استمرار الحياة الطبيعية إلى أقصى درجة ممكنة في الانتاج والأعمال والمواصلات ، ومنع الانهيار الاقتصادي ، مما يبطل مزاعم العرب بأنهم مسيطرون على فلسطين ، ومد المستعمرات اليهودية الريفية إلى مناطق بعيدة ذات أهمية استراتيجية .

وكانت السنوات الثلاث من ١٩٣٧ إلى ١٩٣٩ فترة ذروة ، سواء في عمليـــات التوطن الزائدة أو التوغل العسكري في

مناطق امكن اقتحامهـــا بواسطة الكيبوتزات الجديدة التي أقيمت فيها .

وإلى جانب سائر مهامها الاخرى ، قامت وحدات القتال التابعة للهاجاناه، تساعدها وحدات هندسية، ببناء مستعمرات جاهزة – من سيـاج دفاعي وبرج مراقبة – مزودة بجميع وسائل الدفاع . وكان الاسلوب المتبع ، مبتكراً وغـــير عسكري ، بقدر ما كان فعالاً . كانوا يقيمون في الموقع المختار مركزاً مؤقتاً للمستعمرة الجديدة ، وكان مصنوعاً من الخشب ويضم عدداً من الأكواخ وقاعة طعـام جماعية ومطابخ وما شابه . وفي وسط الساحة يقام برج المراقبة وعلى قمته مصباح كشاف . ويحاط الجميع بسور خشبي مزدوج يملأ بالأحجـار لمقاومة الرصاص وبه ثقوب لاطلاق النار . وكان هذا السور يحاط بدوره بسلك شائك وحقول ألغام . كانت إقامة هذه المستعمرة المؤقتة تستغرق نهار يوم واحـــد ، يبدأ العمل في الصباح الباكر وينتهي في وقت متأخر بالليل . وكان سكان هذه المستعمرة عادة من الشبان الأعضاء في الحركة الصهيونية الرائدة والهاجاناه،الذين يضعون أنفسهم تحت تصرف المؤسسات القومية ، وهي التي تقرر – بالتشاور مع سائر الأعضـاء – متى وأين يقيم هؤلاء المستوطنون الجدد في مستعمرتهم الجديدة بصورة نهائية . وكانت (شرطة المستعمرات اليهودية) توفر الحماية للمستعمرة الجديدة بالنهار ، بينما تقوم الوحدات السرية

بالكمائن والدوريات لحراسة طرق الاقتراب إلى المستعمرة . كان المستوطنون أنفسهم ، الذين يحملون الأسلحة الخفيفة وهم يقومون بالعمل ويتبادلونهـا على نوبات لحراسة مستعمرتهم ، صورة حديثة لعمال (Nehemiah) الذين كانوا « يعملون بيد ويحملون السلاح باليد الاخرى »[٩] . وفي حماية هـذه المستعمرة القلعة ، كانت الأراضي المحيطة تزرع . وفي الوقت المناسب كانت تبنى بجوارها ساحة جديدة أفضل . وكان إتمام بناء مستعمرة جديدة حدثاً كبيراً يحتفل به دائمـاً على وجه مناسب ، فلقد أصبح من الممكن إحضار الامهات والأطفال من قاعدتهم الأصلية إلى وطنهم الجديد .

ورغم ان هذه العملية كانت غير عسكرية أصلا ، فإنه في ظل الظروف السائدة في فلسطين في الثلاثينات ، كانت عملية بناء المستعمرات وسيلة فعالة إلى حد كبير في تحقيق أهداف سياسية وعسكرية ، بواسطتهـــا تم إصلاح مناطق جديدة للزراعة ، كما كانت قواعد استراتيجية هامة . كان سكان هذه المستعمرات مزارعين وجنوداً في نفس الوقت .

وتحت ضغط القومية العربية الحربية ، نمت الهاجاناه حجماً وقوة ، وضمت إلى عضويتهـا كل يهودي ويهودية في فلسطين تقريباً ، كل يخدم في الوحدة المناسبة . ودربت الهاجاناه عدداً كبيراً من ضباط الصف والضباط الشبان ، وحصلت على سلاح

أكثر وأفضل . وفوق ذلك ، نمّت طابعها القومي ، ودعمت قيادتها،وحققت بداية ناجحة في محاولتها إنشاء قوة احتياطية دائمة.ولقد تم ذلك كله بغير تقليل من أهمية القيادات الاقليمية والمحلية ، ودون أن يكون على حساب المبادرات التكتيكية للقيادات الأدنى . وكان هناك بطبيعة الحال، بعض النكسات والهزائم ، ومع ذلك فانه من الممكن أن نقول ، ان هـــذه الفترة بصفة عامة هي التي أعطت النصر لليهود . ان مستعمرة واحدة لم يهجرها سكانهـا ، وبنيت مستعمرات جديدة ، وتكوّنت مجموعات من المستعمرات في مناطق هامة . وعندما وجد العرب ان هجماتهم تتزايد تكاليفها على الدوام ، بدأت مبادرتهم تتلاشى بالتدريج ، حتى امكن تحقيق سلام نسبي – وكان سلاماً غير مستقر – في ربيع ١٩٣٩ .

وكان أكبر إنجـــاز في تلك الفترة ، هو تطوير التنظيم العسكري اليهودي على أساس جغرافي – استراتيجي (أي في مناطق جغرافية حسب أهميتها الاستراتيجية . وقد واصل هذا التنظيم تقدمه بثبات طوال تلك الفترة ، كماً وكيفاً على السواء ، وفي مستويات التدريب والنظـــام ، وفي الثقة التي اكتسبها من خبراته القتالية .وحتى ذلك الوقت لم تصل الوحدة التكتيكية للهاجاناه أبداً إلى مستوى الكتيبة ، وإن كانت تملك مستوى الكتيبة كإطار شامل لقوتها كلهـــا . أما أعلى وحدة تكتيكية لها ، فكانت بمستوى « الجماعة » . وكان

المعنى العملي لهذا ان الهاجاناه قد بدأت تظهر كميليشيا حديثة أو كجيش في حالة التكوين .

ربما يكون الصهيونيون قد كسبوا حرب فلسطين في الثلاثينات ، ولكن لا جدال في أن اللجنة العربية العليا كسبت الصراع السياسي . ويبدو أن القوة المتصاعدة لدول المحور ودعايتها في الشرق الأوسط هي التي أدت إلى زيادة القوة السياسية العربية في ذلك الوقت الحرج . لقد نجح العرب في مقاومة توصيات لجنة اللورد بيل (١٩٣٧) بتقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما يهودية والاخرى عربية . كما نجحوا في أن يحصلوا من بريطانيا على « الكتاب الأبيض المشئوم في العام نفسه . وقد تعهدت بريطانيا في هذا الكتاب بالمحافظة على النسبة الحالية للسكان العرب واليهود في فلسطين ، أي في غير مصلحة اليهود بصفة دائمة ، وذلك عن طريق تحديد الهجرة بشكل خطير .. حتى من المانيا النازية . وحظر على اليهود التوطن في مناطق كثيرة من فلسطين الصغيرة ، حتى لو كانت هذه الأرض مملوكة لليهود . وهكذا خلقت أحياء يهودية أو (حارات يهود) في أرض الميعاد نفسها . وقضى الكتاب الأبيض بحل الهاجاناه ، كما وعد بمنح فلسطين حكماً ذاتياً في المستقبل القريب ، الأمر الذي يترك اليهود –في ظل الظروف السائدة – تحت رحمة الأغلبية العربية . وكان من الواضح أن هذه السياسة – لو نفذت – سوف تعني نهاية حلم اليهود في

إنشاء دولتهم ، وربمـــا الابادة المادية للمجتمع اليهودي في فلسطين . وكان ذلك أكثر ما يمكن لأي زعيم يهودي — حتى أكثرهم اعتدالاً كحاييم وايزمان أن يقبله . وبدا أنه رغم علاقات العمل التي جمعت بين اليهود والبريطانيين لفترة طويلة في فلسطين — وهي علاقات وإن لم تكن ناضجة على طول الخط فلم تكن فاشلة تماماً أيضاً — فإن صداماً مكشوفاً بين الاثنين قد أصبح من الصعب تجنبه .

وبطبيعة الحال ، بدأت الاستعدادات على الفور تقريبـــاً لمحاربة الكتـــاب الأبيض ، بمختلف الوسائل والأساليب .. الكتاب الأبيض وحده وليس المملكة المتحدة . ووصل إلى الشاطىء الفلسطيني سراً عدد من السفن التي تقل المهاجرين الهاربين من اضطهاد النازي في أوربا.وقد غرقت بعض السفن الاخرى مثل « ستروما (١٠) » في عرض البحر . كما أقيم عدد من المستعمرات بالطريقة المعتادة في المناطق المحظورة ، ولكن مع فارق .. وهو ان المستعمرات تقام الآن للحرب ضد الانجليز أصحـــاب الكتاب الأبيض ، لا ضد العرب . وأصبحت تبنى بين حلول الليل والصباح ، لا بين الصبـــاح والمساء كما في الماضي ، تجنباً للداوريات البريطانية هذه المرة . ووصلت الاستعدادات إلى حـــد تكوين مجموعة خاصة من المتطوعين ، الذين دربوا على التخريب وعمليات الكوماندوز ، بهدف مد نطاق القتال إلى المجـــال العسكري عندما قامت

الحرب العالمية الثانية . ولقد وضعت هذه الحرب اليهود في ورطة . ان الانجليز يقاتلون ببسالة — وحدهم تقريباً في البداية — أكبر عدو لليهود في التاريخ ، فهل يستطيع اليهود أن يواصلوا القتال ضد الانجليز في إحدى قواعدهم الحيوية بالشرق الأوسط ، وبذا يضعون مجهودهم الحربي ضد العدو المشترك ؟ وكان الجواب ان ذلك لا يمكن بالطبع . وهكذا أصبحت المشكلة الرئيسية هي الاهتداء إلى سبيل يجعل اليهود مقبولين كحلفاء — معلنين أو غير معلنين — في القتال الدائر ضد الالمان والطليان . كذلك هل يستطيع اليهود أن يتخذوا موقفاً قد تفسره لندن بأنه يهادن سياسة الكتاب الأبيض ؟ وكانت الإجابة مرة اخرى ، ان ذلك غير ممكن بالطبع .. ان فكرة مقاومة الكتاب الأبيض يجب أن تظل حية ، ويجب أن تستمر الاستعدادات العسكرية للنضال . ولقد وصف دافيد بن جوريون رئيس المجلس التنفيذي للصهيونية هذا الموقف وصفاً تاريخياً عندما قال : «..اننا سنشترك في الحرب كما لو لم يكن هناك كتاب أبيض ، وسنحارب الكتاب الأبيض كما لو لم تكن هناك حرب » . كان جميلاً أن يقال هذا ، ولكن في التطبيق أثبت الجزء الثاني من افتراض بن جوريون انه أقل سهولة من الجزء الأول . فالذي حدث هو أن المجتمع اليهودي في فلسطين كرس نفسه للمجهود الحربي العام ضد دول المحور ،

ونسى وحداته الخاصة المستقلة السرية ، ربما لم يكن هنـــاك مفر من ذلك . ومع استمرار هــذا الوضع ، ومع الحرص الأصيل على المساهمة في هزيمة المانيا النازية ، استقر في أذهان الكثير من اليهود ، وهم يصور لهم ان التاريخ قد يعيد نفسه ، ان هذه الحرب قد تسفر عن (وعد بلفور) جديد يتضمن تعهداً بريطانياً أكثر وضوحاً وحزماً بقيـــام دولة اليهود في فلسطين .

وخلقت الأحداث على الجبهة الغربية في السنوات الأولى للحرب ، موقفاً جديداً في الشرق الأوسط . لقــد اكتسح الالمان فرنسا ، وأعلنت القوات الفرنسية في سوريا ولبنان ولاءها لحكومة فيشي . وكانت تركيا حتى ذلك الوقت غير ملزمة لنفسها بشيء ، وإن كان يشك في انهـا تنوي الانضمام لدول المحور إذا واصلت انتصاراتهـــا . وكانت مصر مهددة من قواعد المحور في الصحراء الغربية ، والدوائر العربية تميل نحو برلين وروما . أما في بغداد فقد أثار (انقلاب) رشيد عالي الموالي للالمان الشرق الأوسط كله . وبدا أن المنطقة كلها مهددة بحركة كاسحة ضخمة . وفجأة تبين قادة اليهود المراقبين للأوضاع في فلسطين ، أن فلسطين قد تكون ميدان قتال لحملات كبرى ، وانها – مثلها مثل غيرها من المناطق – قد تخلى من كل قوات الحلفاء . وإذا حدث ذلك فإن اليهود في فلسطين سيجدون أنفسهم في مواجهـــة عدوين .. الالمان

والعرب . وكان إدراك ذلك بداية تحول جديد في تاريخ التنظيم العسكري لليهود في فلسطين .

وكان في ذلك حافز فوري للعمـل . ففي مايو ١٩٤١ ، أقرت القيادة العليا للهاجاناه ، بموافقة المجلس التنفيذي العالمي للحركة الصهيونية ، اقتراحاً بانشاء قوة يهودية ضاربة ، مستقلة وسرية ، تتكون من تسع جماعات ، معبأة بصورة دائمة للعمل في أي وقت وأي مكان، وان هذه القوة يجب أن يتم إنشاؤها باسرع وقت ممكن . وقد عرفت هذه القوة باسم « البالماخ » وهي الحروف الأولى للكلمات العبرية (الجماعات الضاربة) . وكان من المقرر أن تعمل هذه القوة وحدها أو بالتعاون مع قوات الحلفاء ، حسب الظروف . وتوافق إنشاء البالماخ مع قرار الحلفاء بغزو سوريا ولبنان في أغسطس ١٩٤١ . ويبدو ان الحلفاء لم يكن لديهم وقت كاف لاعداد الحملة ، ولذا فقد طلبوا من أول جماعتين للبالماخ – عن طريق وساطة الادارة السياسية للمجلس التنفيذي الصهيوني – الاشتراك فيها بعمليات مستقلة ، كمرشدين ومخربين ، وكوحدات متقدمة ، وفي مهام مخابرات وراء خطوط العدو . وتمت هذه العمليات جميعـاً بنجاح ، وقوبلت بارتياح كبير من قيادة الحلفاء في المنطقة .

استمر هـذا التعاون غير الرسمي منذ ذلك الوقت حتى انتصار الحلفاء في العلمين، متضمناً اعتراف السلطات البريطانية

(الواقعي) ولكن المؤقت بالطبع ، بوحدات البالماخ غير الشرعية . لم يسمح لأفراد البالماخ قط بالاندماج في الجيش البريطاني ، مما يتعارض مع انخراط عشرات الآلاف من شباب اليهود في هذا الجيش رسمياً ؛ وذلك بناء على رغبة الطرفين معاً . لقد أصرت البالماخ على بقائها مستقلة عن الانجليز، وكان الانجليز حريصين على تأكيد الطابع الوقتي لتعاونهم مع البالماخ. ويبدو أن الاثنين كانا يعلمان انه لن يمض وقت طويل حتى يجد كل منهما نفسه في مواجهة الآخر على جانب من المتاريس. كان الموقف بينهما هو (كمن يشعر ان عليه أن يحب شخصاً قد يكرهه في يوم ما) على حد تعبير أرسطو القديم .

ان التعاون مع الانجليز ، قد أعطى البالماخ – رغم قصر حياته – فرصة فريدة لتدريب عسكري أفضل في ظروف علنية ، وبالتالي أكثر سهولة ، على أيدي مدربين من البالماخ نفسها أو من الانجليز . وقد تخصصوا في التخريب وعمليات الكوماندوز وأعمال المخابرات والاتصالات من النوع المطلوب لمحاربة الالمان إذا وصلوا إلى فلسطين. وبفطاء من المئات القليلة الذين اعترف بهم الانجليز ومولوهم ، تلقى الآلاف من شباب اليهود تدريباً وخبرات عسكرية مماثلة . ولقد عمل بعض أفراد البالماخ مستقلين كمظليين محاربين في دول البلقان التي يحتلها الالمان ، لتعزيز المقاومة اليهودية لقوات الاحتلال . واشترك البعض الآخر مع القوات البريطانية ، في غارات عميقة وراء

خطوط العدو في الصحراء الغربيـــة . كما قام آخرون – ممن يتقنون الالمانية – بالتسلل إلى معسكرات الالمان لأغراض المخابرات ، ولنفس المهمة تنكر آخرون كعرب ودخلوا سوريا ولبنان استعداداً لاحتمال غزو الماني للبلدين . أما بقية رجال البالماخ ، فقد أعدوا نفسهم لكي يكونوا عناصر رئيسية في مقاومة الالمان والطليان إذا نجحوا في غزو فلسطين .

أدرك قادة البالماخ ان الحرب ضد جهاز عسكري حديث كجهاز الألمان تقتضي إعداداً خاصـــاً . وقد جعلهم ذلك يفكرون ويخططون ويدربون رجالهم على أحدث الخطوط . كان عدم التكافؤ في القوة صارخـاً . ان أي اشتباك عام على جبهة القتال يعني نهـاية القوات اليهودية . ولذلك يجب وضع خطة تأخذ في اعتبارها جوانب القصور الخطيرة هـــذه ، وتتناسب في الوقت ذاته مع ظروف البـلاد الخاصة . كان الدافع هو الحرص على حماية أرواح أكبر عدد ممكن من السكان المدنيين ؛ وإعاقة تقدم الجيش الألمـــاني لتخفيف الضغط عن الجبهات الأخرى .. وإذا كان لا مفر من الموت فليكن أثناء القتال لا في أفران الحريق .

كانت الخطة المقترحة على أكبر درجة من خصب الخيال . لقد استقر الرأي على تخصيص جزء من فلسطين ليكون قلعة احتماء حصينة لجميع يهود فلسطين (وعددهم يزيد قليـلاً عن

نصف مليون) . وكانت المنطقة المختارة تتكون من جبل الكرمل كله ووادي زيبلون – بين حيفا وعكا – وسلاسل الجبال في الجليل الغربي الواقعة على خليج حيفا على البحر المتوسط ومطار على الشاطىء .. نوع من « الماسادا »[١١] الحديثة ، ولكنها أقوى ، وفرصتها في الصمود أكبر من فرصة مثيلتها القديمة .

وكان الرأي ان هذا الملجأ الحصين يكفل فرصة معقولة للانقاذ . فالمكان عبارة عن أرض جبلية متصلة بالبحر والجو ، وسيعتمد على القوات المتحالفة في الحصول على ما يحتاج إليه من مؤن وإمدادات ، وستحميه في العمق غارات الفدائيين على خطوط مواصلات العدو وقواعده ومنشآته . ولقد أثبتت تجارب الحلفاء اللاحقة في طبرق ولينينجراد وغيرهما من المناطق التي حوصرت ،ان المشروع لم يكن عارياً من الواقعية . وكان الأمل انه إذا تحول المد بعد فترة من الحصار ، فإن (قلعة الكرمل) هذه تصبح رأس جسر للهجوم ، وبذا يصبح من الممكن ملاقاة قوات العدو المتقدمة في منتصف الطريق .

ولحسن الحظ لم يحدث ما يجعل تنفيذ هذه الخطة ضرورياً أبداً . ومع ذلك فإن مجرد الأخذ بمثل هذه الاستراتيجية الكبرى ، قد أعطى الهاجاناه ، وقوتها الضاربة البالماخ ، أبعاداً جديدة من التصور العسكري والخبرة . فقد كانت

خطة إنشاء هذا الملجأ تتضمن عمليات استراتيجية عديدة .. تدريب عسكري واستعدادات تنظيمية ودراسة لتكوين العدو وما ينطوي عليه هـــذا التكوين من استراتيجية وتكتيك . كل ذلك أدى إلى تقدم ملحوظ في التفكير العسكري اليهودي نحو مرحلة أكثر نضجاً . لا شك ان الحرب العالمية الثانية بصورة عامة ، قد زادت من قوة المجتمع اليهودي في فلسطين زيادة كبيرة . لقد اكتسب عشرات الألوف من المتطوعين اليهود في مختلف فروع القوات البريطانية المسلحة تدريباً عسكرياً قيماً وخبرة فنية طيبة .. ولقد جلبوا خبراتهم معهم إلى الهاجاناه ، مما عاد عليها بفوائد كبرى في مراحل تالية .

لقد كان تطور البـالماخ في سنوات الحرب قصة في حد ذاته . عندما انتهت مرحلة تعاونها مع الانجليز ، ظلت لفترة من الوقت تنمو في العدد ، وتحسن من مستويات تدريبهـا . ومع ذلك ، فلم يلبث أن جاء الوقت الذي كاد نقص الأموال يهدد وجودها .. لقد استطاع التفاوت الكبير بين الميزانيتين البريطانية واليهودية أن يلعب دوره ، ووجدت البالماخ نفسها مواجهة بخيار خطير . أما أن تحل نفسها ويلتحق أفرادها بالجيش البريطاني أو أن يذهب كل منهم إلى بيتـه (وكلاهما معناه اختفاء العمود الفقري للهاجاناه) أو أن تحاول الاعتماد على نفسها اقتصادياً، وتضمن بذلك استمرار وجودها كوحدة

دائمة التعبئة . ولم يكن هذا الخيار الثاني بالأمر اليسير . فهو يعني ان قومــاً يخدمون طول الوقت في جيش مطالبون بأن يسعوا على كسب قوتهم أيضــاً .. وهو مطلب أقل ما يقال فيه ، أنه غير عادي . وبالاضافة إلى ذلك، فإن تحسن الموقف على جبهة القتال بعد معركة العلمين كان له أثره في تقليص الشعور بالخطر ، الذي يوحد الرجــال على التضحية والفداء . ومع ذلك ، فإن الإدراك آخر الأمر ، ان انتصار الحلفاء في الحرب – بكل ما له من أهمية تاريخية – ليس هو النصر النهائي للصهيونية ، وان النضال الصهيوني من أجل الاستقلال سيبدأ عندما تنتهي الحرب ، أعطى الرجال دافعاً منشطاً جديداً لقبول المصاعب . لقد كانت الورطة نفسها واضحة كالبللور .. إذا ظل الكتاب الأبيض نافذ المفعول فإن اليهود سيحاربون الانجليز، وإذا ألغي فإن العرب سيبدأون مظاهرات واضطرابات واسعة النطاق . وفي كلتا الحالين ، فإن على الهاجاناه ، وبخاصة مقاتلي البالماخ ، أن يكونوا على استعداد لصدامات عسكرية ، بدا أنه لن يكون هنــاك مفر منها . والحلفاء يحتفلون بيوم النصر ويبدأون في تسريح قواتهم .

وأخيراً وضعت خطة أصلية لإنقاذ البــالماخ من الفناء .. ان ترابط جميع فصائلهــا في الكيبوتزات المنتشرة في جميع أرجاء البلاد ، وتشكل الفصائل المنضمة إلى بعضها جماعات ، وتتكون من الجماعات المندمجة في بعضها كتائب . وتقرر أن

يقضي جميع أفراد القوة المقيمين في أحد الكيبوتزات نصف الشهر في العمل بحقول الكيبوتز والنصف الآخر في التدريب . وما يكسبونه من عمل نصف الشهر يعولهم الشهر كله . نجحت الخطة نجاحاً تاماً في حل المشكلة المالية لاستمرار الوجود العسكري للبالماخ ، كما حققت نجاحاً في عدة إتجاهات لم تكن في الحسبان . فإلى جانب ما أتاحته لشباب البالماخ من خبرة العمل لكسب العيش ، أثبتت قيمتهـا التي لا تقدر بثمن ، كتربية معنوية واجتماعيـة ، وهكذا ساهمت في خلق الروح المعنوية العالية التي حافظت عليها هـذه القوة وأثبتتها حتى النهـاية .

وبدأ إدخال مستوى الكتيبة كوحدة تكتيكية ، كما بدء في تكوين الألوية .. ولكن لم يسمح لذلك بأن يكون على حساب مرونة البالماخ كقوة حرب عصابات . وظل الجندي يدرب على أن يفكر ويعمل في إطـــار أصغر وحدة ممكنة (كان يقال أن الوحدة النهائية للبالماخ هي الجندي وسلاحه) ؛ وهكذا احتفظ رجل البالماخ بمزاياه الفردية حتى وهو يعمل في إطار تشكيل عسكري أكبر . ورغم زيادة الاهتمام بوجود وحدات دائمة بالمعنى المفهوم – من السرية والفصيلة والجماعـة إلى الكتيبة واللواء – فإنه في العمليات الفعلية ، ظل استخدام « قوة مهمة » هو الأسلوب المتبع بصفة عامـة وفقاً لطبيعة

الهدف ، وكانت قوة المهمة تضم عناصر قتالية متنوعة، تجلب أحياناً من وحدات مختلفة .

ان نجاح التعاون والتنسيق بين صغار القادة في الوحدات الأصغر ، يقتضي إلى حـــد كبير توافر صفات الذكاء ونفاذ البصيرة وقدرة التصور؛ وفي صفوف البالماخ ساعدت تدريبات حرب العصابات على تنمية هذه القدرات . وتدلنا التجارب على أن تحويل وحدات حرب العصابات إلى قوة نظامية أيسر وأسلم من العكس . ويبدو لي الآن ان تدريب البالماخ–المتعدد الأهداف – كان من أعظم مقوماتها. لقد تلقى أفرادها تدريباً بدنياً صارماً من النوع الاسبارطي الممتاز ، تعلموا استخدام مختلف الأسلحة ، من السكين والقنبلة اليدوية إلى الرشاشات ومدافع الهاون والمفرقعات . لقد تلقوا دورات تدريبية في أعمال الميدان ، وفي القتال بالليل وبالنهار، في مجموعات صغيرة وكبيرة .. لقد ازدادت حدة الشعور بالنظام لديهم ، ودرسوا على الطبيعة طبوغرافية البلاد في طولها وعرضها . لقد تعرفوا معرفة وثيقةعلى الأرض التي قد يحاربون فيها . بل انهم كرسوا جزءاً كبيراً من دراستهم لمعرفة العادات القومية والهياكل العسكرية لأعدائهم المحتملين في المستقبل ، وبصفة رئيسية ، الانجليز والعرب . وبالإضافة إلى تدريبات المشاة التي تلقوهـا على مستوى الكوماندوز ، دربوا جميعـاً تدريباً أولياً على

العمليات البرمائية ، استعداداً لعمليات الهجرة السرية بالبحر. وبعد مناقشات حامية بين قادة البالماخ والضباط اليهود الذين تلقوا تدريباً بريطانياً ، اتفق على رفض النظرية البريطانية في التنظيم الحربي بوصفها طريقة مصطنعة ومبالغة في منهجيتها لاكتساب عادات القتال في الميدان . وأخيراً ، وحتى يمكن للبالماخ توسيع قوتها في حالة التعبئة العامة ، كان أي فرد من أفرادها تبدو عليه إمارات الامتياز يوضع في برنامج لتدريب القادة ، حتى ولو لم يكن هناك احتمال فوري لاعطائه قيادة وحدة ، ويظل في الوقت نفسه يخدم كجندي فرد في وحدته لبعض الوقت . ولقد مكنت هذه الطريقة البالماخ من التوسع بسرعة كبيرة عندما كانت تواجه أي حالة من حالات الطوارىء .

ولما كانت البالماخ هي القوة اليهودية الوحيدة الدائمة التعبئة ، فقد أخذت على عاتقها خلق نواة لسلاحين جديدين .. اسطول وقوة جوية . وتم استخدام النوادي الرياضية ،البحرية والجوية ، في تدريب عشرات الجنود على قيادة الطائرات البسيطة (ولم يكن يوجد غيرها) في أعمال الاستطلاع والتموين ، والقصف الجوي البدائي . ودرب مئات الجنود كبحارة محترفين ، واضعين في اعتبارهم عمليات الهجرة السرية المستقبلة من أوربا ، وكذلك ضرورة تكوين نواة اسطول حربي . وتلقى عدد

كبير من رجال البالماخ تدريباً متخصصاً كمخربين وكشافي استطلاع . وأصبحت المفرقعات سلاحاً شخصياً تقريباً لعضو البالماخ .. للذكور بالتأكيد ، وللاناث إلى حد ما . وكان الغرض من المفرقعات هو استخدامها بطريقتين رئيسيتين .. لتدمير منشئات معينة بهدف خلق الاضطراب ، ولضرب المواقع الحصينة بهدف « تليينها » قبل الهجوم عليها ، بدلاً من التليين بالمدفعية .

وفي السنة الثالثة من حياة البالماخ ، تقرر إنشاء نظام للاحتياط خاص بها . كان كل فرد يعفى من الخدمة الفعلية بعد سنتين ويوضع في وحدة احتياطية . وبالنسبة لقادة القطاعات كانت مدة الخدمة ثلاث سنوات ، ولصغار الضباط أربع سنوات ، أما بالنسبة لقادة الجماعات والرتب الأعلى ، فكانت المدة تتقرر في شأن كل منهم بصورة فردية بمعرفة القائد العام للبالماخ . وكان رجال الاحتياط يدعون للتدريب والتمرين بضعة أسابيع كل عام ، كما كانوا يشتركون بين وقت وآخر في العمليات . هذا النظام هو أصل نظام الاحتياط الذي أصبح من معالم قوات اسرائيل المسلحة على الدوام ، والذي أثبت قيمته الكبرى في كل حرب خاضتها اسرائيل .. من حرب التحرير عام ١٩٤٨ ، إلى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ .

وكانت البالماخ معمل التجارب للهاجاناه ، تختبر فيه الأساليب الجديدة للتدريب والتنظيم ، وكانت إنجازاتها ، بطبيعة الحال ، تنسب إلى الهاجاناه ككل . إن مستوياتها العالية قد أصبحت خير نموذج لسائر الوحدات . لقد كانت في الواقع أول جيش يهودي دائم التعبئة يعمل تحت سلطة يهودية كاملة الاستقلال منذ عهد (بار - كوجناه) قبل ثمانية عشر قرناً مضت . وهكذا كانت البالماخ أكثر من مجرد وحدة عسكرية من وحدات الهاجاناه، لقد كانت عنصراً ملهماً وسط المجتمع اليهودي في مقاومة العسف الأجنبي ، وساعداً أيمن للقيادة السياسية في تحقيق الأهداف القومية . وبانتهاء الحرب العالمية الثانية كان هناك أربع كتائب بالماخ جيدة التنظيم والتدريب والانضباط ومستعدة دائماً للعمل ، وحولها وحدات أخرى كثيرة للهاجاناه ، على استعداد للتعبئة كلما دعت الضرورة .

في ذلك الوقت ، كان هناك سؤال واحد في ذهن كل إنسان ... ماذا ستكون سياسة الحكومة البريطانية الجديدة إزاء فلسطين ؟ لقد ألتزم حزب العمال إلتزاماً كاملاً بانشاء دولة يهودية في فلسطين . بل ان تعهدات العمال ذهبت أبعد مما توقع زعماء الصهيونية أو طالبوا[١٢] . وعلى أساس ذلك تعلقت آمال كبرى بحكومة عمالية تأتي بعد الحرب . وهكذا

فإنه من السهل فهم خيبة الأمل الكبرى التي أصيب بها اليهود عندما ثبت زيف هذه الآمال .

ورغم ذلك ، فإنه في عام ١٩٤٠ عــام انتصار العمال ، انتعشت آمال المجتمع اليهودي في فلسطين . ولكن هذا الأمل كان يحمل معه خطر تخفيف اليقظـــة والاستعداد بين أفراد الهاجاناه بصفة خاصة ، والسكان جميعاً بصفة عامــة . إن كل جيش يتأثر بالحالة النفسية السائدة في مجتمعه في لحظة معينة من تاريخه ، فمـــا بالك بجيش هو في حقيقته ميلشيا سرية من المتطوعين . أضف إلى ذلك ، الإجهاد الكبير الناتج عن حرب قد انتهت لتوها ، وما قد تخلفه هـــذه الحرب من آثار قد تكون فاجعة على الاستعداد القتالي ليهود فلسطين .. كل ذلك كان من السهل تبينه . ومن حسن الحظ ان القيادة الصهيونية كانت متنبهة تماماً للخطر . ولذلك قام بعض القادة السياسيين ومعظم قادة الهاجاناه – وبخاصة قواد وحـدات البالماخ – بعمليات تسخين سريعة ، كنوع من التحصين ضد أي استرخاء ، انتظاراً لمعرفة ما ستكون عليه سياسة الحكومة البريطانية الجديدة على وجه التحديد . وكان من نتيجة ذلك انه عندما بادرت هذه الحكومة إلى إظهار اتجاه نيتها إلى اتباع نفس السياسة المعادية للصهيونية التي كانت تتبعها سالفتها ، بدأت الهاجاناه على الفور نضالها ضد الانجليز ، مزودة بكل سلطة القيادة المنتخبة للحركة الصهيونية ، بهدف إجبار لندن إما

إلى إعادة النظر في سياستها ، أو تسليم انتدابها على فلسطين إلى الأمم المتحدة التي خلفت عصبة الأمم .

في أي عمل عسكري ، لا يمكن اتخاذ القرارات الخاصة بالاستراتيجية أو التكتيك أو التدريب والتنظيم ، إلا على ضوء العوامل المرتبطة تماماً بالموقف . ولفهم هذه الجوانب من عمل الهاجاناه العسكري ضد الانجليز في فلسطين ، لا بد من الاشارة إلى العوامل والظروف الخاصة التي أثرت على مسلكها من النضال ، إن لم تكن قد حسمته تماماً . كان اليهود في فلسطين أقلية .. كان عددهم حوالي نصف مليون ، أي حوالي ثلث السكان . وكانوا مركزين في المدن والقرى الواقعة على طول السهل الساحلي بصورة رئيسية ، وإن كان بعضها في الجليل . كما كانوا مبعثرين في مستعمرات معزولة معظمها كيبوتزات في الداخل العربي وفي تلال يهوذا وشمالي النقب . وحتى أكثف المناطق سكنى باليهود كانت تتخللها مراكز تجمع عربية . وفي بعض المدن كان السكان مختلطون ، عرب ويهود معاً . وبعكس ذلك تماماً ، كانت القواعد العسكرية البريطانية ومخافر الشرطة البريطانية منتشرة في جميع أرجاء البلاد وتحتل مواقع استراتيجية . كانت حكومة الانتداب مسيطرة تماماً؛ وكان للاسطول البريطاني وجود ملموس في البحر المتوسط . وكانت القوات البريطانية جيدة التجهيز والتدريب، وكانت في حالة استعداد طيب نتيجة اشتراكها في الحرب .

ومع ذلك فقد كانت هذه القوات – أيضاً – تعاني من إجهاد الحرب ؛ وكان كل من الاقتصاد البريطاني والرأي العـــام البريطاني لا يتوانيان في الإلحاح على تسريح القوات في أسرع وقت وعلى أوسع نطاق . أما بالنسبة للعالم العربي ، فقد كان من الواضح انه إذا قام القتـــال بين اليهود والبريطانيين في فلسطين ، فإن أقصى ما يمكن توقعه من العرب هو الحياد غير الودي تجاه اليهود ، بينما توجد احتمالات متزايدة للتعاون بين العرب والبريطانيين في البلاد نفسها * .

أي استراتيجية نختار ؟ ان الحرب الشاملة المعلنة صراحة ، تعني إعطاء الانجليز مبرراً لاتخاذ اجراءات عنيفة ضد المجتمع اليهودي في فلسطين ، مع أفضل فرص النجـــاح . لم تكن القوات البريطانية تعاني أي نوع من العجز الذي تعانيه القوات المسلحة غير الشرعية ، ونتيجة لزمن كانت لها ميزة الحركة والتفوق الساحق في القدرة على شن الحرب . ولما كانت البلاد خالية من الأدغـــال أو الغابات الكبرى ، ولما كانت معظم الجبال والتلال آهلة بالسكان العرب ، فقد تم استبعاد الاستراتيجية التقليدية لحرب العصابات ؛ وفي النهاية أصبح الخيار محدداً بين ثلاث استراتيجيات بديلة :

أ – الأعمال الإرهابية ، توجه دون تمييز إلى جميع الأهداف الانجليزية والموظفين الانجليز . . وكان ذلك في أقصى طرف من الآراء.

---

* – يبدو أن المؤلف يحاول باستمرار نفي التعاون بين بريطانيـــا واليهود لغرض واضح وهو الزعم بأن اسرائيل خاضت حرباً نضالية ضد العرب وضد بريطانيا .

ب - وفي أقصى الطرف الآخر ، نضال « محدود » ينبذ العمل العسكري ، ويقصر نفسه على مهمة إدخال المهاجرين السريين وإنشاء مستعمرات جديدة في مناطق محرمة ، وتنظيم مظاهرات ضخمة .

ج - وكان « الطريق الوسط » هو الذي تقرر : وهو رفض الإرهاب الشخصي على اسس أدبية وعملية ، (فهو غير أدبي لأنه ضد قانون الأخلاق اليهودي ، بما يحمل من احترام للحياة الانسانية ، وغير عملي لأنه قد يثير إرهاباً مضاداً) * . ان الطريق الذي تقرر ، يقبل الاختيار الثاني ، الهجرة السرية،المستعمرات الجديدة في المناطق المحرمة،والمظاهرات.. بوصفها أفضل وسائل النضال ، يدعمها ، مع ذلك ، عمل عسكري مباشر على أساس تكتيكات حرب العصابات[١٣].

ولقد استخدم تعبير (النضال) عن عمد - وكما أعتقد بدقة - بدلاً من(الحرب) حتى ولو كان يشمل أعمالاً حربية.. أولاً لأنه رغم ان العمليات كانت تتم وفقاً لتكتيكات حرب العصابات ، فإنها لم تكن حرب عصابات شاملة ، وثانياً لأنه كان جزءاً محدداً من استراتيجية الهاجاناه وتكتيكها أن تتجنب الخسائر في الأرواح أو على الأقل تنخفض بها إلى الحد الأدنى -سواء على الجانب البريطاني أو اليهودي- في جميع عملياتها ، بما في ذلك الهجمات على الأهداف العسكرية . ولذلك فقد

* - هذه المعادلة المزعومة سقطت ولعل أبرز مايؤكد سقوطها حرب ١٩٤٨ وحادثة كفر قاسم المشهورة .

كان هنــــاك قدر كبير من الحرص – وعدد كبير من المخاطر أيضاً – في تخطيط وتنفيذ العمليات العسكرية ، مراعاة لهذا الهدف .

وفيما يلي مجمل لهذه الاستراتيجيــة – التي أصبحت باسم استراتيجية « الحرب البناءة » – يتعرض بإيجاز لكل عنصر من العناصر السابق الإشارة إليها :

لقد كانت الهجرة السرية تتم أساساً عن طريق البحر ، ولكن بعضها كان يتم على الأقدام عبر الحدود البرية ، أو عن طريق الرحلات الجوية السرية ، وفي نهاية فترة الثلاث سنوات التي بدأت عام١٩٤٥ وانتهت عام ١٩٤٨عبرت البحر المتوسط ٦٥ سفينة ، وبلغ عدد المهاجرين حوالي ١٠٠ ألف معظمهم من الناجين من أفران الحريق النازية . وكان لهــــذه الهجرة ثلاثة أهداف رئيسية .. أولاً إنقاذ بقايا المجتمعات اليهودية في أوربا ، ثانياً زيادة عدد اليهود في فلسطين ، ثالثاً كشف عدم الكفاية المؤسف في حصص الهجرة اليهودية التي تسمح بهـــا بريطانيــا بمقتضى الكتاب الأبيض ، وكسب تعاطف عالمي – بما فيه تعاطف الرأي العــام البريطاني نفسه – مع القضية الصهيونيـــة . وبذلك تحاصر هوايت هول في ركن ضيق ويكشف نقضها لوعودها وتوضح مأساة الشعب اليهودي . وكان الهدف من بناء المستعمرات السرية هو تحقيق غايتين ..

الحصول على موطىء قدم في مناطق حيوية استراتيجياً لمواجهة أحداث متوقعة؛ ومرة اخرى لفضح سياسة الكتاب الأبيض، التي كانت تحظر القسم الأكبر من فلسطين على اليهود عملياً .

أما الأعمال الحربية فلم تكن تهدف إلى تحطيم القوات البريطانية في فلسطين ، فذلك فوق طاقة القوات اليهودية ، وإن كانت قادرة دون شك على إبادة عدد لا بأس به من الوحدات والقواعد . كان هدف العمليات الحربية هو تقويض مركز القوات البريطانية وشعورها بالأمن ومكانتها ، وفوق ذلك كله اقناع هوايت هول مرة اخرى وأخيرة أنه بدون موافقة اليهود لن تستطيع بريطانيا إبقاء فلسطين كقاعدة آمنة ومفيدة في هذه المنطقة الحيوية . وعن طريق تجنب القتل من ناحية ، وإحراز نتائج عسكرية باهرة لغارات البالماخ وغيرها من الأعمال التي شارك فيها الشعب بمجموعه من ناحية اخرى ، كان الأمل إثارة عطف يهود فلسطين وإعجابهم ، وفي نفس الوقت الإثبات للعالم كله ، بما فيه اليهود أنفسهم ، ان يهود فلسطين قوة يجب أن يحسب حسابها .

ان هذه العملية المتشابكة غير العادية التي أوجزناها – الهجرة السرية وبناء المستعمرات سراً والعمل العسكري السري – كانت على ذلك تهدف إلى فرض المشكلة على جميع أطرافها وإرغامهم على البحث عن حل إيجابي لها . وباختصار

كان الأمل أن يثبت لبريطانيا وللعالم كله أن سياسة غير عادلة وغير عملية قد لا تكون سياسة على الإطلاق ، وبذلك تقتنع بريطانيـــا بتغييرها إلى سياسة أفضل ، أو إلى سياسة أسوأ وهو ما يعطي اليهود دافعاً جديداً لمواصلة النضال من أجل الوصول إلى حل . لقد كان النضال في ذاته بطبيعة الحال ، وسيلة وليس هدفاً ، كان القصد منه تمهيد الأرض لنشاط سياسي صهيوني في لندن وفي غيرهـــا من العواصم وفي الامم المتحدة ، توجهه وتنسقه الادارة السياسية للمجلس التنفيذي للصهيونية العالمية بالقدس . وربما كان من الواجب أن نذكر انه كانت ثمة خلافات –غير جذرية لحسن الحظ – بين مؤيدي هذه الاستراتيجية العامة . كان بعض نقادها ، وأنا من بينهم ، يشك في امكانية تغيير السياسة التي نقاومها والبريطانيون يحتفظون بسيطرتهم على فلسطين . كنا نفضل هدف ارغـام بريطانيا على تسليم انتدابها إلى الامم المتحدة . ومرة اخرى ، رغم اننا أيدنا تماماً الحظر على أي قتل يمكن تجنبه ، فإننـا كنا نعتقد أيضاً ان الجانب العسكري للنضال يجب توسيعه وزيادة التمويل عليه .

وفي النضال العسكري ذاته ، أثبتت الاستعدادات التي تمت أثناء الحرب – بمساعدة الأنجليز إلى حد كبير – لمقاومة الغزو الالماني الايطالي المحتمل ، قيمتهـا الكبرى للوحدات ، التي أصبح عليها الآن أن توجه عملياتها ضد الانجليز . وكانت

هذه العمليات تجري بكثافة أقل وبضبط نفس أكبر ، مما لو وجهت ضد الالمان والطليـان (إذا فرض وحدث ذلك) . وكان يعمل على معظم سفن الهجرة بحـارة وضباط لاسلكي وأطباء يهود ، يعاونهم ببسالة متطوعون غير يهود ، معظمهم ايطاليون ويونانيون . وعندما كانت إحدى السفن تنجح في اختراق الحصار وتصل إلى هدفها المحدد على الشاطىء الفلسطيني ، غالباً بالليل ، كانت المنطقة تحمى بكمائن من المشاة على البر وأحياناً بالزوارق في البحر . وكان المهاجرون ينقلون فوراً إلى قوارب صغيرة ، تحمل السفن بعضها ، ويأتيهـا البعض الآخر من الشاطىء. وكان غير القادرين على الاعتماد على أنفسهم ، يحملون إلى الشاطىء على أكتاف منقذيهم ، ويؤخذون في الليلة نفسهـا – بواسطة أدلاء وحرس مسلحين مزودين بهويات فلسطينية زائفة – إلى مدن وقرى مختارة حيث يودعون في أمان وسط سكانها . وكان يسبق (عملية الانقاذ) هذه بطبيعة الحال ، ترتيبات واسعة في أوربا ... شراء السفن وإعدادها وشحنهـا وإرسالها عبر البحر المتوسط . وقد تولت هذه العمليات كلها قيادة الهاجاناه السرية في اوربا ، التي تتكون أساساً من رجال البالمـاخ ؛ واليهود الفلسطينيون الذين كانوا يخدمون في الجيش البريطاني ولكنهم بقوا في اوربا بعد الحرب خصيصاً لهذا الغرض ، وبعض عناصر مقاتلة من المهاجرين

أنفسهم .. مقاتلي أحياء اليهود في أوربا والأنصار وغيرهم من المناضلين . كان مشروعاً عملاقاً ، يقطع الحدود الدولية ويتحدى المخابرات البريطانية القوية – سواء في أوربا أو فلسطين – والسيطرة البحرية البريطانية في البحر المتوسط ، والاستطلاع الجوي البريطاني ، والقوات البريطانية القوية السريعة الحركة داخل فلسطين نفسها . ان هذا المشروع قد مكن الهاجاناه على أن تطور نفسها إلى منظمة عسكرية قادرة على التخطيط والتوجيه والتنفيذ في مثل هذه العملية المعقدة . كما انه زود الوحدات التي اشتركت في عمليات الإنزال الفعلية على الشاطىء بخبرات قيمة من العمليات الساحلية المشتركة بكل ما تتضمنه من جوانب خاصة بالنقل والإمداد والتموين وغيرها من النواحي التنظيمية والادارية .

وتضطرد مع ازدياد قوة الهاجاناه ، ازدياد قوة الشعب بأكمله . لقد تعلم المجتمع اليهودي في فلسطين – من خبرة مشاركته الصادقة في المشروع – قيمة أن يكون له دولة . وعندما كانت إحدى السفن تنجح في الوصول، كانت الأخبار تنشر علناً في اليوم ، لضمان وصول المغزى السياسي للحدث إلى المجتمع اليهودي كله . أما في عمليات الانزال التي كانت تتم نهاراً ، فقد كان يطلب من المقاتلين القادمين أن يخفوا أسلحتهم ، ويتجمع السكان على الشاطىء ويختلطون بالمهاجرين لكي يحولوا بين السلطات البريطانية والقبض عليهم . وقد فقد

البعض منهم حياته أثناء مسيرات في وجـــه نيران المدافع الرشاشة . كان لهذا النوع من الأحداث أثره الكبير في تدعيم التضامن بين الأهالي والمقاتلين .. ولقد أفاد كثيراً في توحيد الشعب في أمة .

ورغم ان انشاء المستعمرات السرية كان أكبر من الهجرة السرية ، فقد زاد هو الآخر كثيراً من خبرة الهاجـــاناه العسكرية . وكان تخطيط هذه العملية – كما أوضحنا – يشمل اختيار الموقع وصنع المستعمرة الجاهزة وإقامتها ، ومعالجـة ترتيبات النقل والدفاع والتعاون بين المدنيين والجنود . وقد ساعدت هذه العمليات أيضاً على تطور الهاجاناه كقوة عسكرية واعية لمسئوليتها القومية .

ومع ذلك ، فإن أعظم الخبرات قيمة ، كانت تلك الـتي قدمتها العمليات الحربية بمعناها الضيق ، سواء كانت صغيرة أو كبيرة . كانت الأهداف المختارة لهذه العمليـات ، هي السكك الحديدية والجسور والعربات المصفحة ومراكز الشرطة والقواعد العسكرية ومعسكرات الاعتقال ومحطـات الرادار والزوارق المسلحة والسفن في فلسطين وفي قبرص . وكانت هذه الأهداف كلها محروسة إما بحراس مرابطين أو بدوريات متنقلة أو بالاثنين معاً . كان بعضها قريباً من المناطق اليهودية، والبعض الآخر من مناطق أبعد على طول حدود فلسطين .

وباستثناء قوة حدود شرق الأردن – التي كان أفرادها من العرب وقوادها من الضباط الانجليز – لم يشارك العرب في القتال الفعلي ضد اليهود ، وإن كانوا قد عملوا بكل اخلاص على تزويد المخابرات البريطانية بالمعلومات عن تحركات الوحدات اليهودية .. (ومع ذلك تعاون بعض العرب أحياناً مع مخابرات الهاجاناه) . وهكذا كان من الضروري أن تتم معظم عمليات الهاجاناه ليلاً ، بسبب الحاجة إلى تجنب المراقبين للعرب والدوريات البريطانية على السواء . وكان الوصول إلى الهدف والانسحاب منه يحتاج أحياناً إلى ساعات ، وأحياناً كانت المدة تصل إلى يومين أو ثلاثة ، إذا كان الهدف بعيداً بصورة خاصة عن القواعد اليهودية ، كان الرجال يمشون بالليل ويختفون طول النهار . كانت هذه العمليات تحتاج إلى قوة احتمال بدنية كبرى فضلاً عن المهارة التكتيكية والتنفيذية . وكانت تتضمن القدرة على العمل من وحدات صغيرة منفردة ، أو كوحدات صغيرة تعمل في تناسق مع غيرها على جبهة متسعة ، أو حتى كجماعة أو كتيبة تعمل ضد هدف واحد أو مجموعة من الأهداف ؛ كما كان من الممكن استخدام وحدات صغيرة وكبيرة معاً في عملية واحدة على مستوى لواء . وهذه الخبرات لم تكتسب في ميدان القتال فقط ، ولكن في التدريبات التي كانت تتم في الصحراء الخالية جنوبي البحر

الميت . لقد أتيح لكل فرد من أفراد البالماخ وعدد كبير من أفراد الوحدات الأخرى التابعة للهاجاناه ، فرصة اكتساب خبرة قتالية على جميع المستويات ، وقد تم هذا عمداً لصهر قدراتهم القتالية وروحهم المعنوية وإعدادهم لمهام أكبر في المستقبل .

ومع تطور القوات البرية ، اكتسبت نواة بحرية للبالماخ خبرة هامة . لقد ساهم العمل في قيادة سفن وزوارق الهجرة السرية من ناحية ، والاشتباك مع السفن البريطانية من ناحية أخرى ، من خلق اسطول اسرائيل ، الذي تضمن إلى جانب السفن ، فرعاً خاصاً لعمليات التخريب البحرية .

ولما كانت معظم عمليات الهاجاناه تحمل طابع الاغارات، فإن الاشتباكات بين الوحدات اليهودية والبريطانية قلما كانت تستغرق وقتاً طويلاً .. كانت اشتباكات قصيرة لأنه كان على المقاتلين اليهود السريين أن يختفوا قبل أن يفقدوا غطاء الظلام ، كما كانوا يحتاجون للوقت لإزالة جميع الآثار المؤدية إلى قواعدهم . أما عمليات الانجليز المضادة فقد كان طابعها أعمال شرطة أكثر منها عمليات عسكرية واسعة النطاق . ولكن في مرحلة تالية من الصراع، فقد اضطر الانكليز بالفعل إلى توسيع عملياتهم المضادة،وذهبوا فيها إلى أبعد من مجرد عمليات ضد وحدات الهاجاناه.. إلى المستعمرات المدنية، وإلى اعتقال

الزعماء القوميين . وهذه الأعمـــال البوليسية الأكثر قسوة – والأكثر نجاحاً – كانت مع ذلك بداية النهـــاية للحكم البريطاني في فلسطين . فلقد أثبتت للانجليز انهم لا يحاربون مجرد مجموعات صغيرة منعزلة من المتطرفـــين العسكريين ، ولكن حركة تحرير وطنية تضم المجتمع كـــله . ولقد نفرت منهم الرأي العام العالمي ، وأحالت نصرهم شبه العسكري إلى هزيمة سياسية . وجاءت النهاية من شهر فبراير عـــام ١٩٤٧ عندما أعلنت هوايت هول قرارها بإحالة المشكلة برمتها إلى الأمم المتحدة . وفي شهر نوفمبر من العام نفسه ، اتخذت الأمم المتحدة قراراً بتقسيم فلسطين إلى دولتين، دولة يهودية وأخرى عربية . وأنهى الانتداب البريطاني على فلسطين وحدد يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ كموعد للانسحاب النهـــائي لجميع القوات البريطانية والموظفين البريطانيين من فلسطين * .

ويبقى أن نضيف ان الوحدتين اليهوديتـــين السريتين المنشقتين ، اللتين كانتا إرهابيتي الطابع بصفة عـــامة ، قد ساهمتا بنصيبهما في الضغط الشامل الذي أدى في النهـــاية إلى جلاء الانجليز . لقد كانت عملياتهما غـــالباً في غاية الجسارة ،

* – أرجو أن يلاحظ القارىء المحاولة المستمرة لانكار الوجود الواقعي والفعلي والنضالي للشعب العربي في فلسطين ، واظهار اليهود وكأنهم العنصر الوحيد والمهم في فلسطين المحتلة .

وكان أعضاؤهما في غالبيتهم ، رجالاً ونساء شجعان أثبتوا قدرتهم على القيام بأعمال فداء كبرى . ومع ذلك فإنهما مـا كانا وحدهما يستطيعان إنزال الهزيمة النهائية بالانجليز ، بسبب عزلتهما داخل المجتمع اليهودي في فلسطين . وعلى العكس من ذلك ، فإن عمليات الهاجاناه كانت تملك أكبر فرص النجاح ، لا بسبب اتساع نطاقها وتنوعها فحسب ، ولكن لما تمتعت به من تأييد ايجابي من جانب الأهالي جميعاً . ولا يقل عن ذلك أهمية في تطور قوة اسرائيل العسكرية في تلك المرحلة – كما في المراحل الأخرى جميعها – تلك الظاهرة غير العسكرية التي لمسناها من قبل .. العلاقة الوثيقة بين الفروع المدنيـــة والعسكرية للمجتمع ، والاشراف الكامل للأجهزة المدنيـــة المنتجة على التنظيم العسكري ، وولاء القوات الواعي لحكومتها اليهودية القومية ، التي لم تكن قد أعلنت ولا اعترف بها بعد. إن نضج الهاجاناه الذي يدل عليـه ذلك ، يعتبر من أعظم انجازاتها ، بوصفها طليعة جيش قومي للتحرير والدفاع .

●

الفصل الثاني

حرب التحرير

تزايد التوتر بين العرب واليهود طوال عام ١٩٤٧ وأثناء المداولات المستفيضة للأمم المتحدة . وبدأ كلا الجانبين يسرع من خطى استعداده العسكري .. بتوسيع قوتـــه البشرية وزيادة تدريبها ، والحصول على مزيد من الأسلحة . وما لبث أن بدا واضحاً ، ان البريطانيين لن يجلوا عن فلسطين فقط ، ولكن صداماً عاماً بين العرب واليهود – نتيجة ذلك – لن يكون من الممكن تجنبه. واتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً في التاسع والعشرين من نوفمبر ١٩٤٧ بأغلبيـــة ثلثي الأعضاء (بمـا فيهم الولايات المتحدة الأمريكية والاتحـاد السوفييتي) بتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين في إطار تنسيق اقتصادي مشترك ، واعتبار القدس منطقة دوليـــة محايدة . وقد رفض العرب هذا القرار على الفور .. وبدأت

المظاهرات العربية في فلسطين وظهر الفدائيون العرب لأول مرة ، في مناطق نائية من البلاد .

ان الحرب التي أصبحت تعرف باسم « حرب التحرير الاسرائيلية » يمكن تقسيمها إلى أربع فترات أو مراحل متميزة .. تركت كل منها طابعها على تطور قوات اسرائيل المسلحة من ناحية ، وأدت إلى المزيد من تدعيم قبضتها على البلاد من ناحية اخرى . استمرت المرحلة الأولى حوالي ستة أشهر ، بدأت في الثلاثين من نوفمبر ١٩٤٧ وانتهت في أوقات مختلفة في أماكن مختلفة – في مارس أو ابريل أو النصف الأول من مايو – حسب مواعيد جلاء الانجليز التي تباينت بين منطقة وأخرى ، وكان آخرها الجلاء التام في الرابع عشر من مايو ١٩٤٨ . وكانت الهاجاناه مجبرة على مواصلة عملياتها سراً في المناطق التي لم يجلو الانجليز عنها بعد – ولكن على نطاق أوسع كثيراً من أي وقت مضى – مستخدمة وحداتها الشرعية كغطاء لعملياتها بقدر الامكان . وبقي البحر المتوسط والشاطىء تحت السيطرة البريطانية ، وظلت الهجرة اليهودية سرية ؛ ومعظم السفن التي حاولت اختراق الحصار اعترضها الاسطول البريطاني(١)، وضبط المهاجرون واعتقلوا في معسكرات الأسر بقبرص . ورغم اشتداد الحاجة إلى الأسلحة ، فلم يكن هناك من سبيل إلا تهريبها إلى البلاد . وعلى الجانب الآخر ، كان العرب يتمتعون بميزة وجود مناطق خالية من الانجليز في

الداخل وعلى طول الحدود ، وكان لهم بالتالي ميزة القدرة على الانتقال في حرية بين فلسطين والدول العربية التي تجاورها .

أعلنت حكومة الانتداب حيادها بين الطرفين ، وتلقت القوات البريطانية في فلسطين أمراً بان تقصر نشاطها على حراسة القواعد المؤقتة والطرق المتبقية إلى ميناء حيفا .. بوابة الجلاء . ورفضت لندن اقتراحاً للامم المتحدة باقامة وكالة « رعاية شئون » لفلسطين ، تشرف على تنفيذ مقررات المنظمة الدولية .

ومن الممكن إيجاز استراتيجية الهاجاناه في هذه المرحلة كما يلي :

١ - سياسة بناء المستعمرات في المناطق النائية يجب عدم التخلي عنها بأي حال[٢] . (وكان قد تبين انها تفرض عبئاً عسكرياً ضخماً على القيادة العليا لأنها تقتضي المحافظة على خطوط مواصلات وإمدادات طويلة ومرهقة) . ذلك أن هذه المستعمرات يمكن أن تحول إليها جزءاً على الأقل من الضغط العربي على المراكز اليهودية في السهول ، كما انه يمكن استخدامها كقواعد لعمليات حرب العصابات وراء خطوط العدو ، وكأهداف نهائية في عمليات مقبلة عندما يأتي وقت القيام بهجوم تحريري عام في المنطقة بأسرها .

٢ – الاشتباكات المباشرة مع الانجليز يجب تجنبهـا بقدر الامكان ، وذلك لعدم إعاقة خططهم في الجلاء . كما يحسن تأجيل أي هجمات كبرى ضد العرب إذا كان من شأنهـا أن تؤدي إلى تدخل بريطاني .. وبالتالي تأجيل الرحيل .

٣ – يجب الحرص على بقاء الاتصال الاقليمي بين المناطق التي طابعها الغالب يهودي وداخل كل منهـــا . ان الاتصال الاقليمي يعني أماناً أكبر لطرق المواصلات وصيانة للأرواح وإمكان خلق وضع عسكري معقول لمواجهـــة غزو رسمي هددت به علناً عدة دول مجاورة .

ولقد تحققت هذه الأهداف في معظمها ، وساعدت على تمهيد الأرض لتحقيق أهداف أكبر في المستقبل القريب . كذلك أفادت هذه المرحلة التمهيدية في زيادة تشكيل المنظمة العسكرية نفسها .. بالطرق الآتية :

١ – دخلت البالمــاخ – وهي القوة الضاربة للهاجاناه – الحرب بأربع كتائب كاملة التعبئة في إطار لواء ، وتوسعت بسرعة إلى عشر كتائب مقسمة إلى ثلاثة ألوية . وكان لهذه الألوية قيادة مركزية تتخذ مقرها على مقربة من القيادة العليا للهاجاناه لتسهيل الاتصال لحظة بلحظة حول مهامها الخاصة داخل البلاد أو عبر حدودها . وكانت البالماخ تكلف بعمليات

خاصة بها في إطار الاستراتيجية العامة ؛ أو تستخدم كرأس حربة في عمليات كبرى على الجبهات الصعبة تحت قيادة قائد جبهة ، وفي هذه العمليات كانت البالماخ تعمل بالتعاون مع الوحدات الاخرى .

٢ – في هذه المرحلة من الحرب ، انفصلت القوتان البحرية والجوية اللتان كانتا بعد في مرحلة التكوين ، من البالمـــاخ . وقد نمتا تدريجياً وغدت كل منهما قوة مستقلة لها قادتها ، وإن ظلتا حتى النهاية تابعتين لهيئة الأركان العامة للجيش .

٣ – تمت التعبئة الدائمـــة لعدد لا بأس به من كتائب الهاجاناه ، التي حولت بالتدريج إلى ألوية . وفي البداية قصرت مهمة هذه الألوية على مناطق محددة، ولكنها سرعان ما تخلت عن طابعهـــا الاقليمي ، وأصبحت قوة متحركة على مستوى الوطن كله ، وبذلك مكنت القيادة العليا من تركيز القوات في أي مسرح تشاء .

٤ – تم إنشاء حرس وطني – من الرجال المسنين والنساء والشباب تحت سن الثامنة عشر – في المدن والقرى ، وأصبح هذا الحرس معبأ تعبئة جزئية ، في إطـار الحرس القومي للهاجاناه . كانت مسئوليته بصفة عامة ، الدفاع السلبي عن الأحيـــاء اليهودية في المدن المختلطة والمزارع والمستعمرات . ولكنهم كانوا أحيانـــاً يعبأون ويرسلون إلى المناطق الريفية

كتعزيزات لها ، حيث يعملون كخفراء وعمال . وبالإضافة إلى أهمية الخدمة المباشرة التي قاس بها الحرس الوطني ، فقد ساعد على إعفاء وحدات الميدان من واجباتها الدفاعية ، وهكذا أطلق حريتها في القتال الايجابي .

٥ – استحدثت خدمات عديدة – كالنقل والمعونة الطبية والدفاع المدني والهندسة – دون مصاعب لا مبرر لها . ذلك ان معظم السكان كانوا منظمين بواسطة الهاجاناه أو مرتبطين بهـــا بشكل أو آخر ، ولذا فقد كان من السهل نسبياً توفير القوى البشرية والمعدات المدنية اللازمة لهذه الخدمات .

ولقد تم كل هذا التقدم بالوسائل الاختيارية ؛ فلم تكن هناك بعد دولة يهودية لهـــا سلطة فرض الخدمة الاجبارية . ويبدو ان هذا الخليط من المثالية والشعور المشترك بالخطر قد استطـــاع تعبئة جيش تحت التكوين للدفاع عن دولة تحت التكوين .

وكانت المرحلة الثالثة من الحرب قصـــيرة جداً ولكن حاسمة . وقد غطت الفترة بين جلاء الانجليز عن مناطق معينة وجلائهم النهائي عن البلاد كلها في الرابع عشر من مايو ١٩٤٨ موعد انتهـاء الانتداب . وكانت أحياناً بضع أيام ، ولم تزد قط عن أسابيع قليلة . وفي هذه المرحلة كانت المواجهة بين العرب واليهود في غيـــاب الانجليز المادي ، ولكن في ظل وجودهم السيامي .

وقد أتاح هذا الوضع الشاذ للهاجاناه فرصة القيام بجهود رئيسية في مناطق بالغة الدقة ، لاقامة اتصال اقليمي داخل المناطق اليهودية وفيما بينها ؛ ولمد سيطرتها إلى مناطق كانت تحتلها من قبل قوات عربية ؛وتدعيم ترتيباتها الدفاعية استعداداً للغزو الذي هددت به جيوش نظامية عربية من وراء الحدود. وخلال تلك الفترة ، لم تتمكن القوات اليهودية من صد غالبية الهجمات العربية على المستعمرات فحسب ، ولكنها تمكنت من تحرير مناطق حيوية كالجليل الأعلى والأدنى بما فيهما من مراكز عربية مثل سمخ وبيسان ؛ وبعض المدن المختلطة مثل صفد وطبريه ؛ والجليل العربي بما فيه مدينة حيفا[٣] المختلطة والمركز العربي الضخم .. يافا ؛ وأجزاء هامة من القدس الجديدة ؛ وقرى كثيرة هامة من الناحية الاستراتيجية في طول البلاد وعرضها . ولا يقل عن ذلك أهمية عدد من عمليات الميدان الناجحة ، قامت بها قوات الهاجاناه لتخفيف الضغط عن مناطق محاصرة في ممر القدس وعند مدخل النقب الشمالي .

وقد تلقت الهاجاناه بعض النكسات الأليمة في تلك المرحلة .. خسائر كثيرة في الأرواح ، تدمير عدد من القوافل اليهودية وعربات النقل وهي في طريقها إلى المناطق المعزولة وفقد عدد من المستعمرات اليهودية حول القدس . ومع ذلك فان كشف الحساب الختامي كان في صالحها بصفة عامة . ان

انجازاتها في تلك الفترة أثبتت أهميتها في خلق وضع جغرافي- استراتيجي أفضل ، لمواجهة غزو وشيك لقوات متفوقة .

وأتت المرحلة الثالثة للحرب - من ١٥ مايو إلى ١٠ يونيو ١٩٤٨ - بالهجوم الذي طالما هددت به جميع جيوش الدول العربية المجاورة ، في وقت واحد وعلى جميع الجبهات . كانت فترة بالغة الصعوبة . كان التفوق العربي في العدد والعتاد شديد الوضوح ، وكان للغزو ذاته أثر نفسي مثبط لا يقل عن أثر تفوق القوة العسكرية للعدو . ومن حسن الحظ المؤكد في هذه الظروف ، ان الهاجاناه - التي لم تكن على استعداد لشن هجوم مضاد على الفور - رفضت الأخذ باستراتيجية دفاعية بحتة . ولو أنها ركزت على الدفاع وحده لخسرنا الحرب ؛ لأن المبادرة في هذه الحالة كانت ستبقى في يد العدو .. الذي كان في مركز يسمح له بأن يختار بحرية مكان وزمان هجومه ، وأن يركز من القوات ما يكفي لكسر خطوط الدفاع اليهودية في كل مكان تقريباً . وهكذا اتبعت الهاجاناه أسلوباً خليطاً من الوسائل الدفاعية والأعمال الهجومية أصبحت تعرف باسم « الدفاع الايجابي » . ولم يكن هناك بطبيعة الحال ، خط دفاعي متصل . كانت كل مستعمرة أو كتلة من المستعمرات تحمى بواسطة سكانها أنفسهم غالباً . وفي بعض الأماكن كانت التلال الاستراتيجية والمعاقل الحصينة تحت حماية القوات النظامية . وقام الاسرائيليون بسلسلة من الغارات الليلية على

أرض العدو ، كانت تصل أحياناً إلى عمق بلاده ، مما أرغمه على ممارسة قدر أكبر من اليقظة في الدفاع عن قواعده وجسوره وغيرها من الأهداف العسكرية . وفي تلك المرحلة استخدم الاسرائيليون أول قطع حصلوا عليها من المدفعية .. وكانت قليلة وقديمة الطراز جداً . أما العدد الضئيل من الطائرات الخفيفة مثل « بيبر كبس » و « أوسترز » التي كانت تستخدم بشجاعة في الاستطلاع والنقل الخفيف وحتى في إلقاء القنابل والقصف الجوي البدائي ،فقد حل محله الآن عدد من الطائرات الأفضل قليلاً ، معظمها من طراز « ميسير شميت » . ولقد كانت القيمة السيكولوجية لهذه المدافع والطائرات لا تقل ، إن لم تزد ، عن قيمتها الحربية .

ازداد بالتدريج عدد الاغارات الاسرائيلية والهجمات المضادة المحلية ، وكان معظمها يتم ليلاً . وفشلت معظم هجمات العدو المباشرة على المستعمرات المحصنة ، وأثبت القليل منها الذي نجح (اثنان أو ثلاثة) انه كان باهظ التكاليف . ومع ذلك فقد أحرز العدو في جبهتين على الأقل ، مكاسب جوهرية . لقد نجح المصريون في التقدم إلى مسافة اثني عشر كيلومتراً من (ريحوفوت) ؛ وأقام السوريون رأس جسر عبر نهر الاردن في الجليل الأعلى ؛ ورابطت قوات شرق الاردن في البلدتين العربيتين اللد والرملة (وتضم الأولى المطار الدولي وتبعد

نصف ساعة بالسيارة من تل أبيب) كما نجحت في صد الهجمات الاسرائيلية حول جنين واللطرون .

وشيئاً فشيئاً وصلت الحالة إلى جمود . لقد فقدت الجيوش العربية قوة اندفاع هجومها ، والاسرائيليون لم يكونوا بعد على استعداد لشن هجوم كبير ، رغم ازدياد نشاطهم في الدفـــاع . وبدا أن كلاً من الجانبين يبحث عن مهلة لالتقاط الأنفاس.. وهكذا وافق الطرفان على الاستجابة لدعوة الامم المتحدة بوقف اطلاق النار لمدة ستة أشهر تبدأ يوم ١١ يونيو.

ومع مراعاة التفاوت الكبير بين قوة الطرفين ، يكون من المفهوم أن يقـــال ان هذه المرحلة من الحرب كانت نصراً لاسرائيل ، وإن لم يكن نصراً حاسماً . ان هجوم العدو لم يوقف في معظم المناطق فقط، ولكن مكاسب اقليمية كبيرة قد أحرزت . ومع ذلك فقد كانت هنـاك على الجانب المدين لكشف الحساب ، بعض النكسات القاسية .. خسارة العديد من المستعمرات ، ثم أشد الخسائر إيلاماً ، فقد الحي اليهودي بمدينة القدس .

وقام الاسرائيليون ـ مستمدين تشجيعـــاً من مكاسبهم ودروساً من هزائمهم ـ باستغلال فترة وقف إطلاق النـار في تدعيم جميع جوانب تنظيمهم العسكري إلى أقصى حـــد مستطاع . وفي هذه الفترة جرت أول احتفالات عسكرية

رسمية في البلاد . لقد أعلنت الهاجاناه كأول جيش رسمي للدولة الجديدة[٤] ، وأُطلق عليه اسم «زاحال» وهي الحروف الأولى للكلمات العبرية لعبارة (جيش الدفاع الاسرائيلي) . وأدت القوات جميعاً قسم الولاء للدولة الجديدة ، وأُدخل زي رسمي موحد . وأُنشئت رتب للضباط وضباط الصف ، كان أعلاها رتبة (ميجور جنرال) التي شغلها رجل واحد فقط هو ياكوف دوري الرئيس الجديد لهيئة أركان الحرب، والذي كان قبل ذلك رئيساً لاركان حرب الهاجاناه . وحصل عدد من ضباط البالماخ الذين كانوا يتولون قيادة جبهات مختلفة ، على رتبة (بريجادير جنرال[٥]) التي حصل عليها كذلك بعض ضباط السلاح الجوي والاسطول واللواء المدرع وقليل من ضباط هيئة الأركان العامة . أما بقية المنظمات السرية شبه المستقلة ، فقد أمرتها الحكومة بأن تحل نفسها ، واستوعب الجيش أعضاءها كأفراد . وبصورة ما ، كان هذا التحويل للهاجاناه إلى جيش رسمي للدولة عملاً شكلياً أكثر منه فعلي ـ فقد ظل التنظيم العام وسلسلة القيادة والأشخاص والولاء دون أي تغيير ـ ولكنه كان بصورة أخرى تغييراً حقيقياً بالفعل .. فقد كان رمزاً للتحول التاريخي لفلسطين إلى دولة يهودية ذات سيادة ، وتحويل مجتمعها اليهودي إلى أمة ، وهذا كله كان له مغزاه المعنوي الكبير .

أصبح الجيش البري كله الآن يتكون من سبعة ألويـــة نظامية وثلاثة ألوية بالماخ ولواء مدرع واحد . وكان الأخير حتى ذلك الوقت فقير جداً في التجهيز، ولكن الألوية الأخرى تحسن مستوى تجهيزها بأسلحة تشيكسلوفاكية وفرنسية بينها مدفعية أفضل وإن كانت حتى ذلـك الوقت، غير كافية . وحصلت القوات الجوية على عدد من طائرات « ميسيرشميت » التشيكية وطائرات « ستيفاير » الانجليزية – وقد تم شراؤها من أوربا – وكذلـك عدد من طائرات « داكوتا » لأغراض النقل وإلقاء القنابل . وحسن الأسطول من تجهيزه وتدريبه لحرب العصابات البحرية وعمليـات الانزال الصغيرة ودوريات الحراسة الساحلية. وأصبح لكل وحدة الآن قيادتها المباشرة، ولكنها كانت جميعاً جزءاً من جيش واحد يتبع القيادة العليا لرتب هيئة أركان الحرب العامة، الذي كان بدوره مسؤولاً أمام رئيس الوزراء ووزير الدفاع دافيد بن جوريون، ونائب اسرائيل جاليلي [٦] . وتم تكوين مجلس وزراء حرب داخل مجلس الوزراء، خول صلاحية اتخـــاذ قرارات معينة باسم الحكومة ؛ كما فوض البرلـمان الاسرائيلي (الكنيست) لجنة الدفاع والسياسة الخارجية بأن تتصرف باسمه . وبصفة عامة كانت القوات الاسرائيلية في ذلك الوقت أقل من قوات العدو في العدد والعدة والظروف الجغرافية – الاستراتيجية، ولكنها كانت تفوقها في التنظيم الاداري والنظـام العسكري والروح

القتالية والوحدة ، والشعور بأنه (ليس هناك خيار آخر)، وقد أصبح لهذه العبارة أهمية خاصة ، وانتشر استعمالها بين الجنود والمدنيين على السواء للتعبير عن وعي الأمة بأنها إنما تحارب من أجل بقائها . وأصبحت ترجمتها « إما أن تكسب الحرب ، أو ترمى في البحر المتوسط أنت وأمتك كلها ».

وكان من الواضح أنه عند انتهاء وقف اطلاق النار فإن كلا الطرفين سيحاول أن تكون له المبادرة في استئناف الأعمال الحربية .

وشهدت المرحلة الرابعة والأخيرة من حرب التحرير الاسرائيلية (بدأت يوم ١٨ يونيو ١٩٤٨) ، تحولاً جذرياً في القوات القتالية والادارة والتنظيم والامداد والتموين لدى جيش الدفاع الاسرائيلي . ولما كان العدو بالغ القوة وشديد القرب من معظم المناطق اليهودية المكتظة بالسكان ، كان الاسرائيليين لم يجرأوا على اتباع استراتيجية دفاعية بحتة . وكان واضحاً أنه إذا سمح للجيوش الغازية بأن تمارس مزايا الهجوم ، فإنها قد تنفذ خلال خطوط اسرائيل المشتتة ، وتسحق قواتها وتستولي على كافة المناطق التي يحتلها اليهود، والتي كان يعوزها العمق ، مما يجعل من السهل سقوطها . وعلى ذلك فقد كانت الاستراتيجية التي تقررت هي الاستراتيجية الوحيدة السليمة.. أخذ زمام المبادرة بمجرد انتهاء وقف إطلاق النار الذي

فرضته الأمم المتحدة . ولما كان الاسرائيليون غير راغبين في انتهـاك قرار الأمم المتحدة باستباق هجوم الأعداء ولو بيوم واحد ، ولما كانوا يعلمون أن من عادة العدو الهجوم في ضوء النهار ، فقد قرروا سبقه بساعات قليلة فقط وشن الهجوم في نفس لحظة انتهـــاء الهدنة رسمياً ، وعلى وجه التحديد في منتصف الليل .

وما كانت الحرب لتكسب دون سحق قوات العدو. ولقد اقتضى تحقيق هـذا الهدف النهائي تركيز قوات اسرائيل على جبهات معينة بدرجة أكبر من أي وقت مضى ، بهدف بلوغ تفوق محلي يعوض النقص العام من قواتها . وهو مـا لا يمكن – بطبيعة الحال – تحقيقه على جميع الجبهات في وقت واحد، ولذا فقد كان من اللازم وضع نظام للأولوية . وكان يبدو أن أول المهام وأعجلها هو مـا يلي : إزالة الخطر عن تل أبيب والمناطق المحيطة بها مباشرة بتحرير اللد والرملة والتوغل في التلال الريفية الواقعة شرقي السهل الساحلي ؛ فك الحصار عن القدس ؛ تطويق مدينة القدس القديمة من الشمال .. وكانت في قبضة قوات شرق الأردن . وكانت المهمة الثانية تأمين منطقة حيفـا بتحرير الناصرة والأجزاء المتبقية من الجليل الادنى . وفي الوقت ذاته كان من اللازم صد هجوم المصريين في الجنوب والعراقيين في الشرق والسوريين في الشمال، بواسطة تكتيكات

الدفـــاع الايجابي – الذي يعتمد على المستعمرات والقوات المتحركة – إلى أن يصبح من الممكن القيــام بعمل هجومي ضدهم .

وكانت العمليات كلها ناجحة تماماً . ولقد تضمنت عملية تحرير اللد والرملة غارة جسورة قامت بها كتيبة ميكانيكية داخل مدينــة اللد نفسها . وبربط أربعة ألوية تحت قيادة واحدة في الجبهة الوسطى(قيادة البالماخ) ولوائين تحتقيادة أخرى في الجبهة الشمالية (القيادة الشمالية) . حصل جيش اسرائيل على خبرات جديدة وفتحت أمامـه آفاق جديدة وازدادت ثقته بنفسه زيادة كبيرة . ورغم أن عدداً أكبر من القوات أصبح يشتبك الآن حول هدف منفرد، فإن تكتيكات حرب العصابات لم تهجر . وكان القتــال يجري ليلاً ونهاراً في مجموعات كبيرة تدعمها المدفعية مصحوباً بعمليـــات من نوع حرب العصابات التي أدرجت في الخطة العامة بطريقة أثبتت نجاحها الكبير طوال حرب التحرير وما بعدهــا . وبصورة عامة تحققت كل الأهداف.. ولو لم تفرض الأمم المتحدة هدنة ثانية (يوم ١٩ يوليو ١٩٤٨) لاستمر الهجوم الاسرائيلي دون عائق تقريباً ، مشتتاً الجهد الرئيسي للعدو بين جبهة وأخرى، إلى أن يتم تدميره تمامـــاً ، أو على الأقل انسحابه من جميع أراضي فلسطين .

استمرت الهدنة الثانية حتى العاشر من اكتوبر ١٩٤٨ . ومنذ ذلك الوقت ، لم يعد على القيادة الاسرائيلية أن تأخذ بعين الاعتبار في تخطيطها مجرد الاعتبارات المعتادة ، ولكن أيضاً احتمال تدخل جديد من الأمم المتحدة في شكل وقف اطلاق النار . لقد كان من المحتمل فرض هدنة أخرى عندما يصبح للاسرائيليين اليد العليا ، ويتمكنون من استغلال انتصاراتهم في الحصول على مكاسب إقليمية هامة وفي تحطيم المزيد من وحدات العدو .

وكان من النتائج العسكرية الفورية لهذا الوضع أنه تقرر أن تكون كل عملية - إلى جانب كونها جزءاً من الخطة العامة - كاملة في ذاتها .

وخلال هذه الفترة ، وقع حدث آخر كبير الأهمية من حيث ما يرمز إليه . لقد أقيم في تل أبيب في يوليو ١٩٤٨ أول عرض رسمي لجيش يهودي في ظل حكومة يهودية منذ تحطيم المعبد الثاني .

واستغل الاسرائيليون بنجاح فترة وقف اطلاق النار الثانية - من ١٩ يوليو إلى ١٠ أكتوبر ١٩٤٨ - في إراحة قواتهم ؛ وتدعيم وحداتهم بقوى بشرية جديدة (أستجلبت من الشباب المحلي الثاني ومن المهاجرين الجدد الذين تدفقوا - علينا الآن - من معسكرات الاعتقال في قبرص ومن

أوربا) ؛ والحصول على معدات أكثر وأفضل (زودتهم بها تشيكوسلوفاكيا وفرنسا) ؛ وإعادة تنظيم سلسلة القيادة في الجيش . وقد أخذت عملية إعادة التنظيم الشكل التالي :

قسمت البلاد كلها إلى أربع قيادات إقليمية ، كان يشار لها في ذلك الوقت بجبهات ، وكانت :

● الجبهة الشمالية التي شملت منطقة الجليل كلها، وهكذا واجهت قوات الجليل الأوسط القوات اللبنانية والسورية والعراقية وكذلك ما يسمى بجيش التحرير بقيادة فوزي القاوقجي .

● الجبهة الشرقية وتغطي مناطق سامراء* وشارون وتواجه قوات العراق وشرق الأردن في المثلث (٧) .

● الجبهة الوسطى وتغطي محور تل أبيب – القدس وتواجه الجزء الرئيسي من جيش شرق الأردن وجناحه الشمالي من العراقيين والجنوبي من المصريين .

● الجبهة الجنوبية وتغطي نصف فلسطين الجنوبي من (ريحوقوت) شمالاً إلى البحر الأحمر في الجنوب ، وكان المصريون يسيطرون على معظم هذه المنطقة تعززهم فصيلة سعودية .

وفي تلك الفترة أثر عمل من أعمال إعادة التنظيم تأثيراً مباشراً على البالماخ . فرغم أن ألويتها الثلاثة ظلت كما هي

---

* – نابلس .

حتى نهاية الحرب ، فقد حلت قيادتها العامة . وأنشئت وحدة جديدة تسمى (ناحال) – اختصار لتسمية (الشباب المقاتل الرائد) – لتحل جزئياً محل البالماخ ، وعهـــد إليها بتنظيم جميع حركات الشباب الناشئة على أسس جماعيـــة وفردية ، ونظمت عدة سرايا تضم كل منها وحدة عسكرية ومجموعة من السكان معاً .

وكان رأيي في عملية إعادة التنظيم أنهـــا صحيحة بصفة عامة ، وان كانت تخضع لتحفظين : الأول ، أنني شعرت ان القيادة العامة للبالماخ كان يجب أن تبقى بوصفها قيادة لوحدة خاصة لعمليات من نوع خاص ومسئولة مسئولية مباشرة أمام رئيس هيئة أركان الحرب العامة . وقـــد صحح هذا الخطأ أخيراً بصورة جزئيـــة على الأقل بإنشاء وحدات المظليين الخاصة، التي دربت على العمليات الخاصة ضد الأهداف الصعبة أو خلف خطوط العدو ، والتي يصلون إليهـــا إما بواسطة الإسقاط الجوي أو المسيرات الطويلة . وكان تحفظي الثاني يتعلق بعدد قيادات الجبهات . لقد رأيت أن أربع قيادات كثير جداً ، واننا لا نحتاج إلا لقيادتين فقط ، أو على الأكثر ثلاثة . وقـــد بدا لي أن ذلك أفضل من ناحيتين ... لأنه أنسب لحجم البلاد الصغير وظروفها الجغرافية ـ الاستراتيجية ، وأكثر ملاءمة لما كنت أعتبره الاستراتيجية الفورية للحرب .

ان واجبنا الأول ـ كما كنت أراه ـ هو سحق العـــدو في الجنوب وفي الشمال ، وعند ذلك فقط وبعد أن يتم تأمين جناحينا ، نهاجم الوسط الجبلي بما فيه القدس . (ويمكن أن يتم الهجوم بتطويق قوات شرق الأردن والعراق في الوسط والزحف عليهم من المؤخرة مع ترك ممر أو جسر لانسحابهم). وفي واقع الأمر خفض عدد القيادات إلى ثلاثة بعد الحرب مباشرة بالغاء القيادة الشرقية ، وظل كذلك إلى اليوم .

وأثناء الحرب تجنب الجيش الاسرائيلي مستوى الفرقة ، وانقسم ـ كما شرحنا ـ إلى قيادات جبهة . وعلى حين كانت القيادات محددة بمناطق معينـة ، فإن الألوية لم تنتسب بصفة دائمة إلى جبهات بذاتها ، فقد كانت توضع تحت تصرف أي قائد من قادة الجبهات وفقاً للاحتياجات المتغيرة للحرب . وهكذا كانت تركز القوات للجهود الضخمة على الجبهـــات المختلفة . وكان ذلك مناسباً تماماً لظروف المسرح الفلسطيني، حيث كانت القوات اليهودية صغيرة الحجم وقليلة القوة ، أي لا تستطيع تحقيق السيادة في معارك معينة إلا بامكانية الحركة والتركيز والقدرة على المنـاورة واستخدام عنصر المفاجأة . وكان يعتمد على الحرس الوطني المسلح لسد الثغرات في الجبهات الخالية . وكان ضابط القيـادة في كل جبهة مسئولاً مسئولية كاملة عن جميع أوجه الدفاع في منطقته بمـا في ذلك تخطيط

العمليات وتنفيذ الحملات الهجومية . كما كان له قسم اتصال خاص بالتنظيم المدني ، المحلي والاقليمي .

ولم تساعد حملات الهجوم الاسرائيلية التي أعقبت انتهاء الهدنة في ١٠ أكتوبر عام ١٩٤٨ - وبخاصة تلك التي تمت في النقب والجليل الأوسط- على تحقيق وتثبيت مكاسب إقليمية وإضعاف للعدو فقط ، بل أنها أدت إلى إطراد التحسن في شكل استراتيجية اسرائيل وتنظيمها العسكري . لقد اعتاد الجنود أكثر على العمل في وحدات أكبر ، وبتنسيق أفضل ولكن دون أن يفقدوا مرونة رجال حرب العصابات والقدرة على التكيف مع المواقف ، وتعلموا الاستفادة إلى أقصى حد من القليل الذي لديهم من الطيران والمدفعيه كأسلحة معاونة ، واكتسبوا خبرات كبيرة في هندسة الميدان ، وفوق ذلك كله نمت لديهم إلى حد كبير قدرات الحركة والمناورة . وخلال تلك الفترة أيضاً أصبحت تكتيكات « الاقتراب غير المباشر » - التي أبدعت في شرحها والدعوة إليها تعاليم سير بازيل ليدل هارت - أكثر وأنجح استخداماً ، وبخاصة في حملات النقب وشمالي سيناء في يناير عام ١٩٤٩ .

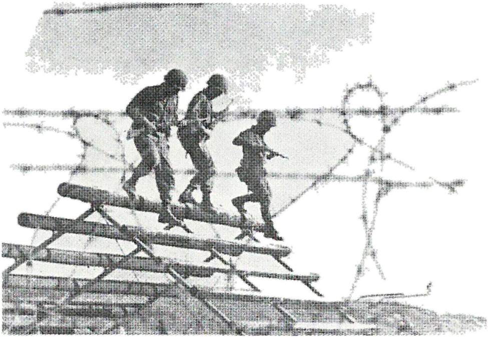
ونتيجة لهذه الحملات طهرت منطقة الجليل كلها وأعيدت إلى اسرائيل ؛ ووصلت القوات الاسرائيلية إلى نهر الليطاني في الأراضي اللبنانيـــة ؛ ورفع الحصار المصري عن للنقب .



جندي اسرائيلي على « حائط المبكى » في القدس القديمة



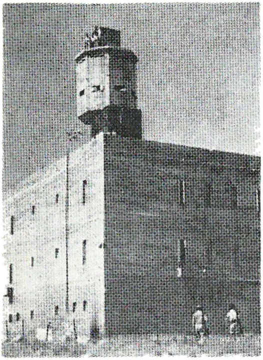
« الوحـــدة اليهودية » التي شاركت في الحرب العالميـة سنة ١٩٤٥ - ايطاليا .



عدد من الجنود الاسرائيليين يقومون بالتدريبات .



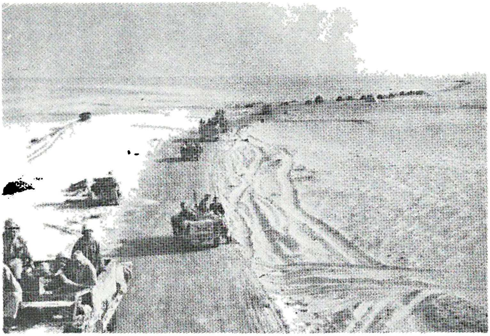
وحدة من الجيش الاسرائيلي لزرع الالغام في منطقة من مناطق النقب .



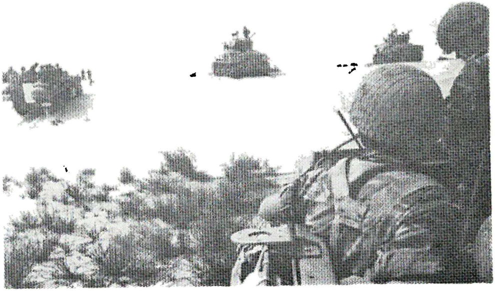
مستعمرة اسرائيلية حصينة مبنية بالاسمنت المسلح الذي لا تخترقه القنابل الخفيفة ولا الثقيلة .



الدبابات الاسرائيلية في حركة استعراض – ١٩٦٧



الجيش الاسرائيلي في الطريق الى سيناء .



الجيش الاسرائيلي في سيناء .

وقد امتدت جبهة النقب هذه من أسدود وعسقلان على البحر المتوسط، والفالوجه وبيت جبرين إلى الخليل في التلال شرقاً.. على خطوط مواصلات طويـــلة بين العريش ورفح وغزة على طول الشاطىء؛ ومن الاسماعيلية على قنـــاة السويس إلى بئر السبع في النقب الأوسط. وقد ضربت القوات المصرية وحرر النقب الشمالي بأكمله، بما فيه بئر السبع. ولم يبق هناك من القوات المصرية سوى لواء واحد شجاع، حوصر وعزل في جيب الفالوجة حتى قيام الهدنة ... وكان ضابط مخابرات هذا اللواء رائد شاب يدعى جمال عبد الناصر.

وإلى جانب هذه الانتصارات الحاسمة، بذلت محـــاولة لتحرير تلال الخليل – بيت لحم، التي كان يسيطر عليهـا من قبل المصريون الذين هزموا الآن، ولم تستول عليهـا قوات شرق الأردن بعد. وكاد طابوران اسرائيليان أن يصلا إلى هدفهما، عندما أمرتهما الحكومـــة – التي كانت مخطئة في نظري – بأن يوقفا الزحف. وامتلأ الفراغ هكذا، دون معركة، بالفيلق العربي التابع لشرق الأردن.

وترك التطهير النهائي لقطــاع غزة والنقب الجنوبي حتى البحر الأحمر لعمليات منفصلة جرت في أواخر ديسمبر عـام ١٩٤٨. وفي الثاني والعشرين من ديسمبر بدأت عملية واسعة النطاق، منتشرة على منطقة شاسعة وبأعلى درجة من قدرة

الحركة ، وكان لها هدفان : الأول ، تطهير الطريق الرئيسي من جنوب بئر السبع إلى حدود سيناء تطهيراً نهائياً ، للقضاء على الخطر العاجل على بئر السبع وتمهيد الطريق لضرب الجيش المصري في قطاع غزة نهائياً ؛ والثاني تمهيد الأرض لتحرير النصف الجنوبي من النقب التي كانت تحتله قوات شرق الأردن. وبدون تفاصيل كثيرة ، يكفي أن يقال ان مزيجاً من عمليات حرب العصابات والتقدم السريع لقوات ضخمة قد حطم القبضة المصرية جنوبي بئر السبع ، وفي حركة بالغة السرعة تم اجتياز حدود سيناء يوم ٢٨ ديسمبر . واحتلت أبو عجيلة ، مفترق الطرق الرئيسي في سيناء ، بعد معركة قصيرة حامية ، وأعقبها احتلال أماكن هامة أخرى مثل القسيمه والكونتيلله وبير حسنه ومطاري بير جفجافه والعريش ، التي سقطت جميعاً أمام القوات السريعة الحركة. وتوغلت قوة مهمة متحركة صغيرة إلى عمق يصل إلى أربعين ميلاً من قناة السويس (التي كانت حتى ذلك الوقت في أيدي البريطانيين) ، وتحرك الجسم الرئيسي للجيش بسرعة في الاتجاه الشمالي الغربي ، بهدف احتلال العريش عاصمة سيناء ، والاقتراب من قطاع غزة من المؤخرة ، أي من الجهة الأقل توقعاً وبالتالي الأضعف دفاعاً[٨]. وأصبح الجيش المصري بأكمله في الواقع مقطوع الاتصال بمصر ، وبدا انه على وشك أن يهزم نهائياً . وكانت قوة المهمة الاسرائيلية مرابطة على أبواب العريش مستعدة للضربة

الأخيرة ، عندما قامت الحكومـــة – تحت ضغط سياسي أمريكي– بإصدار الأمر بوقف الهجوم وانسحاب جميع القوات من سيناء . وقد تبرمت القوات بشدة من هذا الأمر ، ولكن كان لها من النظام ما يجعلها تنصاع له رغم ذلك، وفي الخامس من يناير كان آخر جندي اسرائيلي قد غادر سيناء .

ومع ذلك ، فقد سنحت فرصة أخرى لمهاجمة قطاع غزة، من الأراضي الاسرائيلية هـذه المرة . . نجحت قوة مهمـة جديدة في اجتياز الكثبان الرملية ودق إسفين متين جنوبي رفح قرب الحدود الاسرائيلية* – المصرية عازلة بذلك القطاع كله عن مؤخرته . كما قطعت الطريق الرئيسية ، تاركة الخط الحديدي سليماً على أن يدار من موقع قريب ، على أمل أن يؤدي ذلك إلى تخفيف عناد العدو وتشجيعه على الانسحاب إلى مصر . وعند هذا الحد وافقت الحكومـــة المصرية على الدخول في مفاوضات الهدنة، بشرط رفع الاسفين الاسرائيلي. وقد تم ذلك ، وكانت غلطة ، لأنه أضعف إلى حد كبير مركز المساومة الاسرائيلي في المفاوضـــات المقبلة . ووقعت اتفاقية الهدنة في رودس يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٩ ، تاركة قطـاع غزة في أيدي المصريين .

وبخروج المصريين من الحرب، أصبح في قدرة الاسرائيليين تركيز قوات أكبر للتحرير النهائي لفلسطين. وفي حركة بعيدة المدى لثلاثة ألوية ، فتح النقب الجنوبي بأكمله ، بما في ذلك

* – الحدود الفلسطينية .

جزء من خليج العقبة يوم ١٦ مارس ١٩٤٩. وفي الوقت نفسه حرر القسم الغربي من البحر الميت الذي يضم ماسادا وعين جدي وجزءاً من الصحراء اليهودية .

ومع ذلك فقد قابلت هذه المكاسب ، خسائر في أماكن أخرى . ذلك انه نتيجة لتقديرات سياسية خاطئة ، تقرر التخلي عن عمليات معينة جيدة التخطيط لتحرير بقية البلاد (تلال الخليل والقدس القديمة والمثلث) وكانت على وشك التحرير في مراحل كثيرة مبكرة وبخاصة بعد هزيمة المصريين، وقد بقيت هذه المناطق في أيدي الأردنيين .

ورغم هزيمة الاسرائيليين في عمليـــات صغيرة قبل ذلك (ضد جنين في الشمال وضد بيت لحم وقصر المندوب السامي جنوبي القدس) ورغم ما أظهروه من ضعف المبادرة في منطقة القدس ، فإن تحرير هذه المناطق كان يمكن أن يتم في هذه المرحلة من الحرب – بجهود أقل وبضمانات أكبر للنجاح – من انتصارات الحمـــلات الكبرى في النقب وسيناء . ولكن الفرصة ضاعت ؛ وسرعان ما وقعت اتفاقيات الهدنـــة مع الدول المجاورة المتبقية : مع لبنان في ٢٣ مارس ، ومع شرق الأردن في ٣ ابريل ، ومع سوريا في ٢٠ يوليو ١٩٤٩ . أمـا العراق فقد سحبت قواتها من المناطق التي كانت تحتلها شرق الأردن دون توقيع اتفاقية .

وبمقتضى اتفاقيـــات الهدنـــة هذه ، تم جلاء القوات الاسرائيلية عن الأراضي اللبنانية جنوبي الليطاني ، وجلت القوات السورية عن رأس جسرها في الجليل الأعلى ؛ وسمح للواء المصري المحاصر بالانسحاب من جيب الفالوجة ؛ وانتحلت شرق الأردن لنفسها مناطق سامراء والخليل بما في ذلك مدينة القدس القديمة .. وأصبحت المملكة الأردنية . وكما أشرنا من قبل ، واصلت مصر احتلالها لقطاع غزة* . ولقد أدى ذلك كله بطبيعة الحال إلى منع إقامة دولة عربيـــة في فلسطين كما تصورها قرار التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة . وخرجت دولة اسرائيل من الحرب ، وقد سيطرت على مناطق أوسع وأقيَم من الناحية الاستراتيجية مما أعطاهـــا مشروع التقسيم أصلاً . ومع ذلك ، فقد كان هذا أقل كثيراً ممـــا هو في مقدور طاقتها العسكرية بلوغه ، ومما يلزمها للدفاع عن نفسها ضد أي تهديد آخر من نفس الأعداء .

لقد خلق الجيش الاسرائيلي وهو يعمل . ولقد صدق ذلك في تلك المرحلة من تاريخه كما صدق فيما بعد . إن جوانب معينة لنموه ، من مجموعة صغيرة من الخفراء في مطلع القرن إلى ذلك الجيش العصري الذي يوجد اليوم ، كانت دون شك

---

* – يعتبر العدو الادارة العربية المصرية في غزة احتـــلالاً ويزعم احتلاله للارض الفلسطينية بأنه تحرير وهو يخاطب الفكر العالمي باستمرار بهذه الصيغة كي يمهد لقواته السيطرة على كل الأرض الفلسطينية .

نتاج قيادته المتوقدة الخيال . ولكن نموه الرئيسي ، وبخاصة في الحجم والمعدات ، قد فرض عليه عدوه . إن بعض انتصاراته على الأقل ، ترجع إلى أخطاء هذا العدو وضعفه . وعلى أي حال فإن القدرة على الاستفـادة من ضعف الخصم بصورة بناءة ، هي موهبة في حد ذاتها . وفي حـالة جيش اسرائيل ، احتاج استخدام هذه الموهبة – إلى جانب أجهزة المخابرات المتقدمة جداً – إلى قادة وجنود ليسوا جيدي التدريب والتنظيم بالمستويات المعتادة فقط ، ولكن مدربين أيضاً بدنياً ومعنوياً ، وفق الاحتياجات الخاصة لحرب تخاض من أجل التحرير الوطني والدفاع .

إن جيش اسرائيل بصورته الحالية ، يستمد أصوله مباشرة من الجيش الذي خرج كقوة منتصرة من حرب التحرير ، والذي انبثق بدوره من المنظمة العسكرية الأم .. الهاجاناه . إن الملامح المميزة لهذا الجيش في عام ١٩٤٩ ، ظلت على الدوام طابع قوات الدفاع الاسرائيلية . لقد قـام كجيش رسمي نظامي .. ولكن لظروف اجتماعية خاصة بتاريخه وتكوينه ، ظل أساساً جيشاً من المواطنين ، سواء في علاقته بالأمة أو في تقاليده وعاداته الخاصة .

كان تراث الهاجاناه حافلاً ومتعدد الجوانب . وكبداية .. فإن جيش اسرائيل مدين لها ، إلى حد كبير بصميم وجوده المادي ، أي قوته البشرية وسلاحه . لقد ورث أرضاً مستقلة

ذات سيادة كقاعدة جغرافية – استراتيجية لعمله ؛ وكوادر من القادة على أعلى درجة من التدريب وتكريس الذات .. من قواد القطاعات حتى رئيس هيئة الأركان ؛ ونظاماً محكماً لعمل وحداته ، مع روح معنوية وقواعد للسلوك لا يقلان روعة عن سجلها العسكري . ومن الهاجاناه أيضاً استمد هذا الجيش نموذجاً وعادة عميقي الجذور ، للارتبـــاط بالهدف والمثالية والإيمان بالخدمة الاختيارية ؛ كما اكتسب منها روح الزمالة والمسئولية المشتركة بين الوحدات والرتب كما بين الأفراد ، وتلك العلاقة الحميمة التي تربطه بالأمة . وانتقلت إلى الجيش الجديد من الهاجـــاناه دون أي تغيير ، إحدى ملامحها البارزة الهامة .. التحرر من التقاليد العسكرية البالية . ولم يأخذ هذا الجيش من الشكليات والنظم العسكرية المعتادة ، إلا حدها الأدنى اللازم لتأمين النظام والكفاءة .. كان موقفه منها ولا يزال هو الارتباط بوظيفتها لا بشكلها . وأخيراً .. وإذا تذكرنا ان الهاجاناه كانت منذ مولدها السري نتاج حركة شعبية للتحرير الوطني تحت إشراف المؤسسات المدنية المنتخبة ديمقراطياً ، فانه لن يكون مثيراً للدهشة أن يرث هذا الجيش من الهاجاناه قيمها الديمقراطية وإخلاصها الكامل للأشكال الجديدة للديموقراطية البرلمانية الاجتماعية . وهكذا كان هذا الجيش ولا يزال ، أحد الضمانات الرئيسية للديمقراطيـــة في اسرائيل .

●

الفصل الثالث

نحو حملة سيناء

بتوقيع اتفاقيات الهدنة وانتهاء الأعمال الحربية الواسعة النطاق ، بدأ المزيد من إعادة تنظيم الجيش . كان عليه أن يتوام مع الاحتياجات والظروف الخاصة بالدفاع عن اسرائيل في هذه المرحلة من وجودها القومي . أولاً لأنه سرعان ما تبين أن توقع - أو بالأحرى افتراض - أن فترة اتفاقيات الهدنة قد تكون قصيرة ومؤقتة ، ما هو إلا وهم (وكان بعض الاسرائيليين - وأنا منهم - يخشون ذلك من البداية) . فقد أوضحت الحكومات العربية علناً وبتكرار أنها لن توقع اتفاقيات صلح ، وأنها ستحافظ على حالة الحرب ، وأنها قد تشن حرباً انتقامية - « الجولة الثانية » الشهيرة - في أقرب وقت ممكن . وتبعاً لذلك أخذت هذه الحكومات بمشروعات ضخمة لإعادة التسلح ، وعلى حين احترمت من شروط اتفاقيات الهدنة ما يناسبها ، انتهكت الباقي ، بهدف المحافظة على جو

الحرب دون المجازفة بحرب واسعة النطاق حتى يتم الاستعداد لها . ونتيجة لذلك أصبح على السلطات الاسرائيلية أن تتخذ الاجراءات المناسبة كاستعداد مضاد . وكانت الغاية من هـذه الاستعدادات هي تجنب الحرب المهدد بها ؛ أما الوسيلة فهي بناء أداة عسكرية قوية ، تردع العـدو عن الهجوم ، وإذا قامت الحرب رغم ذلك ، تكسبها .

ونهضت الدولة الجديدة في الوقت ذاته بمشروعات ضخمة لاستيعاب المهاجرين، والتنمية الاقتصادية والخدمات الاجتماعية المتقدمـة . كانت الموارد الاقتصادية محدودة والقوى البشرية مطلوبة للتوطن والعمل . إن الخدمة العسكرية ينظر إليها من العالم أجمع لا باعتبارها غاية في ذاتهـا ولكن بوصفها شرطاً لازماً للبقاء . وعلى ذلك فقد صدر القرار الحكيم بالمحافظة على وجود جيش دائم صغير بقدر الإمكان ، يتكون أساساً من مجندين وهيكل دائم للقيادة بما تحتاجه من خبراء وفنيين . وتقرر أن تكون غالبية القوات المسلحة من رجال الاحتياط المدربين ، الذين يدعون للتدريب والتمرينات أسابيع قليلة في العام ، ولدى أي حالة طارئة ، وهكذا كانوا – على حد التعبير الموفق للجنرال إيجائيل يادين – جنوداً نظاميين يأخذون إجازتهم أحد عشر شهراً كل عـام (١) . واتخذت ترتيبات خاصة لضمان التعبئة السريعة الكفؤ . وللمزيد من الاقتصاد ،

قام عدد كبير من خدمات هذا الجيش – كالنقل والهندسة والخدمة الطبية والاتصالات – على شكل مؤسسات مدنية مناسبة ، مستعدة للتحول إلى الخدمة العسكرية كلما كان ذلك ضرورياً؛ وبقيت المرتبات والبدلات والمصروفات العامة عند أدنى حد ممكن . وبالنسبة لوسائل الحرب ، زودت القوات الاسرائيلية بأفضل أسلحة يمكن الحصول عليها من الخارج أو انتاجها في البلاد ، حتى ولو أدى ذلك إلى خلق صعوبات اقتصادية للأمة .

وكان تجنيد النساء خطوة هامة أخرى . وباستثناء بنات العائلات الدينية المحافظة ، طلب من كل فتاة اسرائيلية تقريباً أن تخدم في الجيش لمدة محددة ورغم أن بعض النساء دخلن وحدات مقاتلة ، فإن غالبيتهن عهد إليهن بأعمال وخدمات مكتبية وبالدفاع المحلي والمدني ، وتوفر بذلك مزيد من الرجال للوحدات المقاتلة. وهو توفير بالغ الأهمية لأمة صغيرة، فقيرة في قواها البشرية بصورة مزمنة . وكان لذلك قيمة اجتماعية وأدبية كبيرة ، حيث أكد ان الخدمة الوطنية والتضحية مزايا يتمتع بها الجنسان على السواء .

وكان من الواضح انه حتى إذا تضاعف عدد سكان اسرائيل اليهود عدة مرات ، فإنه سيظل دائماً أقل من عدد السكان العرب الذي يتزايد باستمرار في البلاد المحيطة . وعلى ذلك

فإن الاسرائيليين ما كانوا يجرؤون على أن يؤمنوا بالمثل القائل « إن الله في الجانب الذي به العدد الأكبر من الكتائب » ، ولكنهم بدلاً من ذلك ، اعتنقوا الرأي الذي يقول انــه مع استبعاد المعجزات ، فإن الأقوى يكسب الحرب ، وعليه فقد اتخذوا الاجراءات الضرورية لتعويض نقصهم العـــددي عن طريق للتحسين الدائب في الكيف ، الذي روعي فيه أن يثمر في النهاية ، تفوقاً عسكرياً حقيقياً .

وكانت المهمة الأولى هي التحسين الكيفيي للخامة البشرية. ولما كانت نسبة عالية من المهاجرين الجدد قد جاءت من بلدان شرقية معظم سكانها أميون، فقد كان من الضرورات الواضحة البدء باعطائهم مبادىء تعليم أوربي . وأخذ الجيش على عاتقه أن يكمل تعليمهم العادي الذي يتلقونــه في المدارس بتعليم أساسي يقدمه ، عام وفني مع الاهتمام بصورة خـاصة بالتعليم المذهبي .. بهدف معـاونتهم على فهم الأهداف القوميـــة والاجتماعية للدولة والقضية التي دعوا للدفاع عنهـا . وإلى جانب حاجة المهاجرين الجدد إلى التعلم ، كان لا بد من تقديمه لقدامى المحاربين . وعلى ذلك فإن القواد الذين لم يكن لديهم وقت كاف للدراسة أثناء فترات الخدمة الطويلة في الماضي ، شجعوا على الدخول في برامج للدراسات العليا ، العـــامة والعسكرية داخل البلاد وخارجها ، على نفقة ميزانية الدفاع. ومن الناحية العسكرية البحتة ، تم التوسع في تدريب الأفراد

والوحدات بهدف خاص هو خلق مستويات عالية من الخبرة الفنية واللياقة البدنية والاستعداد الذهني لأعمال جسورة .

وفي جيش فتي يحمل تقاليد الخدمة الاختيارية، يكون من الطبيعي ألّا يعامل الجندي منذ البداية بوصفه رقماً لا اسم له، بل كشخصية متميزة لها مزاياها الفردية وجوانب ضعفها . ولذلك فإنه إلى جانب التدريب العام والتمرين الضروري الذي كان يتلقاه هذا الجندي، وجه اهتمام خاص إلى تنمية شخصيته ومواهبه الخاصة . وقد وصل ذلك إلى حد تجاهل المبادىء العتيقة للضبط والربط العسكري والتي كانت تقول بضرورة (تحطيم المدني) من أجل خلق الجندي . وكان الرأي الذي اعتنقه جيش اسرائيل هو أن تحطيم المدني من الجند هو تحطيم لأساس جندي سليم .

ومع دخول معدات جديدة في الجيش، أصبح اكتساب المزيد من الخبرة والمعرفة ضرورياً . وكان الشعور أنه إذا كان الاسرائيليون قد يحصلون بطريق الحظ على أسلحة ومعدات توازي في كيفها ما لدى العدو، فإنهم لن يتساووا معه أبداً في وسائل الحرب من ناحية الكم، كما أنهم لا يستطيعون أن يأملوا في الحصول على أية أسلحة متفوقة على ما لديه تفوقاً جوهرياً من ناحية الكيف . ولذلك فقد كان لا بد من سد الثغرة ... عن طريق بلوغ مستويات بالغة التفوق

في الخبرة العلميـــة والفنية والتكنلوجية ، وبتحسين النظم والخدمات العسكرية ، وبالشجاعة الانسانية ، وبذلك النوع من المهارة في الاستراتيجية والتكتيك الذي يصل أحياناً إلى حد الكمال الفني .

وبالنسبة للمعدات نفسها ، فإنــه ما أن تبين أنه ليس ثمة أمل في بلوغ توازن كمي ، حتى غدا واضحاً أنه لسد هـــذا الجزء من الثغرة لا بد من تزويد القوات بأحسن الأسلحة (إذا كان شراؤها ممكناً سياسياً) ، أو بتعديل الأسلحة القديمـة بإضافة أجزاء أحدث وأكثر كفاءة إليها ـ وعلى سبيل المثال ـ وضع مدافع أفضل على الدبابات القديمة ، وهكذا . كما ساهم مستوى عال من خدمات الصيانة بنصيبه في تقريب الفجوة .

أصبح الوضع الجغرافي ـ الاستراتيجي لاسرائيل أفضل كثيراً من فترة ما قبل الدولة . ولكنه ظل بالمقارنـة لوضع جيرانها العرب ، فقيراً جداً . ورغم أن اسرائيل جزء لا يتجزأ من القارة الآسيوية على شاطئها الغربي ، فقـد كانت في الحقيقة جزيرة ، ليس لها المزايا الاستراتيجية للجزيرة المحاطة بالماء . ومن ناحية حدودها البرية ، كانت محـاطة كلية بدول معـــادية . وكانت موانئها على البحر المتوسط والبحر الأحمر معرضة للحصار البحري ولعمليات الإنزال . وباستثناء الجليل الشمالي والنقب الجنوبي ـــ اللذين تمتعـــا بعمق معقول ـــ كان

وسط البلاد والشريط الساحلي على البحر المتوسط وممر القدس محرومين بصورة واضحة من العمق الاستراتيجي . وفي احدى النقط الدقيقة ، لا تزيد المسافة بين المملكة الأردنية وشاطىء اسرائيل على البحر المتوسط عن عشرة أميـــال . والسهل الساحلي الذي تركز فيه معظم سكان اسرائيل وصناعاتها ، لا تحميه أي تلال ؛ والقدس عاصمة البلاد كانت مقسمة ؛ وجيشان معاديان يرابطان في قطاع غزة وفي الضفة الغربية لنهر الأردن، ويمكن استخـــدام كل منهما كرأس جسر للاغارة والغزو في خطة حرب شاملة. وكانت إيلات وميناءها –البوابة الوحيدة لاسرائيل إلى البحر الأحمر والمحيطين الهندي والهادي والبلاد الواقعة على شواطئها – معرضة للمخاطر بشكل خطير . فقد كانت مضغوطة داخل شريط ضيق بين الأردن ومصر ومهددة بالحصار من مضايق تيران عند مدخل خليج العقبة . وكانت الحقيقة الواضحة أن معظم أراضي اسرائيل على مرمى سهل لمدفعية الميدان البعيدة المدى للعدو ، بصرف النظر عن قصف القوات الجوية أو الصواريخ البرية والبحرية .

وعلى طول الحـــدود السورية في الشمال الشرقي – حيث المورد الرئيسي لاسرائيل من المياه – كان السوريون يتمتعون بميزة طوبوغرافية واضحة بسيطرتهم على التلال المشرفـة على الوديان الاسرائيلية وقاعدتها الرئيسية لصيد الأسماك في بحيرة

طبرية ، التي تعتبر من أهم أحواض هذا الانتاج الغذائي في اسرائيل . إن هذا الوضع الجغرافي – الاستراتيجي ، قد يغري واضعي الاستراتيجية العرب – أو غيرهم من الاستراتيجيين – بأن يفكروا ، كما فعلوا عام ١٩٤٨ ، في هجوم يشن ضد اسرائيل من اتجاهات مختلفة في وقت واحد بهدف توزيعها لقواتها وحرمانها من المبادرة. وفضلاً عن ذلك، فإن التكنولوجية العسكرية الحديثة قد تمكنهم ، لا من شن الهجوم المتعدد الجوانب في وقت واحد فقط ، ولكن أيضاً من استخدام عنصر المفاجأة إلى أقصى حد . وتوقعاً منهم لاحتمال تدخل الأمم المتحدة أو غيرها ، فإنهم قد يضعون خطتهم على أساس حسم المعركة وخلق (أمر واقع) في الأيام القليلة الأولى للقتال . وكانت القوة العسكرية الرئيسية للعرب كامنة في مصر ؛ وكان الضعف الجغرافي – الاستراتيجي الرئيسي لاسرائيل كامناً في السهل الساحلي المواجهة للاردن ، الذي يعتبر منطقة أسفل البطن الطرية في وضعها العسكري .

كان أكبر خطر تواجهه اسرائيل ، هجوم مفاجىء منسق وفي وقت واحد ، نوع من (بيرل هاربور) ... يبدأ بمحاولة القضاء على قوتها الجوية ، يتلوها جهد رئيسي لتقسيم البلاد إلى أجزاء عديدة بواسطة مجموعة من الهجمات البرية وعمليات الانزال على الشاطىء ؛ وتستكمل هذه الأعمال بهجمات من نوع حرب العصابات يقوم بها المظليون والقوات غير النظامية ،

يصحبها قصف جوي وغارات واسعة النطاق على السكان المدنيين والصناعات ، كما على الأهداف العسكرية .

كانت هذه هي الاحتمالات النظرية . وكان على اسرائيل أن تكون على استعداد لمواجهة الأسوأ ، وإن تقرر على ضوء توقعها للأسوأ ، نوع استراتيجيتها المضادة . وكبداية ... كان عليها أن تدخل المزيد من التطوير على دفاعها الإقليمي . ان إقامة شبكة مخططة من المستعمرات المحصنة المزودة بالمعدات اللازمة على طول الحدود وفي داخل البلاد – في محاور وممرات يتوقع أن تكون لها أهميتها– يعطي البلاد العمق الاستراتيجي الذي يعوضها عن النقص في عمقها الطبيعي . كذلك فإن مشاركة سكان المستعمرات في الدفاع عن مستعمراتهم ومناطقهم ، سيساعد الآن كما ساعد دائماً من قبل ، لا على إعاقة أي هجوم محتمل للعدو فقط ، ولكن في تحسين حالة الأمن العامة اليومية ، وتأمين سيطرة اسرائيل على أبعد المناطق حتى آخر نقطة في حدود البلاد ، وبذا يعفى الجيش النظامي من مهمة الدفاع السلبي وتكون له حرية الحركة والتركيز حيثما كان ذلك ضرورياً .

كان كل هذا ، رغم ذلك ، مجرد جزء من محاولة مواجهة عيوب اسرائيل الجغرافية – الاستراتيجية . ان المرء لا يمكن أن يأمل في ردع عدو أو كسب حرب بالوسائل الدفاعية

وحدها ؛ ومع أن الهدف الأدبي والسياسي لاستراتيجية اسرائيل هو الدفاع عن النفس ، إلا أن بلوغ هذا الهدف يقتضي من قواتها أن تكون على استعداد لأخذ زمام المبادرة في شن هجمات حاسمة في حـــالة أي هجوم تتعرض له ، أو هجمات مفاجئة من اتجاهات مختلفة .

وهذه الحالة من الاستعداد ، يمكن بلوغهــا بصفة رئيسية عن طريق هيكل سليم من أسلحـــة الجيش ، واستراتيجية ملائمة لاستخدامها . ويمكن القول – دون تجـاهل لشاطىء اسرائيل الطويـــل على البحر المتوسط وللخليج والمضايق في البحر الأحمر التي شاركت العرب فيها ، ودون تجاوز عن الأهمية المتزايدة لقوتها الجوية الاستراتيجية وصواريخها – إن مسرح الحرب الاسرائيلية العربية بري أساساً ... أي أن المعارك الحاسمة في هـــذه الحرب ستجري على الأرض . لقد تبين ذلك بوضوح منذ نهاية حرب التحرير* . ولذا فإنه عندما كانت الضرورات الاقتصـادية تفرض على القوات الاسرائيلية أن تراعي نظاماً دقيقاً للأولويات في النفقات ، كانت القوات البرية وغطاؤها الجوي ، تحظى بالأولوية الأولى . ومن أجل السبب نفسه ، وكذلك للرغبة في تجنب التنافس بين الأسلحة المختلفة وأي جهد ضائع ، ولتحقيق أكبر قدر من التعاون والكفاءة والترابط بين هذه الأسلحة ، وضعت جميعها بقوادها

* – يعني بها حرب ١٩٤٨ .

الخاصين تحت هيئة أركان حرب مركزية واحدة يرأسها جنرال من الجيش .

وفي الفترة التالية لحرب التحرير ، لوحظ أن ترسانة كل من مصر وسوريا والعراق ، التي كانت حافلة بالأسلحة سلفاً من المصادر الغربية ، قد امتلأت أكثر نتيجة لصفقات الأسلحة مع الاتحاد السوفييتي وتشيكوسلوفاكيا ؛ كما اكتظت ترسانات الأردن ولبنان والمملكة العربية السعودية بشحنات الأسلحة الغربية . وكانت مصر هي المستفيد الرئيسي ؛ وفي خلال فترة قصيرة نسبياً ، حصلت على كميات كبيرة من الدبابات والمدافع والطائرات التكتيكية وقاذفات القنابل والغواصات ، وغيرها من المعدات العسكرية الهامة . وتبع هذه الشحنات وصول مدربين سوفييت إلى مصر وإيفاد مصريين وبعض أبناء الدول العربية الأخرى إلى دول أوربا الشرقية للتدريب ، مما أدخل في القوات المسلحة المصرية نظرية الحرب الروسية وأساليبها : التركيز الكبير للمدفعية البعيدة المدى والدبابات مع غطاء مساعد لصيق من القوات الجوية التكتيكية ، والاعتماد على المجهود الرئيسي – يدعمه ثقل واحتياطي كبير – في اختراق خطوط الخصم الدفاعية وتحطيم مدرعاته .

وأجبر هذا التطور اسرائيل على أن تخطو خطوة أخرى نحو تطوير قواتها البرية والجوية . لقد تزايد الاهتمام الآن

بالوحدات المدرعة ، تصحبها خدمات صيانة ممتازة (تستطيع أن تقطع مسافات طويلة بسرعة إذا دعت الضرورة) وقوات مشاة ميكانيكية جيدة التدريب يدعمها غطاء جوي لصيق من نفس نوعية طائرات العدو ، وإن كانت أقل منهـــا عدداً .
وعلى ذلك تم إنشاء سلاح مدرعات خاص ، زوّد بوسائل نقل تمكنه من الانتقال بسرعة من طرف البلاد إلى طرفها الآخر وفقاً للحاجة . ووسعت وحـــدة المظليين وتلقت تدريبات ومهمات محسنة. ووجه اهتمام جدي إلى ضرورة وجود أسلحة فعالة مضادة للدبابات ، من أجل الدفاع الاقليمي عن البـلاد وعن الوحدات المسلحة على السواء . وظل لواء المشاة أكبر وحدة تكتيكية أساسية ؛ ولكن حدث تطور جديد بانشاء عدد من قيادات العمليات ، تضم كل منها عدداً من الألوية . ولعل خير وصف لهذا النوع الجديد من القيادات هو أنهـــا (قوة مهمة كبيرة جـــداً) تشبه الفرقة في حجمها ولكنها مرنة في تكوينها كمرونة السلاح. وظل قواد المناطق (وكانوا من قبل قواد الجبهات) هم الضباط الذين يتولون القيادة العامة في المسارح الرئيسية للعمليات .

ولقد رؤي أنه من المرغوب فيه بصفة عامة عدم التركيز على قوة جوية استراتيجية وأسطول كبير . ذلك ان إنفاق الكثير على هذه الفروع ــ رغم أهميتها ــ قد ينقص من قدرة

اسرائيل على تطوير قواتها البرية، التي كانت تعتبر أكثرحيوية. وساد الاعتقاد السليم بأن محـــاولة الحصول على القليل من كل شيء لن يضيف الكثير في حالة نشوب حرب شاملة . وكان يحدونا الأمل في تجنب القصف الجوي الشامل لمدن الأعداء ، على أساس إنساني ومن المصلحة الذاتية أيضاً... لتقليل معاناة المدنيين إلى الحد الأدنى ولحصر المعارك في مكانها الصحيح ، أرض المعركة . ومن ناحية أخرى ، فإن قوة جوية تكتيكية كفؤ ، قد تخدم لا في المعارك الجوية فقط ، ولكن أيضـاً في مساندة القوات البرية ، ومهاجمة الوحدات البحرية ، والقيـام بالقصف الضروري للأهداف العسكرية الحيوية . أما الأسطول فلم يكن ليستخدم أساساً للسيطرة على البحار المفتوحة أو في حماية القوافل ، ولكن كانت مهمته قاصرة على حماية الساحل والقيام بعمليات إنزال صغيرة على شواطىء العدو ، وتنفيـذ عمليات خاصة ضد الأهداف البحرية بواسطـة فصائل صغيرة ولكن قوية تملك قوة تدميرية كبرى .

لقد تخلت حكومة اسرائيل عمداً وصراحة عن أية نوايا من التوسع الإقليمي . وكان مما يتفق مع ذلك ، كما كان في مصلحتها الاقتصادية والعسكرية ، أن تحرص على تقليل نفقات التسلح بقدر الامكان ، وبخاصـة بسبب حاجتها إلى استثمار نسبة كبرى من مواردها الاقتصادية والاجتماعية في استيعاب

سيل المهاجرين الجدد وتنمية دولة متخلفة أساسياً . ولكن رغم ان اسرائيل لم تكن قط البادئة بسباق التسلح في الخمسينات ، فإنه لم يكن أمامها خيار إلا أن تضمن أنها لن تكون متخلفة فيه عندما حصل الطرف الآخر على أسلحة جديدة . وفي تلك الفترة أيضاً ، كما في الماضي ، كان العدو هو الذي أرغم اليهود على تنمية قواتهم المسلحة من أجل البقاء؛ وعندما أرغموا على ذلك ، حرصوا على أن يفعلوه على نحو مرضٍ . وعلى أي حال فقد ظل التفاوت الكبير من ناحية الكم ؛ وبقيت رغبة العدو المعلنة مراراً وتكراراً ، في استئناف حرب واسعة النطاق . وكان من المفهوم أن يسيطر على موقف اسرائيل الرعب من هجوم مفاجىء . إن مثل هذا الهجوم قد لا يكون ناجحاً بالضرورة ، ولكن خطر نجاحه كان كبيراً ؛ ورغم أن ترك اسرائيل للعدو يهاجم أولاً من شأنه أن يجعل الأمور أيسر لها من الناحيتين السياسية والدبلوماسية ، فإنها لا تستطيع ذلك من الناحية العسكرية – مهما كان الثمن السياسي – لأن صميم وجود الأمة .. يصبح بذلك في خطر كبير .

ان خطر مثل هذا الهجوم المفاجىء لا يزال يحلق في سماء اسرائيل حتى يومنا هذا . وفي تلك الفترة تبين أولاً أن من الوسائل الرئيسية لمواجهة القيام بما سمي « الضربة الاجهاضية

المضادة » أو « الهجوم المضاد المسبق » . ومن الواجب عدم الخلط بين ذلك وبين الحرب الوقائية . ان الضربة الاجهاضية تكون مبررة عندما يكون معلوماً على وجه اليقين ان غزواً فعلياً على وشك أن يتم ، ويكون الدليل عليه وجود حشود ظاهرة لقوات عدوانية للعدو . وكما ان لكل دولة حقها الطبيعي في استخدام السلاح إذا هوجمت ، فإن من حقها أيضاً أن تعترض المهاجم في طريقه إلى الهدف المختار . وإذا كان العدو لا ينوي الحرب ، فهو مسؤول ألا يجري من التحركات ما يبرر الضربة المضادة الاجهاضية. أما إذا كان ينوي الحرب فعلاً ، فلن يقبل منه أن يحتج إذا فشلت مساعيه . ويمكن أن يقال فضلاً على ذلك، ان الاعتراف بالحق في الهجوم المضاد الاجهاضي يزيد من قدرة إقناع رادع الطرف المدافع ، وبالتالي يقلل من احتمالات العمل الفدائي . إن مجرد امتلاك الأسلحة لا يردع العدو بالضرورة ، وإنما يردعه اليقين بأن المدافع مستعد لاستخدامها ، بسرعة وفاعلية .. أي ان هذا « التصديق » هو الذي قد يمنع استخدام هذه الأسلحة على الاطلاق .

هذه هي النظرية التي لم تلبث ان وضعت موضع التنفيذ في حملة سيناء في اكتوبر عام ١٩٥٦ [٢] . وفي نفس الوقت ، فقد تبين بوضوح ان الاجراءات الاجهاضية يجب أن تستخدم

بأكبر قدر من الحذر ... بطبيعة الحال فقط عندما وحيثما يجري التأكد من نوايا العدو العدوانية بدرجة كافية . ولذلك فإنه تفادياً للوقوع ضحية هجوم مفاجيء ، وتجنباً في الوقت نفسه للقيام بعمل اجهاض متسرع ، كان لا بد من تطوير جهاز مخابرات من الطراز الأول وربطه بمختلف عناصر قوات الدفاع الاسرائيلية السابق ذكرها ... شبكتها المتينة للدفاع الاقليمي ، أسلحتها المدرعة ذات القدرة العالية على الحركة ، قوتها الجوية التكتيكية ، مشاتها الميكانيكية ، المظليين ، وحدات المدفعية ، أسطولها الصغير ولكن الشجاع ، وأسلحة المهندسين والنقل والتنظيم والصيانة والامداد والتموين . واستكمالاً لجهاز المخابرات ، كان لا بد من إقامة شبكة فنية لنظام الإنذار المبكر . وبدا أن تجميع كل هذه الموارد ، تدعمها أكبر وحدة في الهدف بين القوات المسلحة والأمة ، سيعطي اسرائيل أملاً معقولاً في تفادي الحرب الشاملة ، أو – إذا قامت مثل هذه الحرب مع ذلك – التفوق العسكري اللازم لكسبها ضد أي جيش عربي منفرد أو الجيوش العربية جميعاً .

كل ذلك ، وتطورات مزعجة تجري على حدود اسرائيل جميعها (باستثناء حدودها مع لبنان) مما أثر أكثر على نظرتها العسكرية . لقد أصبح من الأمور المعتادة أن تقوم قوات

عربية غير نظامية ، أو شبه نظامية ، وأحياناً نظامية –سواء بتوجيه رسمي أو بإجازة رسمية – باجتياز حدود اسرائيل ليلاً ، وأحياناً في ضوء النهار ، لأغراض الإرهاب الشخصي ضد المدنيين والجنود ، والتخريب ، والسرقة ، والسطو ، والمخابرات*. وشهدت الفترة بين ١٩٥١ و١٩٥٦ عدداً متزايداً من عمليات التسلل ، التي اكتسبت طابعاً أكثر خطورة مع الوقت (٣) .

لا يمكن لدولة حديثة أن تحيط نفسها بجدار ؛ ولم تكن الدوريات والكمائن لتكفي لوضع حد لمثل هذا التسلل . ان حدود اسرائيل – كما شرحنا – طويلة جداً، لدرجة لا يمكن تصورها بالنسبة لحجمها . والمستعمرات مبعثرة في جميع أنحاء البلاد ، وبعضها كان معزولاً تقريباً ؛ والزارعون والرعاة يعملون بانتظام في الحقول الواقعة على الحدود؛ وصيادو السمك الذين يستخدمون أضواء قوية ، كانوا يعملون على مقربة من المواقع السورية على بحيرة طبرية . إن هذه الظروف قد جعلت من السهل جداً على العدو إزعاج الحياة في اسرائيل بوسائل الإرهاب . ولقد كانت هذه الأعمال ، بطبيعة الحال ، نتيجة مباشرة لحالة الحرب التي أصرت عليها الحكومات العربية بعناد . وفي كثير من الأحيان اعترفت البلاغات الرسمية بأن هذه الأعمال كانت عمليات مأذونة .

* – لا شك أن العدو يعرف طبيعة العمل الفدائي ، ولكنه يريد تشويه صورته أمام الرأي العام العالمي ولذلك يصفه بهذه الصفات المستنكرة .

وذهبت الحكومة المصرية إلى حد إنشاء وحدة خاصة تحمل اسم العصور الوسطى (الفدائيين) ، تخصصت في عبور الحدود الاسرائيلية لأعمال الارهاب . وفي الوقت ذاته ، قام المصريون - منتهكين بذلك اتفاقية القسطنطينية عام ١٨٨٨ واتفاقيات الهدنة وقرارات مجلس الأمن - بإغلاق قناة السويس في وجه الملاحة الاسرائيلية والسفن الأجنبية التي تحمل شحنات من وإلى اسرائيل . كما فرض الحظر على جميع السفن المتجهة إلى إيلات من خليج العقبة .

وخلقت هذه التطورات مشاكل حادة لاسرائيل من ناحيتي الأمن والسيادة . لقد كان عدد الخسائر ، في أرواح المدنيين والعسكريين ، يتزايد بانتظام ؛ كذلك ازدادت الخسائر في الممتلكات ؛ وبدأ شعور من عدم القدرة على عمل شيء والإحباط يتفشى كالعدوى بين المواطنين . وكان المعلقون العرب يفسرون عدم قدرة اسرائيل على وضع حد للتسلل بوسائل إيجابية ، على أنه إمارة للضعف العسكري ؛ مما أدى إلى فتح شهية العدو للمزيد . وأصبح الإغراء بتوسيع نطاق هذه الحرب الصغيرة لا يقاوم ، فهي تنزل كل هذا الضرر باسرائيل رغم هذا القدر الضئيل من الخطر على أصحابها .

غدا الموقف غير محتمل ، ولقد أدى في النهاية إلى استراتيجية الثأر الديناميكية . قامت وحدات اسرائيلية

– أساساً من مظليين يتحركون على الأرض – بسلسلة من الاغارات المحكمة التدبير في الليل عادة ، ضد قواعد العدو العسكرية ومواقعه النائية ، ومراكز الشرطة القريبة من الحدود . وكانت الأهداف المختارة غالباً في وسط أو حول المناطق التي عانت أسوأ آثار عمليات التسلل . وباستثناء حادث مؤسف واحد (حيث قتل مدنيون عرب في قبية * بالأردن) كانت جميع الأهداف عسكرية محضة .

كانت العمليات الاسرائيلية في غالبيتها ناجحة تماماً . ومرة أخرى ، تم بلوغ مستويات عالية من الأداء العسكري، وبفضل الأسلحة الأحسن تجاوزت في نجاحها سابقاتها . ولقد تسبب قيام قوات المظليين الخاصة وحدها بمعظم هذه العمليات في شعور بالمرارة لدى القوات النظامية ؛ ومع ذلك فقد غدت هذه العمليات نموذجاً تحتذيه سائر الوحدات في المستقبل . كما أتاحت فرصة جديدة لواضعي الخطط والقواد ، لاختبار التدريبات والتكنيكات والأسلحة الخاصة بجيش اسرائيل الدائم التطور ، وأعادت الثقة إلى الأمة والجيش ، وأثبتت للعدو قدرة اسرائيل على الدفاع عن نفسها . وبصفة عامة ، ساعدت هذه الغارات على إخضاع معظم أجزاء الحدود ... باستثناء الحدود المصرية . وكان مجلس الأمن يدين أعمال اسرائيل في معظم الحالات، حتى ولو كانت رداً على استفزازات

* – فقط « القبية » ؟؟؟

العدو ، وهي الحقيقة شجعت الحكومات العربية على المضي في هذه الوسيلة لتعكير صفو اسرائيل . ولقد تكررت هذه العمليات على فترات متقطعة ؛ وبدأ التوتر يتزايد من جديد ؛ واشتد سباق التسلح على الجانبين ، مما أدى بدوره إلى زيادة حدة التوتر إلى درجة الانفجار .

* * *

لما كان اهتمامي هنا قاصراً على نمو قوة الدفاع الاسرائيلية ونظريتها ، فإنني لا أنوي وصف حملة سيناء في اكتوبر ١٩٥٦ بأي نوع من التفصيل . إن أسباب اسرائيل في اللجوء إلى هذه الحرب الاجهاضية قد تبقى موضع جدل في بعض الدوائر ؛ ولكن الذي يجب الاعتراف به هنا ، هو ان القرار قد اتخذ على ضوء تقييم للموقف وصل إليه واضعو الاستراتيجية الاسرائيليون المسئولون على أساس تقارير مخابرات موثوق بها. إن الحظر المفروض على الملاحة الاسرائيلية في قناة السويس والبحر الأحمر ، إلى جانب ما فية من انتهاك للقانون الدولي ، كان في الحقيقة جزءاً من حرب اقتصادية شاملة ضد اسرائيل. وبصفة خاصة فإن الحصار حولميناء إيلات على البحر الأحمر، يجعل من المستحيل على نصف اسرائيل الجنوبي (النقب) – الذي تتركز فيه موارد البلاد المعدنية الطبيعية – أن يتطور اقتصادياً . ووصلت غارات الفدائيين التي ينظمها المصريون من سيناء وقطاع غزة إلى درجة مثيرة للقلق ،

وأصبحت مشكلة أمن من المرتبة الأولى. أما غارات اسرائيل المضادة ، فرغم تكلفتها للعدو ، لم يعد لها القدرة على ردعه . وكان تركيز القوات المصرية في شمال سيناء قريباً جداً من الحدود الاسرائيلية ، واتخاذها وضع العمليات أمراً شديد التهديد بالخطر ... وبدا أن هجوماً مصرياً شاملاً على وشك الوقوع . وفوق ذلك كله وقع ميثاق عسكري بين مصر والأردن وسوريا في ٢٥ اكتوبر ١٩٥٦ وأنشئت قيادة موحدة واحدة تحت إمرة جنرال مصري ، مما هدد اسرائيل بغزو من ثلاثة اتجاهات في وقت واحد ، إذا وقع فإنه سيرغم اسرائيل على أن تحارب في ثلاث جبهات .

إن حقيقة بريطانيا وفرنسا كانتا على خلاف مع مصر ، قد خلقت وضعاً ملائماً لاسرائيل من الناحيتين السياسية والعسكرية . ومع ذلك ، فإني متأكد ان الاسرائيليين كانوا سيأخذون المبادرة حتى في غياب هذا الوضع الملائم. كما أعتقد ان النتيجة كانت ستكون واحدة – وربما أفضل – بدون الانجليز والفرنسيين . وربما كان ذلك على حساب المزيد من الخسائر في الأرواح ... وهذا الرأي تسنده الآن كثيراً نتيجة حرب الأيام الستة * .

وتركت أوضاع الأمن السابق الاشارة إليها الاسرائيليين وليس أمامهم خيار إلا أن يلجأوا إلى حرب إجهاض، بوصفها

* أرجو أن يلاحظ القارىء طريقة الكاتب في نفي العلاقة الاستعمارية بين اسرائيل وفرنسا وبريطانيا وهي طريقة لا يمكن وصفها إلا بالخبث المحكم .

شراً لا مفر منه . ولضمان أفضل فرص النجاح ، كان لا بد من ضمان تفوق عسكري محلي على الجبهة المصرية . وقد استدعى ذلك تركيز قوات ضاربة كافية على هذه الجبهة – من المدرعات والمشاة الميكانيكية وفصائل الاستطلاع الخفيفة وقوة جوية تكتيكية ، ومظليين ، ومدفعية الميدان ، والخدمات الضرورية للصيانة والهندسة والامداد والتموين والعناية الطبية – حتى ولو كان ذلك على حساب اضعاف جبهات أخرى محتملة. ولقد أمكن القيام بهذه المخاطرة بفضل التعبئة التامة للاحتياط ، وتدعيم نظام الدفاع الاقليمي والاحتفاظ بوحدات متحركة كبيرة في المؤخرة لاستخدامها حينما تدعو الضرورة .

وكان من الواجب استغلال عنصر المفاجأة إلى أقصى حد ، في الاستعدادات ، وفي الجبهة نفسها وفيما يتعلق بتوقيت الهجوم وأسلوبه . تمت تعبئة الاحتياط بسرعة وفي صمت .. بثت شائعات بأن الأردن على وشك أن تهاجم ، على حين كانت القوات الكبرى تحشد قريباً من ساعة الصفر في مواقع الانطلاق على حدود سيناء . وتم إنزال شجاع للمظليين عميقاً داخل سيناء ، تبعه عبور سريع لقوات برية من المدرعات والمشاة الميكانيكية ، بهدف تطويق تشكيلات العدو وسحقها بقدر الإمكان ، والاستيلاء على ذخائره وأسلحته الحيوية ، وإرغام قواته المتبقية على التقهقر ... وذلك لتحقيق السيطرة

الكاملة على شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة حتى قناة السويس. وكان الهدف الأول ، بطبيعة الحال ، هو إزالة الخطر الفوري لهجوم مصري كبير على اسرائيل ؛ وكان هناك هدف آخر ، هو استخدام سيناء كقوة تفاوض في أي مفاوضـات صلح تجري مع المصريين إذا حدثت . وصحب تحريك القوات البرية ضرب بالقنابل وقصف جوي لمطـارات العدو وخطوط مواصلاته وقواعده العسكرية ، وتبعه على الفور زحف طابور راكب جنوباً إلى مدخل خليج العقبة... للاستيلاء على جزيرتي تيران وصنافير . إن هذه العملية المتعددة الجوانب لم تأخذ العدو بالمفاجأة فقط ، ولكنهـا ساعدت أيضاً على تحقيق مكاسب حاسمة حتى في هذه المرحلة الأولية من الحملة . وبعد ذلك مكن اجتياز خدمات الصيانة المتحركة ، المدرعـات والطوابير الميكانيكية من التحرك بسرعة إلى الأمام ، مما وضع الوحدات الاسرائيلية المتقدمة على بعد مـائة ساعة من الضفة الشرقية لقناة السويس . ولولا الانذار البريطـاني – الفرنسي (٥) بالابتعـاد عن قناة السويس ، لعبرتها القوات الاسرائيلية ، وأسقطت النظام المصري* .

وحقيقة فوق كل شيء؛ ان الانذار البريطاني – الفرنسي ، وما تبعه من ضرب بالقنابل للمنشئات العسكرية في أرض مصر نفسها ، وإسقاط جوي في بور سعيد، قد ساعد على إرباك كل

* – يبدو واضحاً الرغبة الكامنة والفاضحة في آن واحد لسلطات العدو للنيل من مصر العربية باعتبارها قلب الأمة العربية .

من القيادة المصرية العليا وقيادتها في المنطقة ، وجعل التقهقر المصري من سيناء إلى قناة السويس، الخطوة الوحيدة المعقولة. ولكن القوات المصرية في شبه جزيرة سيناء كانت في الواقـع قد خسرت المعركة قبل التدخل البريطاني – الفرنسي؛ وعندما فعلت هذه القوات الشيء المعقول كان الأوان قد فات . وتم استغلال نصر اسرائيل الحاسم في سيناء بنجاح ، فقد أدى إلى الاستيلاء على قطاع غزة (وإن لم يكن بدون معارك محلية) ، واحتلال اسرائيل لمدخل خليج العقبة * .

ورغم ان الحرب جرت بصفة رئيسية في البر، فإن المسرح البحري لم يبق ساكناً . لقد أبعد الأسطول الاسرائيلي الصغير الأسطول المصري ، كما نجح في الاستيلاء على إحدى قطعـه سليمة في المياه الشمالية لساحل اسرائيل على البحر المتوسط ، هي المدمرة ابراهيم الأول** .

ورغم أن الجزء الأكبر من قوات اسرائيل كان مشتبكاً على الجبهة المصرية ، فقد كان في مقدور طاقة اسرائيل العسكرية أن تصد الاردنيين والسوريين – إذا حذفنا النظر عن اللبنانيين – وأن تتوغل عميقاً في أراضيهم . ولقد تبين العدو ذلك تماماً، ولم يبد أحد من حلفاء مصر حراكاً على أي جبهة أخرى رغم نداء مصر في طلب المساعدة . وقد علم من مصادر موثوق بها أنه عندما تأكد القـائد المصري للحلف

* – أرجو أن يلاحظ القارىء هنا هذه الكذبة التاريخية الواضحة .

** – كشفت الكتابات الاوربية أن المدمرة ابراهيم أسرت بواسطـة السلاح الفرنسي وليست بواسطة سلاح العدو .

العسكري الثلاثي ان حلفاءه لن يتحركوا ، ذهب إلى حد إصدار الأمر لهم بعدم الهجوم باسم المحافظة على النفس . وقد أطيع هذا الأمر حرفياً* .

وإذا نظرنا إلى انتصار سيناء ككل ، فإنني أعتقد أنه يعزى أساساً إلى تلك الملامح من قوات اسرائيل المسلحة ، التي كانت في عام ١٩٥٦ قد أصبحت عقيدة عسكرية ... عدم النظرة التقليدية إلى الحرب ؛ قدرتها على التلاؤم مع المواقف ؛ موقفها العملي المرتبط تماماً بمهمتها ؛ نظامها الواعي وشجاعتها المحسوبة ؛ مقرونة من ناحية بفهم ذكي لمبادىء الحرب ، ومن ناحية أخرى بالمهارة العملية القيمة لقدرة القتال بالليل والنهار على السواء . ومع ذلك ، فإن هذا كله ، مضافاً إليه وسائل الحرب الحديثة وأكثر نظم خدمة الجيش تقدماً ، لم يمنع بطبيعة الحال من حدوث بعض الأخطاء والاضطرابات المحلية ؛ ولكنه بصفة عامة أثبت قيمته في القتال الفعلي .

وعقب ذلك كان على الاسرائيليين أن ينسحبوا من جميع المناطق الواقعة وراء خطوط هدنة عام ١٩٤٩ . إن هذا الانسحاب الذي ثار حوله جدل كثير لم يحدث نتيجة ضعف عسكري ، ولكن تحت ضغط سياسي من الأمم المتحدة ، وجهد مشترك من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي . الأولى بصفة خاصة . وكما حدث عام ١٩٤٩ أعيدت سيناء إلى

* – من الواضح ان الكاتب يريد أن يؤكد للعقل الغربي ان الانشقاق والتخلف عن المعركة هو صفة لازمة للعرب ضد بعضهم .

المصريين المنهزمين دون إصرار من اسرائيل على الصلح الدائم في مقابل ذلك..وهو صلح كان في نظري ممكناً في الحالتين*. وكانت هناك بالطبع مكاسب شاملة تعوّض إلى حد ما عن الخسائر. لقد أرغمت القيادة المصرية العليا على تبين ان غارات حرب العصابات الصغيرة قد تتصاعد إلى حرب كبرى ، وان وضع القوات في وضع تهديد قد يستفز هجوماً مضاداً مجهضاً.. وهكذا أصبحوا أكثر حرصاً ، وتباعدت غارات الفدائيين كثيراً ، ورغم أن المصريين أخذوا على عاتقهم مشروعاً ضخماً لإعادة التسليح ، فإنهم لم يخاطروا لمدة أحد عشر عاماً بحشد قواتهم بطريقة مهددة . وخلال هذه الأحد عشر عاماً استمرت الملاحة الاسرائيلية في البحر الأحمر وخليج العقبة (ولكن ظلت قناة السويس بطبيعة الحال مغلقة في وجه السفن الاسرائيلية) ؛ وحتى إتمام مشروع قومي لنقل الماء من بحيرة طبرية إلى النقب في عام ١٩٦٥ لم يثر حرباً ، رغم التهديدات العالية الضجيج .

---

* - هذا هو الحلم الذي تجتهد اسرائيل لتحقيقه ولكن الذي ستفشل ازاءه أمام وحدة وصلابة الأمة العربية .

الفصل الرابع

بين سيناء وحرب الايام الستة

كما حدث عام ١٩٤٩ ... ضاعت عام ١٩٥٦ فرصة الوصول إلى تسوية سلام دائم بين اسرائيل وجيرانها. وسحبت القوات الاسرائيلية المنتصرة ، لا من شبه جزيرة سيناء كلها وحسب ولكن من قطاع غزة أيضاً ، رغم أن القطاع لم يكن في التاريخ الحديث قط جزءاً من مصر أو سيناء . ومقابل ذلك منحت اسرائيل ثلاثة ترتيبات كان المفترض انها تحفظ لها أمنها وحقوقها .. وقد كانت :

١ - وعد من مصر بالامتناع عن القيام بأي عمل عدائي ضد اسرائيل ، ولم يستثنى التسلل .

٢ - موافقة مصر على وجود وحدات صغيرة من قوات الطوارىء الدولية في نقط استراتيجية على طول حدودها مع اسرائيل ، بما في ذلك شرم الشيخ عند مدخل خليج العقبة .

٣ – وعد من الدول البحرية بضمان حرية الملاحة لجميع السفن ، دون النظر إلى جنسيتها أو شحنتها ، في مضـــايق تيران .

ولم تقدم أي ضمانات صريحة وفعالة من جـــانب الأمم المتحدة أو الدول الكبرى بأن تراعي مصر هذه الترتيبات بصورة دائمة . وكان الضمان الوحيد ، إذا صح ذلك ، هو الاعلان الذي أصدرته حكومة اسرائيل من جـانب واحد بأنها سوف تعتبر إغلاق مضـايق تيران (سبباً للحرب) ، وانه في حالة الاغلاق ، فإنها ستعتبر نفسها حرة في الرد ... بالقوة المسلحة إذا لزم الأمر .

وبعد ذلك بقليل أوضحت مصر أنها ستصر على الإبقــاء على حالة الحرب ، ولكنها أعلنت – بصراحه محمودة – أنها ستمتنع عن مهاجمة اسرائيل ، ما لم تتأكد من النصر ، وليس قبل ذلك . ولقد أظهر ذلك واقعية مزدوجة من جـــانب الحكومة المصرية. فمن ناحية كان فيه مراعاة لنص القانون... ظلت المضايق مفتوحة أحد عشر عاماً تقريباً ، ولم تقع أي أعمال إرهابية على طول الحدود المصرية – الاسرائيلية ، حتى عندما كانت الحدود الأخرى تتعرض للهجمات . ومن ناحيـة أخرى ، فإن مصر وراء خط قوة الطوارىء الدولية الرفيع، نفذت مشروعاً ضخماً لإعادة التسليح يعتمد على الامدادات

السوفييتية . وقد تضمن ذلك جهداً باهظ التكاليف لتطوير صواريخ تطلق من الأرض إلى الأرض وغيرها من الأسلحة غير التقليدية ، كالرؤوس الكيماوية والاشعاعية (وهي غير الرؤوس الذرية) . وكان من الواضح أن مصر ما أن تشعر بأنها مستعدة لتوجيه الضربة ، فإنها إما أن تطالب بإزالة قوة الطوارىء الدولية ، أو تمكر بها . وفي الوقت نفسه ، استطاعت الحكومة المصرية استغلال وجود قوة الطوارىء الدولية في شرم الشيخ كمبرر – أمام عناصرها القومية – لإبقاء مضايق تيران مفتوحة .

وإلى جانب الجهد الاقتصادي والفني الكبير لبناء جيش متفوق ، بما في ذلك أسطول ضخم وقوة جوية استراتيجية ، بذلت (الجماعة العسكرية الحاكمة) في مصر قصارى جهدها لتقوية نفوذها في العالم العربي، بالوسائل الدبلوماسية والتخريب وحتى بالتدخل العسكري المباشر – كما حدث في اليمن . ولم تتعب من الدعوة إلى الوحدة العربية تحت السيطرة المصرية ، أو على الأقل إنشاء قيادة عربية موحدة لجميع الجيوش العربية لضمان النصر في حرب إبادة ضد العدو المشترك .. اسرائيل*.

ولم تبق الدول العربية الأخرى مكتوفة اليدين . فبينما كانت مصر وسوريا تحظيان بامدادات عسكرية سخية من الاتحاد السوفييتي ، تزود كل من لبنان والأردن والمملكة

* – تتضح هنا النظرة العدوانية الصريحة ضد مصر والامة العربية ، فالثوار « جماعة عسكرية حاكمة » والدعوة القومية الوحدوية سيطرة مصرية ، ومساعدة اليمن والوحدة العسكرية تخريب وتدخل عسكري .

العربية السعودية من المصادر الغربية . وسعت العراق للحصول عليها من الاثنين . ولأول مرة أظهرت دول عربيـة أخرى – الجزائر بالذات – اهتماماً بصراع الشرق الأوسط ، مؤيدة الموقف العربي بصفة عامة وموقف مصر بصفة خاصة . وكان إنشاء قيادة عربية موحدة عام ١٩٦١ يرأسها جنرال مصري – رغم سلطتها غير المؤكدة وعثراتها المتوالية – دليلاً واضحاً على انه في الحرب القادمة (بعكس عام ١٩٥٦) سوف تضطر اسرائيل إلى الحرب في أكثر من جبهة في آن واحد .

لم تدع هذه التطورات السياسية والعسكرية في الدول العربية لاسرائيل خياراً ، سوى أن تواصل ، دون كلل ، بناء قوتها الحربية . وخلال الفترة من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٦ وفي نصفها الثاني بصفة خاصة حققت اسرائيل تقدمـاً ملحوظاً في المجالات العلمية والتكنولوجية والاقتصـادية والاجتماعية والبشرية، لحياتها القومية . وزادت قوتها الحربية زيادة كبيرة، وأصبحت نظريتها العسكرية وتنظيمها العسكري وفق ذلك أكثر نضجاً وتعقيداً ... لقد قامت نظريتها العسكرية على النقط التالية البالغة الدقة :

أولاً ، إن الحرب العربية التي طالما هُدد بها يجب تجنبها إذا أمكن ؛ ثانياً ، انه إذا وقعت هذه الحرب رغم ذلك ، فإن اسرائيل يجب أن تكسبها بأي ثمن . ثالثاً ، إن الجيش

القادر على كسب الحرب هو وحـــده الجيش الذي يردع . رابعاً ، إن الأمـــل في الردع لا يعتمد على القوة العسكرية وحدها ولكن على التأكد من أن هــذه القوة ستستخدم في الوقت المناسب وبطريقة حاسمة . خامساً ، إن اسرائيل يجب أن تكون على استعداد لمواجهة كل أعدائها على جميع حدودها في وقت واحد . وأخيراً ... أنها يجب أن تكون مستعدة للمهمة وحدها ، دون أي مساعدة عسكرية من الخارج (١) .

إن الحرب تتكون من سلسلة من المعارك . والمعركة صدام بين قوات عسكرية متعارضة . والقوة العسكرية للجيش في المعركة هي المحصلة النهائيــة لمجموع قواه البشرية ووسائله في القتال وأنظمة خدمة الجيش والأرض والطقس وصفات القيادة وروح القتال . ان نتيجة الحرب عادة هي النصر للجـــانب الأقوى ؛ والقوة العسكرية هي التعبير عن القدرة العسكرية لبلد من البلاد . وهذه القدرة يمكن أن يقال انهـا تعتمد على خمسة عناصر رئيسية . القوة البشرية للدولة؛ وضعها الجغرافي ـ الاستراتيجي ؛ مواردها الاقتصادية ؛ موقفهـــا السياسي ومركزها في الحقل الدولي ؛ نظامها الاجتماعي والسياسي . ان استعراض الحقائق والأرقـــام المحققة في ذلك الوقت قد أظهر بوضوح انه بالنسبة لأربعة من رؤوس الموضوعات الخمسة هذه ، حظيت الدول العربية بميزة واضحة على اسرائيل ، على

حين لم تستطع اسرائيل أن تدعي التفوق إلا في موضوع واحد فقط ... هو نوع ومزايا هيكلها الاجتماعي ونظام حكمها وقيمها الأدبية .

ومن ناحية التوزيع السكاني ، فإن المليونين والنصف من اليهود سكان اسرائيل ، كان عليهم أن يتصارعوا مع أكثر من مائة مليون عربي في دول تمتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي [٢] . وإذا نظرنا إلى الأمر من الناحية الجغرافية – الاستراتيجية ، فإن اسرائيل كانت شريطاً ضيقاً من الأرض ، ظهرها إلى البحر ، ومحاصرة ؛ وعلى العكس من ذلك كانت أراضي العدو تشكل شبه قارة [٣] . كانت اسرائيل دولة فقيرة إلى درجة اليأس في مواردها الطبيعية تحشر نفسها بين دول تملك موارد طبيعية لا تنفذ تقريباً ... البترول ، الأنهار الكبرى ، مناطق شاسعة من الأرض الصالحة للزراعة ، حوالي نصف الاحتياطي العالمي من الطاقة الحرارية . كانت اسرائيل معزولة بصورة فريدة سواء في اقليمها نفسه أو في العالم الخارجي . وفيما عدا روابطها مع اليهودية العالمية ، لم يكن لاسرائيل أية روابط عنصرية أو دينية مع أي دولة أخرى (مما يثير السخرية ان روابطها العنصرية الوحيدة كانت مع العرب) ؛ ولم يكن لها غير صوت واحد في الأمم المتحدة لتواجه به المجموعة الصلبة للأصوات المتعددة لأعدائها .

وكان العامل الوحيد من عوامل القدرة العسكرية

الذي تفوقت فيه اسرائيل دون منازع على أعدائهـا ، هو نظامهـا الاجتماعي . إن كونها ديمقراطيـة سياسية واجتماعيـة وسط أنظمة حكم بخلاف ذلك ، كان ميزة في حد ذاته ؛ وكان من شأنه أن يوازن – وفي بعض الجوانب يتفوق – على العوامل الأخرى مجتمعة . لقـد أثبت التاريخ السياسي لمنطقة الشرق الأوسط أن ديمقراطية أصيلة كديمقراطية اسرائيل يمكنها أن تحظى بولاء مواطنيها ، بينما تعجز أنظمة الحكم العربية عن ذلك . لقد ضمنت هذه الديمقراطية ـ كبداية ـ تعبئتهم تعبئة كاملة من الناحيتين المادية والمعنوية في أوقـات الأزمات القومية ؛ كما مكنت اسرائيل من أن تعطي السلاح لكل مواطن من مواطنيها ؛ وأمنت التفوق الكيفي لقواتهـا المقاتلة ، (وقد اتضح ذلك في روحها القتالية العـالية وفي المزايا القيادية على جميع المستويات وفي الاستخدام الكفوء للمعدات الحربية) . وكانت هذه الديمقراطية هادياً نحو حكم أكثر استقراراً ، وشعوراً أكبر بالوحدة والهدف المشترك . لقد ضمنت مستوى أعلى من الثقافة العـامة والتعليم والخبرة العلمية والفنية والصحة الأساسية للمواطنين . يضاف إلى ذلك – وهو ما نبع أيضاً من النظام الديمقراطي الذي أشرك كل مواطن في المصير المشترك لأمته – الظاهرة السابق الإشارة إليها كقوة ملزمة ودافع للتضحية .. وهي الشعور بأنه (ليس

هناك خيار آخر) لشعب يقاتل من أجل صميم وجوده ، على بينة تامة بأن هزيمته في الحرب تعني نهايته كأمة * .

إن تفوق اسرائيل في هذه النواحي الحيوية قد مكنها على الأقل أن تقرب الفجوة الضخمة بينها وبين أعدائها في غير ذلك من القدرات العسكرية . لقد كان عدد سكان اسرائيل قليلاً وجيشها الدائم صغيراً جداً بالمقارنة مع الجيوش الضخمة للدول الأخرى . ولتعويض ذلك ، استطاعت الاحتفاظ بعدد طيب من قوات الاحتياط على درجة عالية من الاستعداد ... بالتدريب العسكري المنتظم والممتاز ؛ كما كانت تستطيع الاعتماد على السكان جميعاً في تحمل أعباء الجوانب المتعددة للمجهود الحربي . ولما كان ينقصها العمق الجغرافي ، فقد خلقت لنفسها عمقاً استراتيجياً للاستعاضة عنه ... كان لها نظام بالغ التقدم للدفاع الاقليمي ، يعتمد اعتماداً كبيراً على المستعمرات المدنية (وهي مستعمرات مدنية ولكن مسلحة) وطورت استراتيجية مبادرة هدفها نقل المعركة إلى أرض العدو . وحاولت تعويض العجز في مواردها الاقتصادية بتخفيض المصروفات غير الضرورية عن طريق وضع نظام

* - من الواضح ان الكاتب يقدم اسرائيل بصورة مشرقة والامة العربية بصورة مناقضة لها ، وهو على ما يبدو يقوم بمهمة إعلامية واضحة الغرض ، وقد آثرنا عدم شطب هذا المقطع أو سواه من الترجمة لأننا ازاء مهمة معلومة وهي نقل الفكر الصهيوني وفكر اسرائيل الى الامة العربية.

صارم للأولويات في النفقات العسكرية . وحاولت التخفيف من عزلتها في عالم العلاقات الدولية بالسعي إلى كسب الأصدقاء حيثما كان ذلك ممكناً . ودون تجاهل لعلاقاتهـــا مع الدول الكبرى ، ركزت اهتمامها على إقامة علاقـــات مع الدول الصغيرة ، وبخاصة الدول النامية في آسيا وافريقيـا وأمريكا الجنوبية . ورفضت أن تفرض على نفسها نوعاً من العلاقـــة الجامدة بأي دولة كبرى معينة أو بمجموعة من الدول، وتجنبت حالة الاعتماد على أي حليف واحد .

ومع ذلك ، فقد ظل التفوق الأصلي لأعداء اسرائيل في أربعة من القدرات العسكرية الخمسة المشار إليها . ونتيجـــة لذلك كان على اسرائيل ألا تتساهل مطلقاً بشأن ثلاثة أمور : نظام الأولويات الذي أخذت نفسها به ؛ نوعيـــة جيشها ؛ نظريتها الدفاعية .

ولنبدأ بالأخير .. فرغم التحسينات المذهلة في نظـــام الدفاع الاقليمي عن البلاد ، تبين أكثر من أي وقت مضى ، أن الأخذ باستراتيجية دفاعية خالصة ، تسمح للعدو بأن يختار بحرية زمان ومكان وأسلوب هجومه ، معناه تعريض اسرائيل لأفدح الأخطار . إن الرد الوحيد على هجوم مهدد به هو المبادرة الشاملة من جانب اسرائيل ... هجوم مضاد إجهاضي إذا استدعي الأمر ، هدفـه تحطيم قوات العدو .

ولأسباب عسكرية وسياسية ، من الواجب أن تكون أي حرب في المستقبل قصيرة وحاسمة . وتقرر أن تتم المعارك الكبرى على أرض العدو . ولذا فإن الجيوش الاسرائيلية يجب أن تتقدم إلى الحد الضروري لضمان هزيمة قوات العدو ، وخلق وضع استراتيجي جديد لمواجهة أي هجمات مستقبلة ، واحتلال أراضي العدو واستبقائها إلى أن يتم تحقيق السلام وتحديد الحدود الاستراتيجية الدائمة .

هذه هي خلاصة النظرية الدفاعية التي ظهرت في السنوات التالية لحملة سيناء . وقد استدعت إدخال بعض التعديل على جوانب عديدة للتنظيم العسكري بحيث تتمشى معها... نظام الأولوية في تطوير الأسلحة المختلفة للقوات المسلحة ؛ مستوى التدريب العسكري والتربية المعنوية ، التركيز على شجاعة الجنود بصورة فردية وجماعية . لقد تم التوسع في هذه الموضوعات والتشديد فيها ، وفقاً للنظرية المعدلة . وفوق ذلك ، وتمشياً مع النظرية ، وجه اهتمام خاص نحو تنمية القدرة الهجومية والقوة الضاربة لجيش الدفاع الاسرائيلي ؛ وقد أثر ذلك على جميع أقسام القوات المسلحة .

ورغم أن المسرح الرئيسي للحرب المتوقعة كان على الأرض، فإنه لم يكن من الممكن التفكير في نصر عسكري سريع بدون تفوق جوي . وعلى ذلك فقد تم توسيع القوة الجوية

التكنيكية (على حساب تضحيات اقتصادية كبيرة من جانب الأمة كلها) . حتى اكتسبت أبعاداً جديدة من حيث الحجم وطاقة النيران وارتفاع التحليق ومسافة الطيران والقدرة على المناورة . لقد تطورت إلى قوة متعددة الأغراض ، قادرة على الاشتباك في قتال جوي والهجوم على البر والبحر وتقديم معاونة لصيقة للقوات البرية السريعة التقدم ؛ كما أصبح لهـا القدرة على القيام بمهام إضافية عديدة ، مثل الاستطـلاع والنقل وإنزال القوات (بما في ذلك المظليين) والمواصلات وعمليات الاسعاف والانقاذ . وكان إدخـال طائرات الهليوكوبتر ، بأعداد كبيرة وأحجام ضخمة ، تطوراً هاماً أيضاً في هذه القوة ، لأنه من الممكن استخدام هذه الطائرات في تنفيذ الكثيرمن هذه المهام، وبخاصة إنزال الجنود والمعدات وراء خطوط العدو .

وأصبح سلاح المدرعات ، الفرع الحاسم في القوات البرية . وعلى هذا الأساس تم توسيعه وتحسينه ... في عدد دباباته ، وطاقتها من النيران ، وقدرتها على اجتياز أراض لم تعتدهـا ليلاً ونهاراً ، وقوة المناورة . لقد أصبحت هذه المدرعات قادرة على اختراق الخطوط الدفاعية القوية ، والالتفاف حول مدرعات العدو، وتطويقها وسحقها. ولم يكن تطوير خدمات الصيانة التابعة لهذا السلاح أقل أهمية من تطوير السلاح نفسه،

فقد أُدخلت عليه تعديلات باهرة تتمشى مع احتياجات دبابات سريعة الحركة تقطع مسافات كبرى دون توقف .

كذلك نمت المشاة في العدد والعدة ، وأصبحت على أعلى درجة من الميكانيكية (أي الراكبة) ودربت على القتال منفردة أو بالتعاون مع المدرعات والقوات الجوية . وحدث نفس الشيء مع مدفعية الميدان التي حصلت على مدافع أفضل وازدادت قدرتها على الحركة لتتمشى مع سرعة القوات البرية المتقدمة . ولم يعد سلاح المظليين هو تلك الوحدة الصغيرة المختارة من المتطوعين الشجعان الذين يقومون بعمليات الكوماندوز . ورغم انه ظل – شأنه في ذلك شأن القوات الجوية – مؤلفاً أساساً من المتطوعين ، فقد نما بصورة واضحة في العدد والمعدات ، وأصبح قوة برية متعددة الأغراض من الطراز الأول . وظل في مقدوره القيام بعمليات الكوماندوز في وحدات صغيرة أو كبيرة ؛ ولكنه أصبح فضلاً عن ذلك يستطيع أداء مهام المشاة في الأجزاء الصعبة من الجبهة ... كان من الممكن إسقاط المظليين خلف خطوط العدو في عمليات واسعة النطاق ، أو القذف بهم في لهيب المعركة .

وتحقق تقدم مماثل في الأسطول . ومع استبعاد السفن الثقيلة المكلفة ، استمر في تطوير سفنه الخفيفة السريعة ، التي تضم زوارق الطوربيد وحاملات المدافع والصواريخ التي

تستطيع إطلاق نيران كثيفة وبعيدة المدى أيضاً . وأنشئت وحدة كوماندوز بحرية خاصة وأضيف عدد من المدمرات والغواصات . وكان هذا الأسطول يعتمد أساساً على السرعة وطاقة النيران والشجاعة ... إن هذه العناصر تمكنه من مهاجمة سفن العدو في البحار والدفاع عن الخط الساحلي للبلاد ، وحصر أسطول العدو في موانيه أو الإغارة على قواعده .

كذلك تطورت الوحدات المعاونة الأخرى .. مخازن السلاح ، المهندسين ، الاشارة ، الخدمات الطبية والنقل ، وظلت تمارس عملها على شكل مؤسسات مدنية مناسبة بقدر الإمكان . وقد وضعت أنظمة عملها بحيث تستطيع التحول السريع إلى جهاز الحرب . ونظراً للخطر الجديد في القصف الجوي الواسع النطاق لمراكز التجمع السكاني والقواعد العسكرية (بما في ذلك المطارات) بواسطة قاذفات القنابل والصواريخ ، وجه اهتمام بالغ الجدية إلى تحسين نظام المدفعية المضادة للطائرات والدفاع المدني عن البلاد . وحصلت شبكة الدفاع الجوي على مدافع جديدة مضادة للطائرات من مختلف العيارات وصواريخ أرض – جو ، وبذا ساهمت إلى حد كبير في تدعيم الوضع العسكري بصفة عامة . وبنيت المخابىء التي لا تؤثر فيها القنابل ، وبخاصة في المستعمرات

المعرضة للخطر قرب الحـــدود ، وكذلك في المدن والقرى (وكان قد تبين أنه في حالة هجوم جوي فإن البلاد كلهـــا ستكون معرضة بدرجة متساوية) . وكانت هناك مشروعات للحصول على صواريخ أرض – جو ، وصواريخ مضـــادة للصواريخ أيضاً في الوقت المناسب ؛ وطائرات تحلق عمودياً لأن قواعدها أقل تعرضاً من مهابط الطائرات العادية ؛ وزيادة طاقة الاصلاح السريع للمنشئات العسكرية والمطارات . ومع ذلك فقد ظل الدفاع الرئيسي عن المطارات والسكان على السواء، جزءاً من الخطـــة الاستراتيجية الشاملة .. إخراج قاذفات القنابل المعادية من المعركة في اللحظة الأولى للحرب ، وإبقاء سفن العدو الحربية وقاذفـــات صواريخه على مسافة لا خطر منها على المدن الساحلية .

ولقد أنتج العقد الذي نحن بصدده – وبخاصـــة سنواته الخمس أو الست الأخيرة الحرجة – عـددا من النظريات شبه العسكرية أو السياسية ـ العسكرية ، التي لعبت كل منهـــا دورها في الفكر العسكري لتلك الفترة . وكان أهمها يتعلق بما يلي :

١ – الدخول في ترتيبـــات وقتية مع العرب ، وبصفة خاصة معاهدات عدم اعتداء .

٢ – الحرب الوقائية .

٣ – الرادع النووي .

٤ – الموضوع الشديد الاشتعال مرة أخرى .. الهجوم المضاد المسبق ، أو الحرب الإجهاضية .

وكان هناك من ينادي – وأنا أيضاً – بوجهة النظر التي تقول أنه يجب أن يكون هناك طريق ثالث بين معاهدات الصلح الكاملة مع العرب من ناحية ، أو الدخول معهم في حرب ساخنة من ناحية أخرى ... قد تكون هناك ترتيبات مؤقتة يمكن إتباعها في غياب السلام الذي نرنو إليه . وكنا نقول –ان الحكومات العربية قد تغرى بالدخول في معاهدات عدم اعتداء معنا ، تقضي بتفتيش ورقابة متبادلين وفعالين – بواسطة وحدات إشراف يهودية عربية مشتركة، مزودة بأحسن وسائل الاتصال ، لتأمين الجانبين ضد أي هجوم مفاجىء . ويمكن لهذه المعاهدات أن تستخدم إما في تدعيم اتفاقيات الهدنة أو في الحلول محلها ؛ وانها وان كانت لن تعطينا السلام بالطبع ، فقد تساعد على منع ، أو على الأقل تأخير ، حرب شاملة أخرى ؛ فالجانبان إذا تخليا اختيارياً عن وسائل القيام بهجوم مفاجىء كبير ، من الجو أو البر ، فإنهما يكونان في الواقع قد تخليا عن إمكانية أي هجوم كبير على الاطلاق . وعلى أي حال .. كان من الواجب هجر هذه الفكرة، بوصفها حلماً مفرطاً في التمنيات .

ومع تقدم السنين في ذلك العقد، غدا واضحاً أن التكديس الهائل للسلاح في الدول العربية وبخاصة في مصر، ليس له سوى معنى واحد ... انهم لا يريدون عدم الاعتداء بأكثر مما يريدون الصلح؛ وان ما يريدونه هو التفوق العسكري لحرب شاملة أخرى مع اسرائيل، في ظروف تضمن النصر العربي.

وكان علينا في الوقت ذاته أن نحارب نظرة متشائمة لموقفنا، ولو أننا سمحنا لهـا أن تسود لقادتنا إلى أخطاء قاتلة. وقد عبرت هـذه النظرة عن نفسها في الصيحة التي أطلقها كل من الخبراء والعامة على السواء، بأن الوقت ليس في صالحنا. وكان يقال ان عدد السكان في الدول العربية يتزايد بمعدل مخيف؛ ومستوى حياتهم يرتفع باستمرار؛ والمزيد من أبنائهم يتلقون التعليم الثانوي والعالي. وبعبارة أخرى أن ثمة تقدماً كيفياً ملحوظاً يأخذ مكانه في المجتمع العربي؛ ولن يمر وقت طويل حتى تلحق الدول العربية بنا؛ وانه إذا أضيف الكيف إلى تفوقهم العددي، فإن قوتهم العسكرية قد تتيح لهم أن يتغلبوا على اسرائيل ويحطموها.

كانت تلك هي النظرة المتشائمة التي كان يمكن أن تقودنا إلى الخطأ بواحد من الطرق الثلاثة التالية أو بها جميعاً. ربما كنا نشعر أننا مرغمون على بدء حرب وقائية؛ وربما أدت بنا إلى وضع ثقتنا في دولة كبرى تضمن موقفنا؛ وربما كنا

نغري – من الخوف أو من اليأس – بإنشاء (ميزان للرعب) على غرار الميزان القائم بين الدول الذرية عن طريق الرادع المتبادل للأسلحة النووية المتاحة لكلا الجانبين .

وكان رأيي الخاص أن الوقت ليس ضدنا بالضرورة . ان الوقت في حد ذاته محايد بطبيعته ؛ والمهم هو كيفية الاستفادة منه . ان العدو لا شك قد أصبح أقوى من ذي قبل وحقق تقدماً دافعاً . ولكني كنت مقتنعاً أيضـــاً ، أننا أقوى من العدو ... ومن الناحية النسبية ، أقوى بكثير ممـــا كنا في الاختبارين السابقين ، في عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٦ . وعلى ذلك فإنه حتى ذلك الوقت على الأقل ، لم يكن الوقت ضدنا ، وفي المستقبل القريب لن يكون بالضرورة ضدنا لمدة جيلين آخرين على الأقل . وكنت أقول : إن هناك صلة وثيقة بين التقدم الاجتماعي والتنمية من ناحية ، والقدرة على استخــدام الخبرة الفنية والعلمية السريعة التطور من ناحية أخرى . إن الهيكل الاجتماعيالعربي قد يكون في حالة تقدم، ولكن التكنولوجيا العسكرية تتقدم بسرعة أكبر . ولذلك فإن وضع أسلحـة متقدمة جداً ومعقدةفي أيدي مجتمع متخلف لا يعني بالضرورة زيادة قوته العسكرية . بل انه قد يكون معرقلاً أكثر منه مساعداً . والزيادة السريعة في عدد السكان بالعالم العربي هي بكل جلاء نقمة أكثر منها نعمة ، لأن ظروف الفقر المرعب

حيث تولد الأجيال الجديدة من المقاتلين ضد اسرائيل، تستبعد أي تحسن ملموس في نوعيتهم .

ولقد رفضت فكرة الحرب الوقـــائية على أساس أدبي وسياسي معاً . وكنت أقول : إنـه من الخطأ أدبياً الدخول في حرب ما دام من الممكن تجنبها دون تعريض دولة اسرائيل للخطر .. إن هناك الأمل دائماً ، رغم كل شيء ، في أن تتغير الظروف ويصبح من الممكن تجنب الحرب لعدة سنوات إن لم يكن إلى الأبد . إن هجوماً عربياً عاماً هو احتمال ، بل وربما إمكانية ، ولكنه ليس أكيداً ؛ ولذلك فإنـه من الواجب عدم عمل شيء يغير هذا (الأمر الواقع) الشائك . وعلى أساس سياسي ومتبصر محض ، يكون خطأ تاريخياً من جانب اسرائيل أن تتورط في حرب عدوان . إن ذلك قد يفقدها الأصدقاء في جميع أنحاء العالم ؛ وقد تجد نفسها وقد فرض عليها من الحظر ما يجعل من الصعب عليها أن تجدد أو تستعيض ترسانتها الحربية .

وبالنسبة للاعتماد على دولة أجنبية لضمان الأمن ، كنت أقول : إن اسرائيل يجب أن تتجنب هذه السياسة تماماً . إنه من الأمور الطيبة بلا شك أن يكون لنا أصدقـاء في جميع أنحاء العالم ، وبخـــاصة بين الدول الكبرى التي تمتلك النفوذ وتنتج الأسلحة . ولكن مع تقدير الصداقة والنوايا الحسنة

لدى دول معينـة ، فإن اسرائيل يجب ألا تسمح مهما كانت الظروف بأن تجعل وجودها يعتمد عسكرياً على أي ضامنين له من الخارج لأسباب عديدة مقنعة . أولاً : لأن ذلك يقتضي اعتماداً عليهم يؤدي إلى إمـلاء سياسي حول طرق ووسائل حل النزاع العربي الاسرائيلي ، مما قد ينتهي في صالح الأعداء. ثانياً : إن الدولة الضامنة قد لا تكون متفقـــة معنا دائماً بالضرورة في تقييمنـــا للموقف الفعلي . ثالثاً : إنه في يومنا وزماننا هذا تتحدد نتيجة الحرب في الأيام القليـلة الأولى ، وأحياناً في ساعاتها الأولى ؛ وعليه فإن معونة حلفـــائنا قد تصل بعد أن يكون الأوان قد فات للاستفادة بها . وأخيراً فنحن نعيش في عالم (اصنعها بنفسك) ، واستمرار بقـــاء دولتنا يعتمد على قدرتنا الخاصة في الدفاع عن أنفسنا دون معاونة . وكنت أثق بجزم أننا قادرون على الدفـــاع عن أنفسنا دون حاجة إلى معونة عسكرية خارجية ، فيما عـدا إمدادنا بالمواد الحربية .

وحتى فيما يتعلق بالمواد الحربية بدا من المرغوب فيه تقليل الاعتماد على الآخرين شيئاً فشيئاً . ولقـــد أظهرت إنجازات صناعاتنا الحربية بوضوح ان الانتاج المحلي من المواد الحربية ذات المستوى الرفيع يمكن التوسع فيه . وبالاضافة إلى أهميته السياسية وقيمته في الدفاع الوطني ، فإن مثل هذا المجهود من شأنه أيضاً أن ينشط صناعاتنا المعدنية والعلمية .

وبالنسبة لميزان الرعب النووي : فإن الرأي الذي كان أكثر شيوعاً ، والذي كنت أعتنقه، هو أنه لو كان لنا الخيار بين امتلاك الجانبين للأسلحـــة النووية لاستخدامها كرادع متبادل، وبين حرمانهما من أن يضعا اليد عليها ، لوجب علينا أن نختار بصورة قاطعـــة توازناً للقوة يقوم على الأسلحة التقليدية . وبصرف النظر عن التطمينات الدوليـة والسياسية للوضع الذي تنتج فيه الأسلحة النووية من جانب دول خارج (النادي الذري) حالياً ، فإننا كنا نشعر أن اسرائيل قد تتعرض لخطر جديـد على أكبر قدر من الجسامة إذا حصلت أي دولة عربية على القنابـــل النووية (سواء كانت اسرائيل نفسها تملك قنابل مماثلة لأغراض الرد أو لا تملك) . لقد كانت أنظمة الحكم في الدول العربية عسكرية وغير مستقرة* وعلى قدر من عدم المسئولية يجعلها قادرة على إلقاء القنبلة الأولى متعللة بأي مبرر . ولن يكون عزاء كافياً للبقية الناجية المكدسة في المخابىء المحصنة ضد الإشعاع ، أن تعرف أنها قد تستطيع الاشتباك في عملية انتقام نووية .

ومع ذلك ، فقد كان هناك دائمـاً الخطر في أن يتمكن العدو آخر الأمر من إنتاج أسلحة غير تقليدية ، أو أن تزوده بها إحدى الدول النووية . ولذلك فقد كان من الضروري على اسرائيل أن تتابع عن كثب التطورات في العالم العربي ، وفي

* – هذه رغبة واضحـــة لاسرائيل أن تبقى أنظمة الحكم العربي غير مستقرة .

مصر بصفة خاصة ، وأن تحافظ في الوقت ذاته على مستوى عال من الأبحاث والتكنولوجيا في الحقل النووي على الخطوط المتبعة في دول العالم المتقدمة . وقد كان هـذا في المقام الأول لازماً لتطوير البلاد نفسها اقتصادياً وعلميـاً وسياسياً . ومن المعروف جيداً أن الخبرة العلمية والتكنولوجية لدولة ما هذه الأيام تشكل قدرتها على إنتاج الأسلحة النووية ؛ وإذا كانت اسرائيل لا تريد أن تمسك وهي نائمة ، فليس أمامها خيار إلا أن تحافظ على قدرتها .

وفي هذا الخصوص ، كان من الطبيعي أن نتبين ان تقدم اسرائيل في حقل الطبيعة والعلوم النووية هو بالذات ما قد يحفز العدو على شن هجوم جوي على معاهدها العلمية ومفاعلاتها النووية . ولقد يحدث ذلك تحت مبرر (موجـــه إلى الرأي العام العالمي) ان الهدف من الهجوم هو مجرد منع دخول الأسلحة النووية إلى الشرق الأوسط . وكان هذا سبباً آخر لاعتبار التسليح التقليدي الحديث أمراً بالغ الأهمية لاسرائيل.. لتمكينها من الدفاع عن نفسها ضد أي نوع من الهجوم يشن تحت أي مبرر .

ولقد اتفق على نطاق واسع ، أن وجود الحـالات التالية يجعل من حق اسرائيل – بل ويفرض عليها – أن تدخل الحرب :

١ – إذا احتشدت قوات هجومية بصورة تشكل خطرا على اسرائيل .

٢ – إذا اتضح أن العدو يعد لهجوم جوي مفاجىء على قواعد اسرائيل الجوية .

٣ – إذا وقع هجوم جوي، مهما كان محلياً، على منشآتنا الذرية ومؤسساتنا العلمية .

٤ – إذا وصلت أعمال حرب العصابات – زرع الألغام وضرب القنابل للانهاك – إلى درجة لا تستطيع معها عمليات الدفاع الايجابي والانتقام أن تتصدى لها .

٥ – إذا دخلت الأردن في حلف عسكري مع دولة عربية أخرى وسمحت بحشد قوات عسكرية أجنبية في أراضيها ، وبخاصة في الضفة الغربية لنهر الأردن .

٦ – إذا أغلقت مصر مضايق تيران .

ان تحقق أي حالة من هذه الحالات يشكل (مبرر الحرب) ويعطي اسرائيل الحق في الدخول في حرب دفاعية، بالوسائل وفي المسارح والأوقات التي تحددها هي .

ان تركيز القوات الهجومية له هدف واحد فقط ... العدوان . فحشد القوات للهجوم هو المرحلة الأولى للهجوم نفسه ، ويجب معاملته على هذا النحو . إن التفوق الجوي

يضمن أكبر فرص النصر.. والقوة الجوية للعدو يجب ألا يسمح لها بضرب قواتنا الجوية على الأرض . وإذا بدا واضحاً ان هجوماً جوياً على وشك أن يتم – سواء بواسطة مصادر المخابرات أو على شاشات الرادار – فإنه يجب أن يمنع ، وأن تدمر القوة الجوية للعدو ، حتى قبل إقلاعها إن أمكن .

كانت القاهرة – كما علم – متنبهة بجدة لمنشآتنا النووية .. ولقد توعدها رئيس جمهورية مصر في مناسبات عدة* ، ولا يستطيع أحد أن يستبعد احتمال طلعة جوية جسورة ضدها ، يصحبها بلاغ بأن مصر لم تقصد سوى تدمير هـذه المنشآت ولا شيء آخر . ولذلك فقد كان من اللازم إيضاح ان مثل هذا (الهجوم المحدد) سيؤدي إلى هجوم مضاد عام وفوري . وإذا فهم ذلك فإن مصر قد تفكر مرتين قبل الإقدام على مغامرة من هذا النوع .

وكانت عمليات حرب العصابات ، والتخريب وقصف مستعمرات الحدود .. مظاهر لحالة حرب نشطة . ولم تكن اسرائيل مرغمة على اقتفاء خط العدو ولعب المباراة بقواعده في الاستراتيجية والتكتيك . لقد احتفظت بحقها في أن تتصرف وفق خطوط توجيهها الخاصة ؛ وقد تضمن ذلك احتلال الأراضي إذا كان ذلك لازماً لطرد العدو من قواعد العدوان. انهم إذا علموا أن اسرائيل ستتصرف بهذه الطريقة،

* – الرئيس الراحل جمال عبد الناصر .

فقد يتوقفون، وإذا لم يتوقفوا كان على اسرائيل أن توقفهم .. أن تضع حداً لأعمال الارهاب والتخريب .

وبالنسبة للاردن ، فإن نظرة خاطفة إلى الخارطة كانت كافية لإظهار مدى قابلية اسرائيل للهجوم من هذا الجانب . ان الأراضي التي تحتلها الأردن على الضفة الغربية لنهر الأردن كانت تواجه (أسفل البطن الطري) في خطوط اسرائيل الدفاعية . إن أي قوة عسكرية مهاجمة تستحق هذا الاسم ، قد تحـــاول تقطيع اسرائيل إلى جزئين أو ثلاثة كافتتاحية لهجوم عام على عدد من الجبهـــات . وكانت القدس مدينة مقسمة ،يعيش قسمها الاسرائيلي تحت تهديد دائم .وكذلك الأمر بالنسبة لإيلات .. على مرمى حجر من العقبة ، ميناء الأردن على البحر الأحمر . ان ما يعنيه ذلك كله كان واضحاً . وما دامت الأردن تحترم إتفاقية الهدنة ، فلن يصيبها ضرر . ومع ذلك ، فإنها إذا شاركت في إئتلاف حربي ضد اسرائيل وسمحت لجيوش عربية أخرى بدخول أراضيها ، فلن يكون أمام اسرائيل خيار إلا أن تحيل الضفة الغربيـة من إسفين محتمل ضدها ، إلى مصيدة كبرى لقوات العدو .

وكانت مضايق تيران موضع بيانات متكررة من جانب حكومة اسرائيل ... التي قالت بوضوح وتأكيد ، ان إغلاق مضايق تيران سيعتبر عملاً مساوياً للحرب يستدعي رد فعل

من اسرائيل . ولقد أوضحت في كتابي « ستار من الرمال » أن إغلاق مضايق تيران في وجه الملاحة الاسرائيلية سيعتبر (عملاً من أعمال الحرب السافرة) وأنه (من وجهـــة نظر الاستراتيجية الحيوية يجب ألا تقوم اسرائيل بالاشتباك في حرب دفاعية «مرتبطة» بمسرح بعينه -مثل منطقة مضايق تيران- أو بموعد معين - مثل الموعد الفعلي للاغلاق - يختارها الحاكم المصري .. فمن الواضح انه سيحاول اختيار الزمان والمكان الأنسب له وغـــير المناسبين لاسرائيل . ولا توجد غلطة أكبر من السماح للعدو بأن يفرض مكـــان الفعل وزمانـــه .. وبالتالي أسلوبه . إن إغلاق مضايق تيران ليس عمـــلاً محلياً يستدعي مجرد رد فعل محلي . إنه يصل إلى حد إعلان الحرب ، الذي يسمح لاسرائيل بأن تحدد مكــــان ومدى وساعة الصفر لعملها) .

وكان عنوان الفصل الثالث من كتاب « ستار من الرمال » هو (بلد ظهره إلى حائط البحر) ، وفي هذا الفصل شرحت ببعض التفصيل الأساليب - وقد لمستها في موضع متقدم من هذا الكتاب - التي قد يتبعها العدو للقيام بهجومه المفاجىء . وللاجمال ، فإنها قد تتكون من المراحل التالية :

١ - هجوم جوي على قوة اسرائيل الجوية وهي لا تزال على الأرض .

٢ – هجوم متعدد الاتجاهات في وقت واحد على جبهات عديدة ، تقوم به قوات برية تتمتع بغطاء جوى متفوق .

٣ – إنزال لمشاة الأسطول ، إما لانهاك القوات وحصرها في مكانها ، أو كجزء من غزو كبير ؛ ووضع رجال حرب العصابات في العمل ، إسقاط المظليين ومشاة الأسطول وراء الخطوط ، بهـــدف تحقيق أكبر قدر من الإرباك والفوضى وتقطيـع خطوط المواصلات .

٤ – غارات جوية وقصف من البحر ضد المراكز المدنية والمناطق الصناعية .

إن هذا أو ما يشابه من وسائل افتتاح الأعمال العدائية ، سيكون هدفه خلق عدد من حالات (الأمر الواقع) قبل أن يكون لدى اسرائيل الوقت الكافي للتعبئة العـامة ، وقبل المناداة بوقف إطلاق النار – إذا نودي بذلك على الاطلاق – بواسطة التدخل الدولي .

إن وسيلة اسرائيل الوحيدة لإنقاذ نفسها من مثل هـــذا الهجوم المفاجىء هي المحافظة على استعدادها العسكري وحقها الأدبي في القيام بهجوم مضاد مسبق . وعلى هذا النحو قمت بتعريف عبارة « الهجوم المضاد المسبق » : (مبادرة عمليات اسرائيلية تتخذ ضد حشود قوات العدو ، واحتلال أهداف في أراضي العدو لها أهميتها الحيوية من نواحي الأمن ، في وقت

يكون العدو فيه قد حشد قواته للهجوم ولكن قبل أن يكون لديه الوقت لبدء هجومه بالفعل) .

ولقد قيل ان هناك (تناقضاً في العبـــارة) بين كلمة « مسبق » وكلمة « هجوم مضاد » . فهل يستطيع أحد أن يتكلم عن هجوم مضاد لوصف عمل بدأ قبل أن يبدأ الهجوم نفسه ؟ ولقد كنت أقول : إن التناقض لفظي بحت ، وهو بالتالي ظاهري وليس حقيقياً . إذ حقائق الموقف هي أن العدو يحشد قواته وفي ذهنه القيام بهجوم ، وأن مثل هـذا الإعداد للهجوم جزء لا يتجزأ من الهجوم ذاته ، وأن العدو يضمر تحقيق سيادة في الجو بهجـوم على قوة اسرائيل الجوية وهي لا تزال على الأرض ، ومثل هذا الهجوم إن نجح سيشل بضربة واحدة كل الهيكل الدفاعي لاسرائيل ويعرضها للهزيمة التامة . وإذا كان هذا هو الموقف ، فليس هناك شك أنه من وجهتي النظر الأدبية والسياسية ، يكون من حق اسرائيل – بل تكون مطالبة – بأن تسلب المبادرة من العدو .

لقد كان العالم كله يعرف ... أن اسرائيل هي التي ترغب في السلام* ، وأن الدول العربية هى التي أصرت في عناد على الإبقاء على حالة الحرب . إن اسرائيل ما كانت لتستطيع أن تتركهم حتى ينجزوا الكعكة ويأكلوهـــا ... أن يركزوا ويحشدوا قوات هجومية ضدها باسم حالة الحرب ، وأن

* – طبعاً نتيجة الدعاية والاعلام الاسرائيلي المركز .

يتوقعوا في الوقت ذاته أن تتصرف تجاههم وكأن هناك سلام. ولما كان صميم وجود اسرائيل هو المعرض للخطر ، فقد كان من واجبها أن تكون على أهبة الاستعداد – عسكرياً وأدبياً على السواء – للقيام بمبادرة استباقية كلما ثارت الحاجة لذلك، حتى في وجه إدانة من الأمم المتحدة . ومن المؤكد انه يجب بذل كل جهد لإقناع المنظمة الدولية والرأي العام العالمي بالضرورة الحيوية لمثل هذه المبادرة ، إذا وجدت مثل هذه الضرورة . ولكن يجب ألا يكون هناك أي تفكير في انتظار اسرائيل لموافقة العالم قبل أن تتصرف . فإنها لو انتظرت ، فقد تدمر، وتكون موافقة العالم عندئذ عديمة الجدوى بصورة فاجعة .

وفي الهجوم المضاد المسبق ، يجب أن يكون الهدف الأول والأهم هو السيادة الجوية . ويمكن بلوغ ذلك بتدمير قوة العدو الجوية ، ومنشآتها على الأرض . وعندئذ يكون الهدف تحطيم حشوده من القوات البرية واحتلال مواقع مناسبة على أرض العدو تمنعه من استئناف العدوان . وهو ما يفيد أيضاً كنقط للمساومة في أي مفاوضات صلح مستقبلة وتخطيط للحدود .

ومن المستحيل وضع قواعد جامدة وسريعة لتحديد موعد قيام اسرائيل بعملها قبل وقوع الهجوم الذي يراد استباقه .

وقد رؤي بصفة عامة أنه يجب أن يترك العدو يحشد قواته لأطول فترة ممكنة لإعطـــاء اسرائيل أفضل الفرص لتحطيم الجزء الأكبر من جيشه . ومرة أخرى أجرؤ على الاقتباس من السرد الأكثر تفصيلاً في كتابي .. (إن الهجوم المضـــاد المسبق يشن أحياناً قبل شهور وأحياناً قبل أسابيع وأحياناً حتى قبل أيام قليلة من هجوم العدو المتوقع ، وذلك لضمان قلب المائدة عليه . وعندما لا يكون هناك مخرج آخر ، قد يكون من الضروري للقوات الاسرائيلية أن تسبق الغزاة ولو بساعات قليلة .. المهم أن تسبقه) .

كانت هذه هي قضية الهجوم المضاد الإجهاضي أو المسبق. أما جانبها الآخر فهو ما تنطوي عليه من واجب صريح بعدم اللجوء إلى عمل من هذا النوع ، ما لم يتم التأكد من ضرورته المطلقة فوق كل شك معقول ، وبعد أن يتم هـــذا التأكد ، يخضع الأمر مرة أخرى لاستقصاء سياسي على أكبر درجات الجدية . وبالاجمال .. فإن الفارق بين الهجوم المضـاد المسبق – الذي يعتبر على مستوى العمليات عملاً هجومياً ، ولكن من الناحية الأدبية عملا دفاعياً – وبين الحرب الوقائية – التي تعتبر عملاً من أعمال العدوان لا من وجهة نظر العمليات فقط ولكن من وجهة النظر الأدبية أيضاً – هو أن الهجوم المضاد المسبق يتحدد إما .. بحشد قوات العدو بصورة فعلية ومرئية

وملموسة بفرض القيام بعملية هجومية، أو .. بتدهور جذري في حالة الأمن بصورة عامة نتيجة لخرق العــدو لتعهداته .
ومن الواضح أنه كان من الضروري عدم تفسير كل حركة لقوات العدو على أنها حشد للقوات لهجوم حقيقي ، ولا معاملة كل تفاخر أو قرقعة سلاح وقحة يطلقها غوغائي في الحكم على أنها إعلان للحرب . ولقد يكون من الصعب – وان لم يكن من المستحيل بمساعدة جهاز مخابرات كفؤ كجهاز اسرائيل – التمييز بين حشد القوات بهدف الهجوم ، ومناورات الجيوش أو أي خطوة أخرى في حرب الأعصــاب . كانت هذه هي الفروق التي يجب على اسرائيل مراعاتهــا بيقظة دائبة على الدوام .. إذا كان لها ان تمارس حقها في استخدام (هجوم مضاد مسبق) عندما لا يكون هنــاك طريق آخر لتأمين بقائهــا .

●

الفصل الخامس

حرب الايام الستة

كانت سياسة حكومة اسرائيل هي منع الحرب ، اما عن طريق الاتفاقيات الوقتية ، أو بالقوة الرادعة الكامنة في القوة العسكرية لقوات الدفاع الاسرائيلية . وفي هذا الشأن أثبتت هذه السياسة أنها كانت عديمة الجدوى وعقيمة . فمن الواضح أن العدو لم يحسن تقدير قوة اسرائيل العسكرية ومدى تأهبها واستعدادها لاستخدام هذه القوة في استراتيجية هجومية . ولذا فقد مضى في سلسلة من الاستفزازات التي أرغمت اسرائيل على أن تمد يدها ، وجعلت من اللازم عليها أن تستخدم كامل قوتها العسكرية .

ويبدو أنه منذ منتصف مايو ١٩٦٧ لم تترك حكومات مصر والأردن وسوريا والعراق خطوة خطيرة إلا خطتها . وباجتيازها الخط الفاصل للخطر ، لم يبق أمامها مخرج ..

كان لا بد من حدوث مواجهة عسكرية . لقد حشدت قوات مصرية مؤثرة في شبه جزيرة سينـاء ، وأغلقت مضائق تيران في وجه الملاحة الاسرائيلية . ودخلت الأردن حلفاً عدوانياً عسكرياً مع مصر ، فاتحة أراضيها للقوات المصرية والعراقية وواضعة قواتها هي تحت قيادة مصرية ، كما حشدت أسلحة مدرعة في ضفتها الغربيـة . واعترف الرئيس المصري – في بساطة مذهلة – ان كل هذه الاستعدادات موجهـة لحرب إبادة ضد اسرائيل* .

ان المراحل المتتابعة لأزمة مايو تشكل درساً موضوعياً بارزاً . إنهـا توضح كم هو سهل الإنزلاق على منحدر الحرب الزلق . بدأ كل شيء عندما ادعى السوريون ان اسرائيل تحشد قوات عسكرية في الجليل وتعـد لغزو سوريا . وصدق الاتحاد السوفييتي هذا الادعاء الذي لا يوجد عليه أي دليل . ولم يكتف الروس بتوجيه إتهامات لا أساس لها إلى اسرائيل، ولكنهم نصحوا الرئيس المصري ـ وفقاً لشهادته نفسه ـ بحشد المدرعات في شبـه جزيرة سيناء ، لردع اسرائيل عن نواياها البشعة المزعومة في الشمال أمام خطر جبهة ثانية في الجنوب[1].

وكان الاتحاد السوفييتي يعلم بطبيعة الحال ان اسرائيل ليست لديها أدنى نية أو خطة لغزو سوريا . وعندمـا دعا مستر اشكول الذي كان رئيساً للوزراء ووزيراً للدفـاع ،

* – مرة أخرى آثرنا الابقاء على كلام الكاتب كما هو رغم ما فيه من تجني حتى تكون الصورة واضحة أمام القراء العرب فيما يتعلق بعقل العدو.

السفير السوفييتي في اسرائيل لمصاحبته في جولة بالجليل ومناطق الحدود ليرى بعينيه أنه ليس ثمة حشود لقوات عسكرية في المنطقة.. رفض السفير الدعوة. لم يكن في حاجة إلى دليل على شيء يعلمه من قبل تمام العلم. ويبدو أن ما كان يخشاه الروس هو قيام اسرائيل بأعمال إنتقامية واسعة ضد سوريا، رداً على استفزازاتها (عدد لا حصر له من أعمال التخريب والقصف بالقنابل لمستعمرات الحدود). كانوا يخشون أن تؤدي عمليات إنتقام من هذا النوع إلى إسقاط الحكم البعثي في دمشق، الذي كان موضع تفضيل خاص من الاتحاد السوفييتي. وربما كان هذا هو ما جعل الاتحاد السوفييتي يحفز حاكم مصر ويحثه على حشد قوات مسلحة في شبه جزيرة سيناء كرادع لاسرائيل، رغم علمهم بأن ذلك قد يؤدي إلى خطر مواجهة بينها وبين مصر.

وصحب التحركات العسكرية المصرية الكثير من الدعاية والتباهي. ووجد القادة المصريون تشجيعاً كبيراً في الانطباع القوي الذي خلفته هذه التحركات على الجبهة الداخلية وفي جميع أنحاء العالم العربي. وانجرفوا إلى الأمام في خطوة أخرى أبعد. لقد طالبوا بأن يسحب قائد قوة الطوارىء الدولية قواته، وبذا يرفع الحاجز بين حشود القوات المصرية وحدود اسرائيل. وكان رد الأمين العام للأمم المتحدة أن

طلب من مصر أن تختـــار .. اما أن تبقى قوة الطوارىء الدولية في مواقعها التي كانت بها من قبل ، أو تسحب كلية . وكان هذا بالنسبة لرجل مثل عبد الناصر – تتملكه شهوة النفوذ والهيبة – تحدياً لا يستطيع مقاومة إغرائه . كان عليه أن يقبل التحدي ، فمضى في غلوائه ، وانغمس إلى أذنيه في حركة غير محكمة التدبير *.. في الثامن عشر من مايو طالب بالانسحاب التام لقوة الطوارىء الدولية . واستجاب الأمين العام أوثانت بإصدار أمر فوري بسحب القوة . وقضت هذه الخطوة المتعجلة من الأمين العام ، بضربة واحدة ، على جميع الترتيبات المتقنة التي كانت قد اتخذت عام ١٩٥٧ . ففي ذلك الوقت كان شرط اسرائيل للانسحاب من شبـه جزيرة سيناء أن يقف بينها وبين مصر خط رفيع أزرق من قوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة . وتغلب الطموح المفرط على السياسي الماهر في عبد النـاصر مرة أخرى ، فدفعه (في ٢١ مايو) إلى اعلان إغلاق مضائق تيران في وجه الملاحة الاسرائيلية ، رغم أنه كان يعلم جيداً ان اسرائيل تعتبر الحصار على إيلات عملاً من أعمال الحرب يبيح لها الدخول في عمل مضاد .

---

* – ثمة إصرار واضح لدى الكاتب للنيل من القيادات العربية كلها ، فهو يأخذ الاردن فترة ، وينال من سوريا وقياداتها فترة ، ثم يلتفت إلى مصر والعراق وقياداتهما ممـا يوضح رغبته في تشويه الصورة العامة للعربي دولة وقيادة .

وإدراكاً منه لردود الفعل الاسرائيليـــة المحتملة ، دعم عبد الناصر قواته في سينـــاء بمزيد من فرق المشاة الراكبة والمدرعات ، وأمر قواته الجوية واسطوله بأن يكونوا على أهبة الاستعداد . وأصبـح حشد القوات المصرية خطراً (في حد ذاته) .. وازداد قلق اسرائيل . انها تواجه أكثر من مجرد محاولة ضد حريتها في الملاحـة ؛ كان هناك خطر حقيقي في غزو وشيك لأراضيها. لقد كان الزعماء العرب ـ وعبد الناصر أولهم وأهمهم ـ يعدون بذلك منذ وقت بعيد . وازداد التوتر في اسرائيل مع الفيض المتزايد من الخطب والاذاعات المهددة والعنيفة ـ التي كانت تسمع وتشاهد من الملايين على شاشات التلفزيون في العـــالم خارج اسرائيل ـ من جانب متحدثين رسميين وزعماء مصريين[٢] . ووجدت الحكومة الاسرائيلية نفسها مرغمة على المضي إلى تعبئة كاملة للاحتياط .

ورأى ملك الأردن ان اسرائيل تفضل في هذه المرحلة ، الالتجاء إلى الوسائل الدبلوماسية وبحث كل الحلول الممكنة ، قبل اللجوء إلى القوة المسلحة . كما رأى موجة المد المرتفع في مكانة الرئيس المصري تهـدد بابتـــلاع المترددين . ولذا فقد طار إلى مصر، وفي الثلاثين من مايو وقع ميثاقاً عسكرياً مع عبد الناصر . وجعل جيشه تابعـاً للقيادة المصرية العليا ، ووضع بلاده تحت تصرف الوحـــدات العراقية والمصرية والفلسطينية التي تعد العدة لغزو اسرائيل .

وفي الحقيقة ، كانت الجيوش العربية بصفة عامة وجيوش مصر بصفة خاصة أبعد ما تكون عن الاستعداد لانشغالها في برنامج لإعادة التنظيم ، وهكذا لم تكن مستعدة لمواجهة مع عدوها.. كان جزء كبير من الجيش المصري مشغولاً في اليمن . وعليه فقد بدا ان هناك الكثير من عنصر المقامرة والتمنيات في التحركات المصرية ، بدلاً من التفكير الاستراتيجي البارد. وهكذا كانت هذه الأزمة التي قادت إلى شفا الحرب ، وإلى الحرب نفسها في النهاية ، مجموعة من المصادفات غير المقصودة الناجمة عن الانزلاق على منحدر زلق ، أكثر منها سلسلة من الخطوات المحسوبة بوعي وتخطيط من جانب حكومة مصر . وعلى ضوء الأحداث التالية ، يكون من المرعب استعراض مدى الخطأ الذي وقعت فيه الجماعة الحاكمة في مصر في تقييمها للموقف . لقد استخفوا بقوة اسرائيل ، بما لا يتفق مع انتصاراتها في الماضي . وبالغوا في تقدير قوتهم رغم الهزائم التي تكبدوها ...

وكانت كل خطوة منفردة اتخذها العدو تشكل بذاتها سبباً ومبرراً كافياً لإجراءات عسكرية اسرائيلية مضادة . وكانوا مجتمعين يؤدون إلى نفس النتيجة بطبيعة الحال . إن محاصرة ميناء إيلات عمل من أعمال الحرب . انه لا يعطي حرية التصرف فقط ، ولكنه يفرض عليها – لمقابلة العدوان المصري والمحافظة على صميم وجودها – أن تحدد متى وأين

وكيف سيتم العمل الرئيسي . ما من دولة ذات سيادة قادرة على الدفاع عن نفسها – ولا أي من تلك الدول التي نصحت بالاعتدال وحضت اسرائيل على أن تغل يدها – كان يمكن أن تسكت عن حصـــار تحكمي يفرض على أي ميناء من موانيها، وما كانت لتتردد في الالتجاء إلى السلاح لكسر مثل هذا الحصار .

وكانت نوايا العدو المعلنة صراحة في شن هجوم من شبه جزيرة سيناء وحشد قوات هجومية فيهـــا ، أمراً مساوياً للمرحلة الأولى من الهجوم . ومتى اكتمل ترتيب هذه القوات، فإن مبادرة في الجو والبر وإلى درجة ما في البحر، من جانب مصر وحلفائها، تصبح احتمالاً وشيكاً . ونظراً لوضع اسرائيل الجغرافي – الاستراتيجي الخاص ، ولمواردها المحدودة ، ولقلة عدد سكانها ، وتعرض مدنها وقراها الخيف لخطر أي هجوم ، فإنها لم تجرؤ على أن تترك للعدو ميزة المبادرات في العمليات فوق كل ما له من ميزات أخرى . كان عـدم سلب المبادرة منه – بالمعنى الحرفي للكلمة – عملاً انتحـــارياً . وازدادت خطورة الموقف عندما بدا واضحاً ان الهجوم العربي الجوي والبري قد يشهد في وقت واحد على ثلاث جبهات : المصرية والأردنية والسورية .. وفي مرحلة متقدمة على الجبهة اللبنانية أيضاً . وعندما اندمجت القوات المصرية والعراقية في البنيان

الجغرافي – الاستراتيجي الأردني على الضفة الغربية بدا أن الأمر قد انتهى وأفلت الزمام . وكان يجب على أولئك الذين أتوا بهذه المواجهة أن يعرفوا أنهم إنما كانوا يصدرون إعلاناً للحرب .

وحتى في تلك المرحلة المتقدمة ، كان يمكن تجنب الحرب لو تدخلت سلطة دولية مختصة قادرة على إقناع مصر بالموافقة على التخفيف التدريجي من حشدها العسكري ، وإعادة فتح مضايق تيران ، والتعهد بوقف أعمال التسلل والإرهاب . ولم تكن في الأفق أي بادرة من هذا النوع . وعدا أنه لا مفر من الحرب .

لم تكن هناك أية شكوك بالنسبة للأولويات الخاصة بالمسارح المختلفة للعمليات ، أو بالنسبة للمجهود الرئيسي . إن نظريات الحرب وخططها قد بحثت بعناية ، واكتملت الخطة إلى آخر التفاصيل. وكان لدى المخابرات الاسرائيلية معلومات حديثة إلى آخر يوم عن الهياكل العسكرية للدول العربية وعن أوضاعها ونواياها. وعلى ذلك فإن القوات الاسرائيلية المسلحة تستطيع أن تطوع خططها وفقاً لخطط العدو .

بناء على توصية من رئيس الوزراء ووزير الدفاع، أصدرت حكومة اسرائيل أمراً إلى الجنرال رابين رئيس هيئة أركان

الحرب ، بأن يمضي في التعبئــــة الكاملة للاحتياط . ووقف الجيشان وجهاً لوجه على جميع الجبهات ، وأعطيت الأولوية للجبهة المصرية ، حيث احتشد أكبر جيش عربي ، معقود له لواء الزعامة من سائر العرب .

وكان من الأمور البالغة الأهمية... التعبئة السريعة والكاملة تقريباً لقوة اسرائيل الدفاعية ، بهدف مشترك ، هو تثبيط العدو عن الهجوم ، وصده إذا أقدم . وهكذا كانت القوات الاسرائيلية على استعداد لأخذ زمــــام المبادرة بطريق من الطرق الثلاث الآتية :

- هجوم مضاد مسبق .. وهو ما كان مفضلاً بصورة واضحة .
- هجوم مضاد متوافق ..
- هجوم مضاد لاحق .. إذا لم يكن هناك طريق آخر.

كان الموقف من الناحية العسكرية بالغ الخطورة ، وشديد الوضوح أيضاً ، لم يكن فيه أي غموض . كان واضحاً تماماً أن الجيوش العربية قد احتشدت لتهاجم اسرائيل ، وإن لم تكن مستعدة تماماً بعد. كانت القوات الجوية العربية قد تلقت أمراً بالتأهب ، وكانت تنوي القيام بهجمات كبرى مباغتة على القواعد الجوية الاسرائيلية. كانوا يريدون أن يضربوا الطائرات

الاسرائيلية على الأرض ، حيث لم يكونوا قط شديدي الحرص على ملاقاتهـــا في الجو . وبعد ذلك يبدأ غزو بري وقصف بالقنابل من البحر ، مع غطـــاء جوي عربي من مركز قوة متفوقة .

وكنت أرى ان على قوات الدفاع الاسرائيلية أن تهاجم عندما يكون العدو قد حشد أكبر قسم من قواته في سيناء ولكن لم يكن لديه الوقت الكافي لتوزيعها وتنظيمها بصورة سليمة . إن هذه هي اللحظـــة المناسبة لسحق قوات العدو بالحد الأدنى للخسائر في جانبنا .

ولكن الاعتبارات السياسية في تلك المرحـــلة أدت إلى اهتزاز الصورة . لقد انسحبت اسرائيل من سيناء وغزة عام ١٩٥٧ على أساس فهم وتوقع عالمي بأن الدول البحرية ستضمن حرية مرور السفن في مضايق تيران [٣] . وفي الظروف التي نشأت في مايو ١٩٦٧ ، قررت حكومة اسرائيل تأجيل رد الفعل العسكري لحصار تيران انتظاراً لنتائج جهد دبلوماسي خاص لمعرفة ما إذا كانت الدول البحرية على استعداد لتنفيذ التزاماتها في فتح مضايق البحر الأحمر . وكان ذلك في نظري خطأ .. على المستويين السياسي والعسكري . إن حرية الملاحة قد أصبحت مسألة ثانوية. إن التحدي الخطر هو حشد القوات الهجومية في سيناء ومـــا تلاه من دخول الأردن في الحلف

العسكري . من المشكوك فيه جداً ان الدول البحرية كانت ستحاول بالفعل إرغام مصر على رفع الحصار عن إيلات . ولكن من المؤكد أن هذه الدول ما كانت سترسل أي قوة عسكرية لمساعدة اسرائيل في صحراء سيناء . ويمكن القول بصدق على ضوء الأحداث اللاحقة — إن قوات الدفاع الاسرائيلية لم تكن في حاجة إلى أية معونة ، اللهم إلا إرسال الأسلحة وقطع الغيار . وقد يكون من الطبيعي والمفهوم أن أياً من الدول البحرية ما كانت لترغب في التورط في عمل قد يلقي عليها ظلال شكوك بأنها عملت بالتواطؤ مع اسرائيل ؛ وعلى ذلك فلم يكن متوقعاً منها أن تقدم تأييداً واضحاً لا لبس فيه لأي مبادرة اسرائيلية. بل ان التقديرات الدبلوماسية التي وضعت أمام زعماء دول حلف الأطلنطي قد دعتهم إلى الضغط على اسرائيل ... للامتناع عن أي عمل عسكري ، ولممارسة الصبر ، ونحو ذلك . وقد أدى ذلك إلى تأجيلات لا داع لها وخطيرة . كان من الصواب – بطبيعة الحال — ان موقف اسرائيل يجب أن يوضح في العواصم الغربية... ولكن الوقت الصحيح لذلك يكون بعد أن تبدأ الحرب مباشرة .

ومع افتراض أن أسطولاً دولياً كان سيصل إلى البحر الأحمر ، فإن ذلك بذاته لن يكون له أي تأثير على الجبهة البرية أو الجوية . وعلى العكس من ذلك ، فليس بعيداً عن

الواقعية أن نفترض ان القيادة العربية العليا — حرصاً منها على استباق وصول مثل هذه الحملة البحرية الدولية — قد تقدم موعد هجومها على اسرائيل لخلق (أمر واقع) قبل وصول الأسطول ، الذي سيجد أن الأحداث قد سبقته .

انتهج الاتحاد السوفييتي خطاً شديد العداء لاسرائيل ، متجاهلاً تماماً وبسوء نية ، جميع حقائق الموقف . وقدمت الدول الغربية الثلاث الصديقة — كل بطريقتها الخاصة — نصائح ومناشدات بضبط النفس . توسلت كل منها بطريقتها وأسلوبها الخاص إلى اسرائيل بأن تنتظر « أول قذيفة مصرية » . واقترح أصدقاء معينون — بحسن نية لا شك فيه — أن ترسل اسرائيل سفينة اختبار إلى مضايق تيران ، فإذا أغلق المصريون الطريق أمامها بإطلاق النار عليها ، فإن ذلك يخلق سبباً ممتازاً للحرب ويفتح الطريق أمام اسرائيل لتشن هجوماً هاماً على مصر .

ولم تكن اسرائيل لتستطيع الانصات لاي من هذه المقترحات. لم تكن تستطيع أن تنتظر حتى يحدث شيء ما — حتى ولو كان ذلك أسطولاً دولياً وهمياً . ما كانت تقدر أن تنتظر حتى يقع هجوم مصري كبير لكي تشن هجومها المضاد. إن الحروب هذه الأيام لا تبدأ بطلقة أولى ولكن بهجوم جوي كبير ، أي ان انتظار اسرائيل حتى تبدأ مصر يكون

غلطه قاتلة . كذلك لا تستطيع اسرائيل أن تنتظر إيقاف سفينة في تيران ليعطيها (سبب الحرب) أو يحدد لها ساعة الصفر . إن إعلان إغلاق المضايق سبب كان للحرب مثله مثل منع سفينة بالفعل . كما انه من المحتمل جداً ، أن القيادة المصرية العليا ـ إدراكاً منها للحيلة ـ قد تمتنع عن مهاجمة هذه السفينة ، وتشن هجومها الشامل على اسرائيل . وهكذا كان انتظار سفينة اسرائيلية توقف في تيران مساوياً لإصدار تعليمات إلى رئيس هيئة أركان حرب اسرائيل بأن يرسل برقية إلى رئيس هيئة الأركان المصري يخطره فيها بتاريخ وساعة بدء العمليات .

ومرة أخرى ، وكما في الماضي ، ساعدنا العدو على الخروج من ورطتنا . لقد قدم لاسرائيل أكثر من(طلقة أولى)واحدة، لقد بدأ عمليات قصف إجرامية لمستعمرات الحدود في قطاع غزة في الثاني من يونيو.وحرك مدرعات ثقيلة في اتجاه النقب، ربما بهدف قطعها عن اسرائيل كخطوة تمهيدية لاحتلال إيلات بحركة كاشة من سيناء والعقبة ، مؤكداً بذلك عدم جدوى أي محاولة لفتح المضايق ، وتحقيقاً لأمل طال التطلع إليه فيإقامة صلة برية بين مصر والاردن . وكما لو كان ذلك كله غير كاف ، قامت الطائرات المصرية بنشاط مشبوه ، كان في غاية الوضوح على شاشات الرادار الاسرائيلية . وهذا النشاط يأتي على رأس

كل تعبير آخر عن نية الحرب ، وقد أضاف بهذه الصفة دليلاً على الهجوم الوشيك .

كانت قوات الدفاع الاسرائيلية كاملة الاستعداد . وأمكن إتمام التعبئة العامة فيما عدا بعض وحدات الاحتياط . كان التدريب والتنظيم وكانت معنويات القتال وحماسة الجنود رائعة . لقد اشتركت – بصفتي عضواً في لجنة الدفاع التابعة لمجلس الوزراء لمدة تزيد على خمس سنوات – في المشاورات الخاصة ببحث النظرية والمبادىء العسكرية ونظام الأولوية والتجهيز لقوات الدفاع الاسرائيلية ، وكان يحضر هذه المناقشات رئيس هيئة أركان الحرب . وخلال الفترة المؤدية إلى الحرب ، وأثناء الحرب وبعدها ، كنت عضواً في اللجنة الاستشارية الخاصة للدفاع التابعة لرئاسة الوزراء مباشرة . وقد أتاح لي ذلك كله أن أرقب عن كثب تطور نظريتنا الدفاعية ونموها الكامل ، وكذلك تخطيطنا الاستراتيجي والعمليات الحربية التي تتم تنفيذاً لهذا التخطيط . وعشية المعركة ، أدخلت بعض التعديلات والتغييرات على الخطة هنا أو هناك، كان بعضها إلى الأحسن والبعض الآخر إلى الأسوأ. وفيما عدا هذه التعديلات البسيطة فإن الخطة كلها وضعت وفقاً للنظرية الأصلية .

كان طابع المرحلة الأولى للحرب، هو ذلك الحرص المفهوم

على تجنب فتح جبهة ثانية . بذلت مساع دبلوماسية عن طريق الجنرال أود بول رئيس لجنة الرقابة الدولية على الهدنة، لإثناء الملك حسين عن الاشتراك في الحرب . ولكن يبدو ان القوة العبقرية المهيمنة على مصير الشعب اليهودي شاءت غير ذلك. إذ قضت بتحرير أرض اسرائيل التي كانت تابعة للاردن وخلق قدس غير مقسمة*. لقد قفز الملك الاردني إلى (عربة العصابة)** تخدعه البلاغات الحربية الكاذبة التي كان يذيعها صوت العرب.. تروي انتصارات مصرية مزعومة . وهكذا بدا واضحاً، ومن البداية بصفة خاصة ، ان الحرب ستكون على ثلاث جبهات (مصر والاردن وسوريا) . مع فرصة معقولة في أن يظل لبنان خارج الموضوع إلى أن تتطور الأمور ضدنا .

وكانت سينـــاء تمثل الخطر الرئيسي من وجهة نظر القوة العسكرية ؛ وكان الخطر الاردني جغرافياً – استراتيجياً ؛ وكان خطر سوريا متمثلاً في قدرتها على تعكير صفو الحياة في اسرائيل . ولذا فقد وجه الجهـــد الرئيسي – صواباً – ضد مصر ، التي كانت تملك أكبر قوات في الجو والبر والبحر ، وكانت تدّعي زعامة العرب في الحرب . كانت فرصة المباغتة الاستراتيجية قـــد ضاعت ، لأن الجيشين المتصارعين كانا في حالة تأهب كاملة . كان النوع الوحيد من المباغتة الذي لم يزل ممكناً ، هو المفاجئات العملية والتكتيكية ، في الميدان .. في مسرح الحرب ..

* – طبعاً هذا كلام واضح الدلالة حول أطماع اسرائيل التي لم تعد خافية على أي عربي .

** – الدول العربية العصابة أم اسرائيل ؟ ؟ ؟

انتظمت القوات المصرية .. في وضع استعداد . ان هجومها الكبير قد يقع بعد لحظة واحدة . لقد وضع جهاز الحرب المصري في حالة تشغيل . ان اسرائيل لا تستطيع أن تترك المبادرة أكثر من ذلك في أيدي العرب .. عليها أن تقوم بالهجوم المضاد ، وتسبق العدو . لقد كان هذا من الناحية القانونية ، (هجوماً مضاداً) لأن المصريين كانوا قد افتتحوا العمليات فعلاً على نطاق محلي . ومع ذلك ، فلما كانوا لم يحاولوا بعد اجتياز الحدود وبدء هجومهم الكبير ، فإنه يمكن وصف العملية الاسرائيلية بحق بأنها كانت عملية هجومية استباقاً لغزو وشيك .

كان من الواضح ان السيادة في الجو هي مفتاح النصر ، وإن كانت وحدها لا تضمنه . ان قواتنا الجوية كانت تستطيع مفاجأة القوة الجوية المصرية ، رغم اننا كنا قد فقدنا منذ مدة ميزة المباغتة الاستراتيجية .

وكانت المفاجأة كاملة ، على مستوى العمليات والمستوى التكتيكي ، بفضل قوة المبادرة وتعدد المواهب والشجاعة والمهارة الفنية التي أبداها جميع الرجال الذين اشتركوا في العملية . ان الضربة الأولى قد أخرجت من العمل كل أسراب قاذفات العدو ومجموع مقاتلاته ومطاراته ومعداته الضرورية . وفي أقل من ثلاث ساعات لم تعد القوة الجوية المصرية أداة

حرب فعالة . وتبعتهـــا القوة الجوية الاردنية ، ثم القوتين السورية والعراقية ، فقد ضربت بعنف قواعدهما القريبة نسبياً إلى اسرائيل. ومما هو جدير بالذكر ان القوة الجوية الاسرائيلية لم تنجح في مباغتة القوة الجوية المصرية – وكانت أول ضحية لمبادرة العمليـــات – ولكنها فاجأت أيضاً القوتين السورية والعراقية، اللتين هوجمتا بعد عدة ساعات من ساعة الصفر(٤).*

وحققت اسرائيل السيادة أيضاً في المعارك الجوية القليلة جداً التي وقعت . وباستثناء عدد قليل من الطلعات الخفيفة غير المؤثرة ، لم تظهر القاذفات المصرية في سمـــاء اسرائيل . لقد أسرع سكان اسرائيل عدة مرات إلى المخابىء ، ولكنهم في الحقيقة كانوا مؤمَّنين ضد أي خطر بفضل مظلة جوية ، حافظت عليهم من أهوال القنـــابل والقصف الجوي . وتمت تعبئة مجموعات اخرى من قوات الاحتياط ، دون أي تدخل من الجو . وواصلت الصناعة الاسرائيلية عملهـا دون عائق ، وظلت خطوط الانتـــاج تعمل دون إزعاج . واستمرت المواصلات دون توقف ، سواء في مؤخرة المدينة ، أو بينهـا وبين الجبهة ، وفي الجبهة نفسها . اشتبكت القوات البرية في القتال دون خشية هجمات جوية قاتلة ، بل انها كانت تستطيع

---

* – الوقـائع لم تثبت صحة هذا الادعاء ، والمعروف الآن أن القوة الجوية العراقية وكذلك السورية لم تصابا بأذى محسوس ، ولكن الكاتب يبالغ – كما هو واضح – في اظهار عضلات اسرائيل أمام العالم .

الاعتماد على معونة جوية فعالة ضد أهدافها . وتمت الخدمات الاخرى ، كالنقل والإمداد والتموين والمخابرات والإنقاذ وراء الخطوط والاسعاف ، على أكمل وجه . لقد بلغت القوات الجوية الاسرائيلية أرقاماً قياسية دولية في نجاح عملياتها سواء على مستوى الأداء الفردي أو كقوة كاملة . وشهدت هـــذه الحرب أيضاً أول ظهور على نطاق واسع لطائرات الهيلوكوبتر في الميدان .

ان شبه جزيرة سيناء يمكن أن تكون منطقة فاصلة بين مصر واسرائيل ، ومنصة قفز لهجوم مصري على اسرائيل ؛ ولكنهـــا يمكن أن تكون أيضاً مصيدة للقوات التي تحتشد فيها لمثل هذا الهجوم . ان كل شيء يعتمد على استراتيجية القوات المتصارعة. ومنذ عام ١٩٥٧ ـ عندما انسحبت القوات الاسرائيلية من سيناء وقطاع غزة ـ جرت عمليات إعادة بناء لقوات فلسطينية ـ مصرية في القطاع، ولاستحكامات وقواعد برية وجوية في سيناء، وباستثناء قطاع غزة، لم تركز قوات عسكرية كبيرة في سيناء، التي كانت منطقة فاصلة بين اسرائيل ومصر ، يمكن استخدامها كمنصة قفز في هجوم مصري جديد على اسرائيل أما وقد تمركز في سيناء القدر الأكبر من المدرعات وقوات المشاة المصرية المحشودة للهجوم ، فإنها قد غدت قاعدة ملائمة لجيش غاز لم تشهد الصحراء جيشاً في حجمه من قبل. وهكذا أصبح على قوات الدفاع الاسرائيلية أن تحيل قاعدة الهجوم إلى مصيدة كبرى للجيش المصري .

ولقد أدت المهمة بصورة رائعة الفرق المدرعة الثلاثة التابعة للقيادة الجنوبية . وأصبح الجيش المصري كله عاجزاً عن العمل تماماً . واشترك في العملية إلى جانب هذه الفرق الثلاثة ، مجموعة من المدرعات والمشاة الراكبة والمظليين ، عملت كرأس حربة للهجوم ، تعاونها بصورة فعالة مدفعية متحركة ووحدات جوية وسلاح مهندسين ومختصون في السلاح والذخيرة مدربون على العمل اللصيق مع القوات الزاحفة وخدمات طبية وإسعاف في خط النار نفسه ، وحتى الوحدات الثقافية والترفيهية كانت تتحرك مع الجيش خطوة بخطوة .

ومثلما فعلت القوات الجوية ، عملت القوات البرية الاسرائيلية – وبخاصة المدرعات والمشاة . على تعويض عنصر المفاجأة الاستراتيجية الذي ضاع منها ، بعدد من المفاجئات التكتيكية ومفاجئات العمليات . لقد طبقت الاستراتيجية التقليدية في الاقتراب غير المباشر وفق أصولها تماماً ، باستثناء واحد هو أن عملية الاختراق الرئيسية تمت على ثلاثة محاور مختلفة ، في شمال شبه جزيرة سيناء ووسطها وجنوبها ، قبل الالتفاف والتطويق وإغلاق الممرات الجبلية في المؤخرة على جميع جبهات القتال .

إن المحاور التي تتكون منها الطرق المتوازية من النقب إلى قناة السويس تفصلها عن بعضها أراض بالغة الصعوبة ،

مستحيلة عملياً على المدرعات وغيرها من العربات ، اللهم إلا في بعض النقط . وهذا العامل الجغرافي قد مكن طوابير القوات الاسرائيلية السريعة الحركة من أن تركز على أهدافها الرئيسية لأنه وفر عليها توزيع قوتها بتخصيص بعضها لحراسة أجنحتها. كانت لهم ميزة المبادرة في العمليات ، وكان العامل الجغرافي إلى جـــانبهم ، فهو لم يعفهم فقط من القلق على أجنحتهم ، ولكنه حال أيضاً دون أي اتصال بين خطوط العدو ، الذي كانت وحداته مقطوعة بعضها عن بعض على طول هذه المحاور الثلاثة .

وبقوة اندفاعها الكبير وبطاقة نيرانها الحـــامية المؤثرة وسرعة تقدمها على أرض صعبة – كان بعضهـــا حتى ذلك الوقت يعتبر مستحيل الاجتياز – تمكنت القوات البرية بما لها من معونة جدية ، من تحطيم كل الأرقام القياسية في الوصول إلى الممرات الجبلية عند مؤخرة العدو ، قاطعة بذلك الطريق على تراجعه نحو قناة السويس ومصر ، وجاعلة تحطيم معظم معداته الحربية أو الاستيلاء عليها أمراً لا مفر منـــه ، أي مجتثة جيشه من جذوره .

ولم يكن لقطاع غزة فرصة في الصمود، بعد عملية التدمير السريعة التي لحقت بالتشكيلات المختارة للجيش المصري. ومع ذلك ، فإن تأجيل الهجوم المقرر على الجزء الشمالي من القطاع،

وبخاصة مدينة غزة نفسها ، قد سلب من القوات الاسرائيلية عنصر المفاجأة على المستوى التكتيكي وعلى مستوى العمليات . ولهذا السبب دارت المعركة هناك أعنف مما كان متوقعاً .

لقد كان هذا النصر – مداه والسرعة التي تم بها – متوقعاً حتى أصغر تفصيلاته في خطط هيئة الأركان العامة والقوات الجوية والقيادة الجنوبية وقيادات الفرق . ولعل هـــذا هو الدليل القاطع على كمال التخطيط العام وقدرات القيادة ، التي جعلت هذا النصر ممكناً .

وعندما وصلت القوات الاسرائيلية إلى الشاطىء الشرقي لقناة السويس واستولت عليها ، اهتزت القاهرة خوفاً من ان تعبر هذه القوات القناة وتصل إلى العاصمة نفسها . وكان هذا الخوف هو الذي دفع الحكومة المصرية إلى الموافقة على وقف إطلاق النار يوم ٨ يونيو .

كانت الجبهتان السورية والأردنية تحتلان أهميـة ثانوية في بداية الحرب . ولكن مـــا أن أصيبت القوة الجوية المصرية بالعجز . وفتحت القوات الأردنية ـ السورية أعمـالاً عدوانية ضد اسرائيل ، حتى وجدت القوات الاسرائيلية أن عليها أن تحول اهتمامها إلى هاتين الجبهتين . وأن الانسان ليعجب كيف استطاع الجيش الاسرائيلي أن يشن هجوماً على الأردن وهو

لا يزال يقاتل بضراوة في سيناء.. ألم تكن القوات الاسرائيلية المرابطة على الجبهتين السورية والأردنية أقل كثيراً من أن تحاول مثل هذا الهجوم بأي فرص معقولة للنجاح ؟

لقد كانت قواتنا على هاتين الجبهتين صغيرة حقاً .. أصغر كثيراً من أن تقدر على الدفاع والتكتيكات الدفاعية . كان عليها أن تهاجم. كان عليها أن تدفع العدو إلى موقف الدفاع. إن قلة عددها فرضت عليها استراتيجية هجومية ، لكي تستطيع أن تقلب المائدة على خصمها.. تضع العدو في موقف الدفاع ، تسلب منه مبادرته ، تحطم خطوط دفاعه وبنيانه العسكري ،تقوض قوته العسكرية أو تدمرها تماماً إن أمكن، ترغمه على التراجع إلى خط ذي قيمة جغرافية (نهر الأردن) وتقضي على رغبته في مواصلة القتال . وطوال الوقت كانت هناك بطبيعة الحال القوة الجوية الظافرة ، جاهزة للعمل في أي جبهة ، كنوع من الاحتياطي الكبير .

دفع الأردنيون مدرعاتهم بسرعة إلى الضفة الغربية . وبدأت مدفعيتهم قصفاً دون تمييز للقدس العربية . وفي الخامس من يونيو احتلت القوات الأردنية بيت الحكومة في القدس الذي كانت الأمم المتحدة تتخذه مقراً لها ، كما أطبقت هذه القوات على جبل المكبر . وأخذت المدفعية الأردنية البعيدة المدى تطلق قذائفها من مواقع قلقيلية على المدن الساحلية

الاسرائيلية . وكان لدينا من الأسباب ما يجعلنا نخشى أن تفتح مدفعية جنين نيرانها على قاعدتنا الجوية في رامات دافيد . وجاء بعض رجال الكوماندوز المصريون إلى اللطرون ليقوموا بهجمات على السهل الساحلي .

كان واضحاً ان المملكة الأردنية قد شاركت بكل قلبها في الحرب ضد اسرائيل . وعند ذلك أخذ الجيش الاسرائيلي المبادرة على الجبهة الأردنية ، بصورة محلية في أول الأمر . ثم بصورة شاملة . بدأ بسلسلة من الهجمات المضادة المحدودة ، التي تطورت إلى هجوم مضاد كبير . كانت العمليات تتم بصورة مشتركة ، بقوات مدرعة ومشاة ومظليين ، تعمل كقوة مشاة لتلقي الصدمة الأولى حيثما يشتد القتال ، كما حدث في القدس الشرقية . وبحركة كماشة كبرى على طول حافة الجبل ، أصبح لاسرائيل السيطرة – في ٧ يونيو – على جميع المناطق التي كانت تحتلها الأردن على الضفة القريبة لنهر الأردن . وكانت القدس هي الرأس والتاج .. القدس موحدة من جديد ، المدينة القديمة داخل أسوارها ، بكل ما تضمنه هذه الأسوار من قيم غالية لا تقدر بثمن .. تعود إلى الشعب اليهودي .

وعلى الجبهة السورية ، لم يبدُ أن هناك مبادرة اسرائيلية في الطريق . ولم تأت على الإطلاق تقريباً . كان السوريون يضعون مدفعية ثقيلة ويقصفون منها بصورة متواصلة

المستعمرات الاسرائيلية في وادي الحولة ووادي الأردن ، كما حاولوا القيام بعملية اختراق مدرعة وغزو للجليل الأعلى . ومع ذلك فقد بقيت اسرائيل على استراتيجية دفاعية في هذه الجبهة في الأيام القليلة الأولى، رغم ان قواتها المسلحة هناك كانت قادرة تماماً – كما أثبتت بعد ذلك بقليل – على طرد السوريين من مرتفعات الجولان .

لقد حدث هذا التأجيل الخطر بسبب التردد السياسي . كانت هناك مبالغة في القوة السورية ؛ ولم يكن متوقعاً أن يوافق المصريون على وقف إطلاق النار بمثل هذه السرعة ؛ وكان يخشى أن يؤدي الاشتباك مع سوريا – التي كان الحكم فيها موضع تفضيل خاص من جانب السوفييت – إلى جر الاتحاد السوفييتي إلى الحرب ، أو على الأقل إلى نوع أعنف من الضغط . وفي تقديري ، إنه كان على اسرائيل أن تهاجم على الجبهة السورية . بمجرد انتهاء قواتها الجوية من إخراج القوات الجوية العربية من المعركة ، بما فيها القوات الجوية السورية . كان يجب القيام بمجهود في ذلك الوقت لإنزال السوريين من على الهضبة وسحق قواتهم المدرعة وإرغام الباقي منها على إعادة توزيع نفسها ، في وضع دفاعي عن دمشق ، واحتلال جنوبي سوريا كله .

ولو أن ذلك قد تم في وقته المناسب ، لتحقق لنا هدف سياسي كبير القيمة ، فضلاً عما فيه من مكاسب أخرى جلية . كانت القوات الاسرائيلية تستطيع أن تقيم اتصالاً مباشراً مع

الشعب الدرزي ـ الذي خضع طويلاً لقهر دمشق ـ وتساعد على إقامـــة كيان سياسي درزي .. دولة الدروز المستقلة . وقياساً على خبرة اسرائيل مع مواطنيها الدروز ، الذين قبلوا بكل نية صادقة التجنيد في قوات اسرائيل، وشاركوا بمحض اختيارهم وفي أعداد كبيرة في قوة شرطة الحدود الباسلة ، وحافظوا على أكثر العـــلاقات وداً مع اخوانهم المواطنين اليهود .. يكون من المعقول أن نفترض ان مثل هذه العلاقات كان يمكن أن تقوم مع المجتمعات الدرزية خارج اسرائيل . ان دولة درزية كان يمكن بهذا الشكل أن تقوم كدولة فاصلة صديقة بين اسرائيل وكل من سوريا والأردن ، وتساهم بذلك كثيراً في استقرار المنطقة* .

لقد ضاعت هـذه الفرصة وغيرها نتيجة للتردد الذي لا موجب له والذي كان من الممكن تجنبه . لقد تأجل الهجوم الاسرائيلي حتى فات الأوان تقريباً .. عندما وافقت دمشق ظاهرياً على دعوة مجلس الأمن بوقف اطلاق النـــار . ولكن موافقة سوريا على وقف اطلاق النار لم توقف نيران مدفعيتها الموجهة ضد المستعمرات الاسرائيلية ، التي استمرت دون توقف . وهكذا سنحت لاسرائيل فرصة أخرى وربما أخيرة

* ـ ان أحلام العدو الاسرائيلي واضحة في ضرب وحدة الشعب العربي، وفي تحقيق الأهداف الامبريالية القديمة ، ويبدو مع كل خبرة العدو انــه لا يعرف الأمة العربية على حقيقتها ، وانه لا يعرف أن الدروز في سوريا هم في طليعة المناضلين من أجل حرية سوريا . وأما زعم العدو بتعاون الدروز معه فهو طموح مريض يريد تحقيقه لبث السموم في نفسية الأمة العربية .

من الناحية السياسية ، لإبعـــاد السوط للسوري الذي يلهب ظهرها ، عن معقله الحصين فوق المرتفعات . ومن هذا الموقع كانت المستعمرات الاسرائيلية في وادي الحولة ووادي الأردن تلقى الازعاج دون احترام أو مراعاة لإتفاقيات الهدنة السابقة أو لوقف إطلاق النار في اليوم الرابع للحرب . وفي هجوم على الجبهة وعلى مواقعهـــا الحصينة في العمق ، بدأت قوات مدرعة مركزة ومشاة ميكانيكية يعززهما الطيران ، الزحف في أراضٍ جبلية ، كان الاعتقاد من قبل أن الدبابات لا تستطيع السير فيها . وخلال يومين فقط ، كانت الجبهة السورية كلهـا قد انكسرت ، وتم الانسحاب السوري الكامـــل . وأدى قرار آخر لمجلس الأمن بوقف إطلاق النار إلى وضع نهاية للقتال في مساء العاشر من يونيو .

حققت اسرائيل ، التي كانت تقاتل من أجل بقائها، نصراً عبقرياً حاسماً . ورغم أنها من ناحيـــة العمليات انتهجت استراتيجية هجومية ؛ فإن حرب الأيام الستة تعتبر نموذجـاً رائعاً لحرب دفاع عن النفس قل أن يوجـــد مثله في التاريخ المعروف للجنس البشري .

إن الزعامات العربية ، والمصرية بصفة خاصـــة ، لم تدع للعالم هذه المرة أدنى شك بالنسبة لنواياها .. انها كانت ترمي إلى تدمير اسرائيل تدميراً تاماً . ولا بد أنهم أسفوا بعد ذلك

للنجاح الظاهري لدعاية (الجهاد) والحرب المقدسة التي قاموا بها قبل الحرب . ان معظم دول العالم –بطبيعة الحال فيما عدا أولئك الذين تمنعهم أحقـــادهم وسوء نواياهم من الحكم غير المتحيز – قد أظهرت فهماً وتعاطفـــاً مع نضال اسرائيل البطولي . لقد ازدادت مكانتها ارتفاعاً إزاء حقيقة أنهـــا أنجزت المهمة الكبرى وحدها ودون مساعدة . أما محـــاولة الدول العربية لتبرير هزيمتها بالادعاء بأنه كان هناك تدخل جوي بريطاني ، أمريكي – كما لو كانت الهزيمة على يد الانجلوسكسون أقل مهانة من الهزيمة أمام الاسرائيليين – فقد رفضهـــا العالم .

كانت حرب الأيام الستة برهاناً قاطعاً على عدد من المواقف الأساسية التي ناديت بها طوال الفترة السابقة عليها .

١ – ان اسرائيل لا يمكن أن تتهم بالانعزالية . لقـــد خلقت لنفسها أصدقاء في جميع أنحـــاء العالم واستمدت منهم – كما قدمت لغيرهم – تأييداً سياسيـــاً ومعونة اقتصادية وامدادات عسكرية . ولكن اسرائيل وجدت أنـــه كملجأ أخير ، سيكون عليها أن تعتمد على نفسها فقط في حربها من أجل البقاء . وحتى ذلك التعهد المحدود الذي قدمته الدول البحرية عام ١٩٥٧ بضمان حرية الملاحة في مضائق تيران ، قد أثبتت عدم قدرتـــه على التحقيق . وقوة الطوارىء التي وضعها مجلس الأمن على الأرض المصرية لحفظ الســـلام تبخرت

في الهواء خلال ساعات قليلة . كان الهدف الأدبي واضحاً . اننا لا نستطيع أن نضع ثقتنا في أي ضمانات عسكرية . علينا أن نبني قوة عسكرية تمكننا من الاعتماد على قوانا الذاتية في الدفاع عن بلادنا دون أي معونة من الخارج . وذلك فضلاً - كما أسلفت - عن أن الاعتماد العسكري على دولة أجنبية يؤدي إلى الاعتماد عليها سياسياً ، وأي دولة كبرى تضمن بقاءنا قد يغريها ذلك بأن تفرض علينا حلاً سياسياً للمسألة الفلسطينية مرفوضاً منا تماماً . ولذا جاء وقت الأزمة ، فإن الدولة الضامنة قد لا تتفق معنا بالضرورة في تقييمنا للموقف؛ وحتى لو اتفقت ، ومع أطيب نواياها ، فإن مساعدتها قد تأتي بعد فوات الأوان . وبناء على ذلك ، فقد حاربنا هذه المرة وحدنا ، متفادين الخطأ الذي ارتكبناه عام ١٩٥٦ ، وكانت النتيجة مكاسب سياسية ضخمة حققناها مع نصرنا العسكري . الأمر الذي يختلف تماماً مع موقفنا بعد حرب سيناء عام ١٩٥٦ ، عندما كان لدينا التأييد العسكري البريطاني الفرنسي ، ولكننا خسرنا الكثير على الصعيد السياسي ، مما كان له على المدى الطويل ، آثار مفجعة على أمننا وأمن الشرق الأوسط كله .

٢ - إن حرب الأيام الستة لم تكن مجرد حرب بين جيشين وأمتين .. لقد كانت صداماً بين نظامين اجتماعيين وسياسيين متناقضين . كانت مواجهة بين

ديمقراطية اجتماعية وسياسية مع ديكتاتورية عسكرية تمارس حكمها السياسي التحكمي على مجتمع متخلف بصورة تدعو إلى الشفقة. لقد فازت الديمقراطية بالنصر .. وقد أثبت ذلك صحة دعوانا ضد المتشائمين الذين كانوا يصرون على أن الوقت ضدنا. لقد أثبتت اسرائيل عام ١٩٦٧ – حتى بأكثر مما أثبتت عامي ١٩٤٨ و ١٩٥٦ – أنها أقوى من جميع الجيوش العربية معاً. ويرجع ذلك، في المقام الأول، إلى أن المجتمع العربي – بصرف النظر عن التقدم الذي أحرزه – لم يتقدم بعد التقدم الكافي في الميدان الحيوي للتكنولوجيا الحربية. ونتيجة لذلك فإن الجيوش العربية في غالبيتها لم تكن قادرة على أن تستخدم بفاعلية الأسلحة البالغة الرقي والحديثة جداً التي زودت بها. إن الجنود العرب – وهم ليسوا بأي حال جبناء أو غير قادرين – قد فشلوا فشلاً كاملاً في المهام المنوطة بهم، فقد كانت بعيدة عن مستوياتهم وقدراتهم الاجتماعية. وفضلاً عن ذلك، لم يكن هناك وحدة عربية بعد. إن الدول العربية ظلت غير قادرة على العمل معاً. وحتى داخل كل دولة لم يكن هناك أي نوع من الوفاق الاجتماعي أو الشعور بالوحدة الوطنية. إن المزاج السائد في هذه الدول هو الزيف والكذب. الحكام يكذب بعضهم على بعض. الوزراء يرسمون لإسقاط زملائهم. الضباط يخدعون رؤساءهم، والجنود يخدعون

ضباطهم . وأكبر رجال في الدولة لا يستطيعون أن يكونوا شرفاء مع بعضهم .. أو حتى مع أنفسهم .

وفي مقابل ذلك ، كانت اسرائيل نموذجاً للانسجام والمدنية... متحدة بالضرورة رغم معاركها الداخلية الضارية، متحدة الفكر في سعيها نحو هدف البقاء المشترك ؛ يساعدها ويدعمها التضامن اليهودي في جميع أنحاء العالم وتعاطف الرأي العام العالمي معها . وبهذا الشكل انتصرت الديمقراطية على الاستبداد ، وأثبت الكيف – في الفرد والمجتمع – تفوقه على مجرد الكم .

٣ – أثبتت حرب الأيام الستة أيضاً أن نظرية الهجوم المضاد المسبق تضمن بفاعلية بقاء هذه الدولة وبقاء اليهود كأمة . ولأن اسرائيل سلبت المبادرة من يد العدو ، فقد أحرزت النصر وأنقذت نفسها من الدمار . لقد تعلمت الآن وإلى الأبد ، أنها في أي حرب مع أعدائها العرب ، ليس أمامها خيار سوى أن تمسك زمام المبادرة ، وترفض بحزم فكرة الدفاع السلبي . لقد تعلمت أيضاً انه في مثل هذه الظروف سيكون من المعترف به بصفة عامة ان المبادرة المسبقة ليس عملاً من أعمال العدوان .

٤ – إن الشجاعة والبطولة اللتين أبداهما القواد والجنود على السواء في حرب الأيام الستة قد عرفا على نطاق واسع

الآن . لقد كانت هناك إحدى وخمسين قصة (في حرب دامت ستة أيام فقط) من قصص البطولات النادرة والشجاعة والتضحية بالنفس، كان أبطالها جنود أفراد يستحقون عليها - كما يقول المعلقون الأجانب - صليب فكتوريا لو كانوا في بريطانيا وميدالية الشرف لو كانوا في أمريكا [٥] . وإذا كنا نتحدث دون غرور، ولكن أيضاً دون تواضع زائف، يمكن أن نقول إن ذلك ليس جديداً على تاريخ اليهود . إن المرء ليذكر مقاومتهم الشرسة للحكم الروماني منذ حوالي ألفي عام؛ وكيف انهم في العصور الوسطى كانوا يفضلوا أن يحرقوا في الأفران على أن ينكروا ربهم . وكيف صمدوا رغم المصاعب التي لا توصف أمام هجمات صيادي اليهود المسيحيين في عصور الاضطهاد . وفي زمان قريب، يستطيع الانسان أن يروي نماذج الشجاعة الرائدة وقوة الاحتمال لدى أوائل المستوطنين اليهود في فلسطين؛ والمقاومة البطولية - دون أمل - لمحاربي الأحياء اليهودية ضد الإرهاب النازي؛ وبسالة القوات اليهودية السرية وتضحيتها بالنفس في فلسطين الانتداب دفاعاً عن الاستقلال، وأول جنود للدولة اليهودية ذات السيادة نضالاً من أجل بقاء وطنهم القومي في حرب التحرير . إن التاريخ اليهودي بحق، كما قال المؤرخ نامير، ليس تاريخاً ولكنه سجل شهداء . وربما يكون نامير قد نسي، أن الشهداء كانوا دائماً محاربين . وهذا المزيج المميز من روح القتال التي لا

تخبو لليهود وقدرتهم على الاستشهاد والتضحية بالنفس ، هو الذي تمثل بصورة لا تنسى في حرب الأيام الستة .

٥ - رغم كل شيء ، فإن أعمال البطولة والشجاعة الفردية - وسيكون الأبطال أول من يوافق - ما هي إلا جانب واحد من إنجازات المنتصر النهائي المجيد ، جيش الدفاع الاسرائيلي في مجموعة (زاحال) . ان ملامحه المميزة ، التي ذكرتها من قبل في هذا الكتاب ، قد أثبتت قيمتها بطريقة جوهرية في حرب الأيام الستة . ان (زاحال) يدين بأعماله اللامعة للذكاء الذي لا مثيل له والتخطيط المحكم لهيئة أركانه العامة ؛ ولنوعية القيادة على جميع المستويات ؛ ولامتياز جهاز مخابراته ؛ ولروعة نظمه الادارية ، وللأسلوب السلس الموفر للجهد الذي تسير عليه سائر خدماته الحيوية . لقد استطاع الجنرال إسحق رابين رئيس هيئة الأركان في حرب الأيام الستة . أن يقول في فخر له ما يبرره .. « في هذه الحرب لا توجد وحدة واحدة لم تحقق هدفها المرسوم » .

٦ - ان دولة اسرائيل قد أصبحت منذ إنشائها أقوى عنصر في الشرق الأوسط ، اجتماعياً وعسكرياً على السواء . وقد أكدت حرب الأيام الستة ذلك تأكيداً قاطعاً . أن ديناميكية اسرائيل واتساع أفقها قد تم التعبير عنهما الآن كما لم يحدث من قبل ، وهي واضحة للعالم أجمع ، يستطيع أن يراها ويحكم على قيمتها الحقيقية .

الفصل السادس

منذ يونيو ١٩٦٧

أكتب هذا الفصل في أغسطس ١٩٦٩ ، بعد حرب الأيام الستة بأكثر من عامين . ونتيجة لهذه الحرب ، حسنت قيادة قوات الدفاع الاسرائيلية من الحدود الاستراتيجية للبلاد .. أصبح لها وضع طبوغرافي أفضل ، وعمق استراتيجي أكبر ، ونظام أكثر كفاءة للانذار المبكر ضد طائرات العدو المقتربة. وستبذل اسرائيل كل ما في وسعها للتوصل إلى حدود نهائية تضمن السلام مع الأمن . ومع ذلك، فإنه رغم رغبة اسرائيل الحارة في السلام ، لا توجد أي بادرة عليه بعد . وعلى العكس من ذلك ، أصر زعماء الدول العربية – في تسرع محموم – على الالتقاء في مؤتمر القمة العربي بالخرطوم عام ١٩٦٧ على ثلاثة تعهدات .. « لا اعتراف باسرائيل ، ولا تفاوض ولا صلح معها » . وأضافت مصر بعد ذلك المزيد من التعهدات العلنية، مثال ذلك .. « ان ما اخذ بالقوة سيرد بالقوة » ، كما وعدت

« بتصفية آثار العدوان الاسرائيلي إما بالوسائل السياسية أو العسكرية » ، وذهبت إلى أكثر من ذلك ، حيث تعهدت « بإعادة الأرض المحتلة إلى الشعب الفلسطيني » . وفي كل هذه البيانات ، تتجاهل مصر تماماً مسئوليتها في نشوب حرب الأيام الستة وحقوق اسرائيل القومية والدولية .

ويقترن تهديد الحكومات العربية بتجديد الحرب — رغم موافقتها على ترتيبات وقف اطلاق النار التي وضعها مجلس الأمن في يونيو ١٩٦٧ - اندفاع كبير نحو إعادة تسليح جيوشهم ورد الاعتبار . في أوائل عام ١٩٦٩ وبفضل إمدادات سخية من الاتحاد السوفييتي ، كانت المدرعات المصرية قد استردت ما كان لها من قوة عشية حرب الأيام الستة ، وأصبحت قوتها الجوية أقوى مما كانت بنسبة خمسين في المائة . وفي عام ١٩٧٠ ستصل قوة مدرعاتها إلى حوالي مائة وخمسين في المائة وسلاحها الجوي إلى حوالي مائتين من قوتها قبل الحرب ، وذلك غير الفروع الأخرى من قواتها المسلحة . والمنظمات الفدائية العديدة تتلقى معونات مباشرة وغير مباشرة من جميع الدول العربية ، التي تزودهم بالأسلحة وتمنحهم التأييد المعنوي والسياسي وتسمح لهم بالتدريب في أراضيها واتخاذها قواعد لهم ، يمارسون عملياتهم منها . وغالباً ما تقدم الجيوش النظامية العربية المساعدات لهذه المنظمات من نواحي الامداد والتموين وتوفر لوحداتها غطاء النيران أثناء عملياتها ضد

اسرائيل . وفضلاً عن ذلك ، فإن الجيوش العربية نفسها - وبخاصة جيوش مصر والاردن والعراق وسوريا - تنتهك بصورة منتظمة اتفاقيات وقف اطلاق النار ؛ بفتح نيرانها على القوات أو القرى الاسرائيلية ، وبعبور خطوط وقف إطلاق النار ، وأحياناً بالغارات الجوية . ونتيجة لذلك وصل نظام وقف اطلاق النار كله إلى شفا الانهيار .

يبدو أن التاريخ يعيد نفسه . ويبدو أن الزعماء السياسيين والقادة العسكريين للدول العربية لم يتعلموا الدرس من هزائمهم. انهم لم ينجحوا في التخلص من تقديرهم الخاطىء للموقف، الذي هو من صفاتهم الثابتة . إن الأوهام لا تزال محلقة فوق مكاتب رئاسة الوزارة بالدول العربية وهيئات أركان حربها* .

وليس معنى ذلك بالضرورة أن حرباً أخرى لا يمكن تجنبها . ان هذه الحرب تبدو احتمالاً يتزايد شهراً بعد شهر . وحتى إذا افترضنا أن العرب لا هدف لهم من إعادة التسليح والاستفزازات الموجهة ضد اسرائيل سوى تدعيم أنظمة حكمهم ورفع معنويات شعوبهم وجيوشهم وتحسين موقفهم في التفاوض، فإنه من المؤكد أن بعض دوافع عدوانهم السابق لا زالت تحركهم . وهذه الدوافع تشمل كرههم للأجانب وتعصبهم الديني ؛ والتنافس بينهم على زعامة العالم العربي ؛ والرغبة في

* - لا يقدر العدو كما هو ظاهر هنا العوامل التاريخية التي تحرك القيادات العربية ، ويتغاضى عن الحقيقة الساطعة من ان الامة العربية هي الحافز للقيادات للتهيئة لحرب الشرف القادمة ، كما ان العدو وهو يخاطب الغرب يحاول إنكار التصميم النضالي للامة العربية ويصفها بالأوهام .

تحويل انتباه الجماهير العربية عن بؤسها الاجتماعي والاقتصادي إلى « عدو » خارجي ؛ والحرص على القضـــاء على النموذج الوحيد الديمقراطية الاجتماعية والسياسية بالشرق الأوسط* ، الذي تمثله اسرائيل، خشية انتشار هذا النظام . وقد ازدادت هذه الدوافع بشعور المهانة الذي يعانيه العرب ورغبتهم في الانتقام لهزيمة عام ١٩٦٧ .. ثالث هزائمهم في تسعة عشر عاماً . وهي رغبة يزيد من خطورتها ويشجعها التنافس غير المسئول بين الدول الكبرى على كسب مشاعر العرب وسياسة التهدءة التي يتبعونهـــا إزاءهم وما يزودونهم به من أسلحة . وليس هناك شك أنه إذا أحس الزعماء العرب انهم قد أصبحوا من القوة ، أو ان هناك فرصاً معقولة لهم (خطأ أو صواباً) بحيث يحققون نصراً ولو جزئياً يؤدي إلى شيء من التغيير من (الوضع الراهن) الاقليمي .. لجربوا حظهم في الحرب مرة أخرى .

أما سياسة اسرائيل فقد بقيت كما هي دون أي تغيير .. انهـا تريد معاهدات صلح وترتيبات فعالة للأمن مع كل دولة عربية على حدة أو مع الدول العربية جميعاً معاً ، حسب مـا تسمح به ظروف الوقت . ان السلام الدائم مع الدول العربية أحد المبادىء الأساسية لسياسة اسرائيل القومية . إنهـــا لم

* – طبعاً هذا الكلام يمثل نوعاً من الكذب الواضح على العقل الغربي وهو يحاول إنكار حقيقة مشاعر الامة العربية نحو اسرائيل وما تمثله من عدوان على حقها ووجودها ومصيرها ..

تتطلع في الماضي ، ولا تتطلع الآن ، إلى المزيد من النصر العسكري . كما أنها لن تستخدم الوسائل الحربية لبلوغ أي هدف سياسي كان ، ولا ذلك الهدف الحيوي العظيم .. تحقيق السلام . ان هناك أعتراضات أدبية كثيرة على ذلك ، ولكن هناك أيضاً اعتبارات عملية تحول دونه ، فأنا لا أعتقد أن صلحاً مفروضاً يمكن أن يكون صلحاً دائماً . ومن ناحية اخرى ، فإنه عندما تفرض حرب على اسرائيل ، وعندما يخلق انتصارها في هذه الحرب ظروفاً استراتيجية واقليمية وسياسية جديدة ، يكون من المعقول طبعاً ، أن يبذل جهد خاص للوصول إلى حل سياسي دائم ، عن طريق استخدام حكيم ومسئول لنتائج هذا النصر العسكري .

لقد آمنت على الدوام بكلمة فيلسوف الحرب الصيني القديم صان شو . . « ان نظرية الحرب تعلمنا ألا نعتمد على احتمال ان العدو لن يُقدم ، ولكن على الاستعداد لملاقاته ؛ وعدم الاعتماد على انه قد لا يهاجم ، ولكن على مناعة مواقعنا » .

وهكذا كان على اسرائيل طوال الفترة من يونيو ١٩٦٧ أن تمضي جنباً إلى جنب مع عدوها في سباق التسلح ، من ناحية الكيف على الأقل . كما أنها وجهت جهوداً أكبر من أي جهود بذلتها من قبل ، لتحصين جبهتها الداخلية .. بالمعنيين اللذين ينطوي عليهما هذا التعبير . ان المحافظة على توازن مقنع للقوى ، هو أحد الوسائل الرئيسية لتفادي قيام حرب كبرى

جديدة ، كما أنه ضمان لهزيمة العدو إذا هو فرضها على اسرائيل .

ان رغبة اسرائيل في السلام (التي يمكن اختبارها على مائدة المفاوضات) وتصميمها على الحياة (الذي اختبر ثلاث مرات على أرض المعركة) يجعلان من اللازم عليها أن تنتهج سياستين متكاملتين في وقت واحد . فهي تعمل للسلام وكأن السلام قريب المنال ، ولا تدخر جهداً في العمل على اقامة اتصال - علني وسري - مع العناصر ذات الأفكار المشابهة في الدول العربية ؛ وفي الوقت ذاته تدعم قوتها العسكرية وتحافظ على حالة دائمة من الاستعداد الحربي وكأن الحرب آتية لا ريب . إن وحدة مجتمع اسرائيل واستقراره وأخذه بالأسلوب العقلي أساساً ، تمكن الحكومة من اتباع السبيلين في وقت واحد ، ودون تعارض . وبفضل هذا المزيج الواسع التصور والواقعي من السياسات ، لا يحتمل كثيراً أن تفوت اسرائيل أي فرصة هامة للعمل من أجل السلام مع تلك الدوائر العربية التي تنشده ، واثقة في نفس الوقت انها لن تؤخذ بالمفاجأة في ساحة القتال .

ان اسرائيل تؤمن ان نمو الثقة المتبادلة بينها وبين جيرانها (أعداء اليوم وربما حلفاء الغد*) ليس أقل أهمية من الحدود الاستراتيجية . ولكنها بعد عشرين عاماً من العداوة المريرة

---

* - أحلام اسرائيل ؟؟

من جانب الحكام العرب ، غرسوا خلالهـــا عمداً في قلوب الأجيال العربية الشابة كراهية اليهود واسرائيل ، لا تستطيع أن تعتمد على معجزة من تغيير القلوب .

وعلى ذلك. فإنه بالإضافة إلى ما يجب عليها بذله من جهود واعية وملحة لتحقيق درجة أكبر من الفهم والثقة معهم ، يجب عليها أيضاً أن تصر على معاهدات صلح تعاقدية كاملة ، تصحبها ترتيبات أمن تغرس غرساً في حدود آمنة . ان الترتيبات الوقتية في الماضي قد قادتنا من حرب إلى حرب . ولأن اسرائيل تريد أن تكون حرب الأيام الستة هي آخر حروبها مع العرب ، فانها لن تقبل أي تسوية مؤقتة كبديل للسلام الحقيقي . وهي لذلك مصممة على أن يتم الانتقال من اتفاقيات وقف اطـــلاق إلى معاهدات صلح كاملة في خطوة واحدة ، حتى ولو كان عليها أن تنتظر عشرات السنين . وفي الوقت ذاته ، فإن اسرائيل ستحترم اتفاقيات وقف اطلاق النار على أساس التبادل إلى أن تحل محلها معاهدات الصلح ، وستحترم خطوط وقف اطلاق النار حتى تقوم حدود سياسية دائمة وآمنة ومعترف بها .

ونظراً لمركزي الحـالي في الحكومة الاسرائيلية ، فانني لا أستطيع أن أرسم بالتفصيل خارطة اسرائيل المستقبلة، التي تكفل لها أكبر قدر ممكن من الأمن مع أقل مشاكل سياسية

ممكنة ، والتي تتوافق مع الرابطة التاريخية بين الشعب اليهودي وأرض اسرائيل . ولذا فانني سأقتصر على شرح بعض (المعادلات الجبرية) .

إن للرابطة التاريخية أهمية رئيسية . إنها الأساس نفسه لكل الحركة الصهيونية العالمية ولمولد الشعب اليهودي من جديد كأمة في وطنهـا القومي بعد تسعة عشر قرناً من المنفى والتشتت .

إنها الأساس المعنوي والسياسي لضم مناطق جديدة إلى سيادة اسرائيل .. استجابة لأقدم الاحتياجات الروحية للشعب اليهودي ، ولأهداف استراتيجية وسياسية حيوية . كما أنها أساس صميم حق دولة اسرائيل في البقـاء داخل أي حدود .. وهو حق ينكره عليها أعداؤها ، ولا يتوانون عن التعدي عليه بالوسائل العسكرية والسياسية . وعلى ذلك فانه إذا وافقت اسرائيل على أية تنازلات اقليمية في مقابل السلام الدائم ، فهي لا تفعل ذلك تخلياً منها عن روابطها التاريخية مع الأرض ، ولكن رغماً عن هذه الروابط التاريخية ،وحرصاً على عقد صلح مع العرب .. وهو إنجاز تاريخي .

وعلى أية حال ، فإن هذا الكتاب يعنى أساساً بتطور نظرية الدفاع الاسرائيلية ، لا بالتحليل التاريخي – القومي .

ولذا فإني أعود إلى الاعتبارات الاستراتيجيـة ، وأقول .. انني أولاً لا أوافق على كلا وجهتي النظر المتطرفتين اللتين يعتنقهما بعض الناس في بلادي . إن إحداهما تصر على ـ سواء على أسس تاريخية أو استراتيجية ـ أنه يجب على اسرائيل ألا تتخلى عن بوصة واحدة من الأرض حتى لو كان ذلك مقابل صلح دائم . وتقول الاخرى أنه يجب على اسرائيل (باستثناء القدس الموحدة) ألا تضم إليهـا أية مناطق كبيرة حتى ولو كانت مطلوبة للأمن .. وذلك إما على أساس أدبي في رفض التوسع ، أو خشية أن يؤدي ذلك إلى وضع حد لاحتمالات السلام . ورغم رفضي لكلا الموقفين ، فإنني سأتناول نقطة واحدة كمثال .

ان خطوط الهدنة التي تقررت في اتفاقيات عـام ١٩٤٩ لا يمكن أن تكون حدود دائمة . إنها في غالبيتها خاوية من أي قيمة استراتيجية ، وعودة اسرائيل إليها تعني عودتها إلى مصيدة موت استراتيجية محتملة . إن الانسحاب إلى خطوط الهدنة قد يغري العرب بعمل هجومي جديد ، يتضمن جهداً مجدداً لمحو اسرائيل من على خارطة العالم . ان خطوط الهدنة في معظم أجزائها لا تصلح بالتأكيد كنقطة بداية لرسم حدود آمنة .. لقد كانت دائمة مؤقتة ، وكان العرب أنفسهم هم الذين حرصوا طوال السنين من ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧ على اقناع الرأي

العام العالمي بالطابع المؤقت لهذه الحدود ، خشية أن يعتبرها العالم حدوداً دائمة. ان اتفاقيات الهدنة وما حددته من خطوط ، قد نسخها العرب من جانب واحد عام ١٩٦٧ . ان هذه الخطوط لم يعد لها وجود . لقد اكتسحتها دماء الآلاف من اليهود الذين ماتوا ليضمنوا حياة أمتهم . لم يعد لهذه الخطوط أي قيمة من وجهة النظر الأدبية أو من وجهة نظر القانون الدولي ، أو من الناحية الاستراتيجية بطبيعة الحـال . ومن رأيي أنه في إطار مفاوضات مباشرة فقط ، يمكن الوصول إلى حل وسط إقليمي ، يكفل لاسرائيل وضعاً استراتيجياً متيناً ويراعي في الوقت ذاته الآمال العربية المعقولة، فيما يتعلق بالأرض والسكان والروابط القومية والدينية .

وعندما تتقرر حدود اسرائيل السياسية ، يجب أن تكون حدوداً آمنة من الناحية الاستراتيجية . ومعنى ذلك انهـا يجب أن تكون قائمة على أساس وضع طبوغرافي سليم يتكون من عوائق طبيعية قادرة – إذا أحسن الدفاع عنهـا – على مقاومة جيش بري حديث ، وملائمة لشن هجوم مضاد كبير . إنها يجب أن تعطي البلاد عمقاً يحول دون خلق (أمر واقع) حربي بواسطة جيوش أو طائرات أو صواريخ معادية . ويجب أن يكون لدى اسرائيل نظام بالغ الرقي للانذار المبكر ضد اقتراب الطائرات المعادية . ان هذه الاعتبارات جميعاً تؤكد

الحاجة إلى حدود مختلفة عن خطوط هدنة ١٩٤٩ ... وإن لم يكن من الضروري أن تكون مطابقة في جميع أجزائهـــا لخطوط وقف اطلاق النار الحالية . وإنني عن نفسي أقول ، انه إذا كان لي أن أختار بين إبقاء خطوط وقف اطلاق النار الحالية – بكل ما لها من مزايا استراتيجية – دون سلام ، وبين حدود أخرى آمنة مع السلام .. لاخترت الأخيرة .

ان بعض الناس يتساءلون عن القيمة الحقيقية لحدود تقوم على أساس الموانع الطبوغرافية والعمق الاستراتيجي في زمن الصواريخ العابرة للقارات والتي تطلق من البر ومن البحر إلى الأرض وقاذفات القنابل بعيدة المدى . حقيقة ان المدفعية والصواريخ وقاذفات القنابل (إذا كنا نتحدث عن الأسلحة التقليدية وحدها) تستطيع أن تنزل دماراً واسعاً . ولكن هذه الأسلحة وحدها لا يمكنها أن تخضع شعباً شجاعاً يقاتل من أجل بقائه وحريته . ان ضرب الالمان للجزر البريطانية بالقنابل بعنف أثناء الحرب العالمية الثانية لم يخضع بريطانيا . والقصف الجوى الأمريكي الشديد لفيتنام الشمالية لم يحطم إصرار شعبها على القتال . ان الانسان يخرج من ذلك بأن الحرب بين طرفين تنتهي في حالة واحدة فقط .. إذا تم احتلال أرض أحد الطرفين وتحطمت مقاومة شعبه وجيشه ، أمام قوات الطرف الآخر ، سواء جاءت من البر أو البحر أو الجو . وذلك بطبيعة الحال ما لم تنته بتسوية سلمية .

ان التوسع في طاقـــة النيران وسرعة تحرك المدرعات والمشاة الراكبة والمدفعية المتنقلة ، وكذلك تحسين الأساليب الهندسية للتغلب على العوائق الطبيعية والاستحكامات ، لا يغني عن الدفاع الثابت ولا يقلل من أهميته . وعلى العكس ، فإنه كلما زاد العدو من قدرته على الحركة وطاقته الهجومية ، كلما ازدادت الحاجة إلى توزيع للقوات أكثر إحكاماً كاجراء مضاد .. بتقوية نظام الدفاع لجعله صعب الاختراق على جيش ميكانيكي ؛ وزيادة قدرة الهجوم العام والمحلي بوضع القوات في مواقع مناسبة والارتفاع بمستوى مهارة العمليات . ان طبوغرافية اسرائيل الحاليـــة ، بعد يونيو ١٩٦٧ تجعل من الممكن وضع حدود طبيعية يتكون منها « حائط دفاعي » يمكن أن يكون عاملاً رادعاً بذاته ، أو يحسن على الأقل من قدرة اسرائيل الدفاعية بدرجة كبيرة . وعليه ، فإنه في ظل الظروف الجغرافية ـ السياسيـة والجغرافية ـ الاستراتيجية السائدة في الشرق الأوسط ، لا يوجد بديل عن الحدود الآمنة استراتيجياً . وإذا كانت اسرائيل تريد أن تبقى ، فعليها أن تطالب بحدود آمنة في المناطق التي جعلتها قبل يونيو ١٩٦٧ معرضة للخطر بصورة يائسة . ان الحدود الآمنة دون سلام أفضل من السلام دون حدود آمنـة . وإذا أقامت اسرائيل حدوداً آمنة لها ، فإنها ستلقى الموافقة في النهـــاية . وإذا لم

يوافق الآخرون عليها لأنها آمنة ، فإنه من الأفضل لها أن تكون آمنة ، حتى لو لم يوافقوا عليهـا لعدة سنين قادمة . ولست في حاجة لأن أقول ان الحل الذي نأمل والذي نجاهد لبلوغه ، هو أن تكون هذه الحدود آمنة ومتفقاً عليها أيضاً.

إن اسرائيل لا تستطيع أن تبقى إلى ما لا نهاية انتظاراً لرسم حدود أمنها ، وكأنها مجرد وكيل عن الدول العربيـة في إدارة هذه المناطق . ونظراً لازدياد التهديدات العربيـة وتدهور الموقف على الحدود باستمرار ، فإنه من حق اسرائيل ـ وبالتأكيد من واجبها ـ أن تقيم مستعمرات ومواقع أمن في مناطق الحدود التي لها أهمية من ناحيـة الأمن ، وأن تتخذ بنفسها ما تراه من القرارات بشأن الأمور السياسيـة المتعلقة بذلك . إن مثل هذه الحقائق الثابتة ـ فضلاً عن قيمتهـا الأساسية لأمن اسرائيل ـ ستساهم بنصيبها في النضال السياسي من أجل حدود سياسية دائمة ، لأنها تبين للعرب ، أن الوقت في هذا المجال ، كما في غيره ، ليس بالضرورة في صفهم . ومع ذلك فإن استراتيجية « خلق الحقائق » هذه يجب أن ترسم بشكل يسمح بترك أكثر من خيار في وسائل تحقيق الصلح ، بينما تحقق لاسرائيل الحدود الآمنة الضرورية .

ان رغبة اسرائيل في إقامة حدود استراتيجية مختلفة عن خطوط الهدنة قبل عام ١٩٦٧ قد يساء فهمها ، بل وقد تلقى

المعارضة ، من بعض أعضاء العائلة الدولية ، بما فيهم بعض الأصدقـــاء . ومع ذلك ، فإن المعرض للخطر ، هو أمن اسرائيل ، أي صميم وجودها . ولذا فإنه يبدو لي ان على اسرائيل إلا تتراجع أمام أي مطالبة أو ضغوط دولية ، بينما تبذل كل جهد لشرح موقفها واحتياجاتها . وعلى أية حال ، فإن اسرائيل رغم ما لها من أصدقاء ، ليس لها معاهدة معونة متبادلة مع أي دولة .. لقد تُركت تحارب حرب الأيام الستة وحدها ، دون معاونة . وعلى ذلك ، فإنه إذا كان لاسرائيل ان تختار بين الانسحاب إلى خطوط الهدنـــة القديمة تحقيقاً لمكاسب سياسية قصيرة المدى ؛ أو إقامة حدود جديدة آمنة ـ ولو بقرار منفرد منهـــا ـ على حساب بعض التعقيدات السياسية ، فإنها يجب أن تفضل الخيار الثاني . ان الصعوبات السياسية ـ كما قد نأمل ـ ستزول في النهاية ، ولكن قدرة الدفاع عن النفس هي وحدها التي تضمن بقاء اسرائيل .

إن نزع سلاح بعض المناطق الهامة استراتيجياً قد يساعد بالتأكيد على حل المشكلة ، ولكن إلى حد محدود للغاية . إن تجارب الماضي مع المناطق المنزوعة السلاح لا توحي بالثقـة في هذه الوسيلة لإعطاء دولة مهددة شعوراً بالأمن . ويكفي أن نشير إلى المنطقة المنزوعة السلاح على نهر الراين بـين الحربين العالميتين ، أو تلك التي في فيتنام ، أو المنـاطق المجردة التي

فصلت بين اسرائيل وجيرانها العرب لتسعة عشر عامـــاً ، ليتضح لنا لماذا ترفض اسرائيل رفضاً باتاً هذه الوسيلة كعنصر وحيد في تسوية أمن . ومن ناحية أخرى ، فإنــه ليس هناك مبرر لرفض الفكرة التي تقول بأنــه في أي تسوية أمن شاملة تقوم أساساً على نزع سلاح الحدود الاستراتيجية ، يجب نزع سلاح عدة مناطق .. بشرط أن تكون هناك رقابة موثوق بها على نزع سلاح هذه المناطق ، وأن يقوم نظام إنذار متبادل للتحذير ضد قيام أي من الجانبين بتوزيع قواته بصورة تهدد بهجوم مفاجىء .

وبما أن أحداً لا يمكن أن يعرف كم سيمضي من السنـين قبل أن يحـــل السلام ، فإن على اسرائيل أن تقوم بتوزيع قواتها في وضع يسمح لها بالدفاع عن أرضها في حالة (لا حرب ولا سلام) تتخللها فترات متراوحة بين التوتر والهدوء . إن الوضع الحــــالي لحالة وقف إطلاق نار تنتهك من وقت لآخر، من شأنه أن يؤدي إلى زيادة الأعمال العدائية. وهكذا فإنه يدعو إلى تأهب دائم لمنع أي هجوم مفاجىء، سواء كان في شكل غارات الكوماندو، أو نشاط الإرهابيين أو قصف بالمدافع وغارات جوية ، أو بصورة حرب واسعة النطاق .. أما بعبور العدو لخطوط وقف إطلاق النار في تشكيلات كبيرة ، أو إنزال مشاة الأسطول والمظليين في الأجنحة

والمؤخرة تحت غطاء جوي كبير . ولانقاذ الاقتصاد القومي من أن يبتلعه عبء النفقات العسكرية ، فإنه من الضروري المحافظة على أكبر قدر من المرونة في توزيع القوات الاسرائيلية. وأن يقوم ذلك على أساس وجود قوات متقدمة قوية في مواقع دفاعية محصنة ، وطاقة نيران قوية ودرجة عالية من التأهب لا تتطلب قوة بشرية كبيرة ، مع تشكيلات متنقلة في العمق الجغرافي لتكون بمثابة قوة احتياطية لشن الهجمات المضادة والقيام بالعمليات . إن نظام التعبئة السريعة لقوات الاحتياط في اسرائيل يبيح لهيئة الأركان العامة أن تحتفظ بجيش قائم صغير نسبياً دون تعريض أمن البلاد للخطر .

إن حرب الأيام الستة ، التي أنقذت اسرائيل من السقوط فريسة هجوم مفاجىء ، وأدت إلى تحسن ثوري في وضعها الاستراتيجي ، لم تكن كافية مع ذلك لوضع حد لحرب الرعب والتخريب وإطلاق النار عبر خطوط وقف إطلاق النار . لقد ظلت المنظمات الفدائية تمارس نشاطها قبل سنوات من حرب يونيو ، وساهمت دون شك في التصعيد الذي أدى إلى نشوبها . ومنذ انتصار اسرائيل في عام ١٩٦٧ ، وهذه المنظمات تلقى دفعاً جديداً وتأييداً أكثر صراحة من الدول العربية . ولقد أعلنوا أن هدفهم الأول هو القضاء على دولة اسرائيل . وقد لا يكون من المعروف ما إذا كانوا

واقعين حقاً تحت أي وهم بالنسبة لقدرتهم على تحقيق نتائج عجزت عن تحقيقها الجيوش النظامية العربية . ولكن يبدو من المؤكد أن هذه المنظمات قد وضعت لنفسها عدداً من الأهداف المتداخلة :

١ – الانتقام للهزائم السابقة .

٢ – قتل الاسرائيليين دون تمييز وتحطيم الممتلكات الاسرائيلية ، كأهداف في ذاتها .

٣ – تحطيم معنويات سكان مستعمرات الحدود ، بهدف حملهم على الانسحاب منها .

٤ – تخويف المستثمرين الأجانب والسياح ، والمهاجرين اليهود الجدد بصفة خاصة ، لمنعهم من الحضور إلى اسرائيل ، لعزلها وإعاقة نموها الاقتصادي .

٥ – شن حرب أعصاب – بكل هذه الوسائل – على أمل أن تؤدي في النهاية إلى تدمير الروح المعنوية للشعب كله .

٦ – الإبقاء على حالة الحرب بصفة دائمة منذ حرب عام ١٩٦٧ وإلى أن تكون الدول العربية مستعدة لحرب أخرى واسعة النطاق .

٧ – خلق جو في العالم العربي يجعل من الصعب على أي دولة عربية أن تعقد صلحاً مع اسرائيل .

٨ – أن تغدو هذه المنظمات عاملاً بارزاً في السياسات العربية الداخلية ، سواء داخل الدول العربية أو في المظمات السياسيه العربية (الجامعة العربية .. الخ) .

٩ – بناء كيان فلسطيني متطلع إلى التحرر الوطني ، بالحرب وبخلق أسطوره بطولية .

إن هذا الكتاب ليس مكان مناقشة وافية لما يعرف باسم « الكيان الفلسطيني » . ولكني أستطيع أن أشير إلى بعض النقط البارزة . وكبداية أقول : إنه لم يوجد قط مثل هذا الكيان كوحدة قومية متميزة . وعلى العكس ، فإن سكان فلسطين العرب كانوا يعتبرون أنفسهم ، طوال الحكم العثماني والانتداب البريطاني ، جزءاً لا يتجزأ من الشعب العربي ككل ، مع روابط خاصة بسوريا . وفي تلك الأيام كانت الحركة القومية العربية نفسها تعرف فلسطين بأنها « سوريا الجنوبية » . وعندما قررت الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ تقسيم فلسطين إلى دولتين ، لم يعثر على أي كيان فلسطيني يصلح أساساً للدولة العربية الجديدة .. أو حق لرفض الاعتراف بالدولة اليهودية وإعلان الحرب عليها مع الدول العربية الأخرى . ومع ذلك فإنه يمكن أن يقال ان كياناً عنصرياً ككيان السكان العرب في فلسطين(يمكن) أن يتشكل كوحدة وطنية . وفي التاريخ الحديث حالات كثيرة لقبائل أو مجموعات ضخمة من المهاجرين ، أضحت أمماً جديدة* .

* – لا حاجة للتعليق على هذا التزوير التاريخي والجغرافي .

وعلى أي حال ، فإن وجود أو عدم وجود كيان فلسطيني ، مسألة لا يقررها إلا الشعب المعني وحده . إن كياناً قومياً أصيلاً لا يعتمد على اعتراف خارجي به. إن مثل هذا الكيان ، إما أن يكون –سواء بوضع قانوني أو بدونه– أو لا يكون ؛ وإذا كان هناك كيان فلسطيني ، فليس ثمة ما يمنع من ظهوره . وإذا كان الفلسطينيون العرب يتطلعون إلى ممارسة حق تقرير المصير القومي ، فإنه من الممكن تحقيق ذلك في الضفة الشرقيـــة للأردن . لقد كانت يوماً جزءاً لا يتجزأ من فلسطين ، ولم تقتطع منها إلا بقرار من الحكومـة البريطانية في أوائل العشرينات . وهذه الضفة الغربيـة تضم الآن – إلى جانب سكانها الأصليين الذين كانوا قسماً من عرب فلسطين غير المجزأة– ما يقرب من نفس عدد العرب المهاجرين أو اللاجئين (مرة أخرى) من غربي فلسطين . إن أمـــة فلسطينية – إذا كان لها وجود – يمكن على ذلك أن تنشأ في شرق الأردن كدولة ملكية أو جمهورية ، بصرف النظر عن دعاواها ضد اسرائيل . إن إقامة مثل هذا الكيان القومي لا تستوجب أي حرب رعب ضد اسرائيل ، إنها مسألة قرار عربي داخلي .

ورغم أن بعض أعضاء المنظمات الفدائية يمكن أن تنسب لهم الدوافع الوطنية والشجاعة الشخصية ،فإنه ليس من حق هذه

المنظمات أن تحمل اسم حركة المقاومة الوطنية . أولاً لأنه من الحقائق الثابتة إنها لا تتلقى أوامرها من الشعب الذي تدعي انها تعمل على تحريره ؛ إن هدفهـــا ليس التحرير ولكن السيطرة . إن ما لدينا هنا ليس شعباً له جيش عصـابات ، ولكن منظمات مشتتة تبحث عن شعب تتبناه . ثانياً لأنهم يستخدمون وسائل إجرامية في الحرب تنبذها حركات التحرير الوطني الأصلية . . كما نبذتها الهاجاناه عندما كانت تحارب دولة الانتداب في وسط الأربعينات . وثالثاً لأنها تحاول خلق أمة بتحطيم أمة أخرى . إن واجب قوات الدفاع الاسرائيليــة إزاء الفدائيين واضح . إن مهمتهـــا – مع الفروع الأخرى لقوات الأمن – هي حماية خطوط وقف إطلاق النار والأهالي الذين يقيمون داخلها سواء كانوا عرباً أو يهوداً ، ضد الهجمات الارهابية والتخريب والضرب بالقنابل عبر الحدود. وباستخدام مزيج مناسب من العوائق الصناعية في أجزاء من هذه الخطوط ووسائل الكشف العلمية ، يمكن تقليل عمليات النفـــاذ إلى الأراضي التي تحتلها اسرائيل إلى الحد الأدنى . وكذلك فإن الدفاع الايجابي على جانبي هذه الخطوط ، كلما دعت الحاجـة لذلك ، يمكن أن يؤدي إلى المزيد من تقليل فاعلية المنظمات الفدائية .

ولقد كان للفدائيين قدر ضئيل من النجاح. لقد نجحوا بين وقت وآخر في القتل وتحطيم الممتلكات وفرض أعباء إضافية

على اسرائيـــل . ومع ذلك ، فإن مستعمرات الحدود الاسرائيلية لم تكن قط أكثر استقراراً مما هي الآن . لم تهجر مستعمرة واحدة .. وبالطبع أنشأت مستعمرات جديدة على الحدود منذ يونيـــو ١٩٦٧ . إن الرمز الوطني للبطولة في اسرائيل اليوم هو الأم التي ترفض ترك مستعمرتها الواقعة على الحدود وتربي أطفالها على مرمى نيران الأسلحة الخفيفة وقنابل المدفعية ، في المنطقة الشائكة بين غرفة نوم الطفل أو فصله المدرسي والمخبأ . وبالنسبة للحياة الاقتصادية للبلاد .. فإنها لم تدمر على الإطلاق نتيجة للنشاط الإرهابي ، وعلى العكس من ذلك فقد ازدادت الاستثمارات الأجنبية وازداد عدد السياح وزادت الهجرة اليهودية زيادة كبيرة بالفعل ، وحققت أرقاماً قياسية خلال هذه الفترة. إن النجاح الحقيقي الوحيد للمنظمات الفدائية كان سياسياً .. لقد استطاعوا جذب انتباه قدر معين من الرأي العام العالمي ، وأصبحوا إلى درجة معينة قوة في السياسة العربية . ويبدو انهم في بعض البلاد العربية مشكلة بالنسبة لنظام الحكم فيها أكثر منهم مشكلة بالنسبة لاسرائيل.

ومن الإنصاف أن نقول إنه حتى وقت كتابة هذا الكتاب، نجحت قوات الأمن الاسرائيلية نجاحاً باهراً في احتواء النشاط الارهابي . ومع ذلك ، فإنه من طبيعة الارهاب — وخاصة عندما يتلقى معونة خارجية — أن يشتعل بين وقت وآخر ،

رغم ما يكون قد تكبده من هزائم قـاسية ورغم فشله في تحقيق أي شيء . ولذا فإنه من الممكن أن نتوقع أن تستمر حرب الارهاب والتخريب وضرب القنابل طالما استمر الوضع الحالي . ولما كانت المنظمات الفدائية ترابط وتتدرب في الدول العربية وكثيراً ما تتلقى المعونة من جيوشها النظامية ، فإنـه ليس أمـــام اسرائيل خيار سوى أن تلقي مسئولية النشاط الإرهابي على الدول المضيفة أيضاً .

إن حق اسرائيل الأدبي وقدرة قواتهـــا على شن هجوم إجهاضي مضاد لا يزال لهما أهمية أولى . ولكن هذه الضربـة الآن ليس لها الأهمية الكبرى التي كانت لها قبل يونيو ١٩٦٧ ، وبخاصة في مناطق كثيرة على طول مختلف الجبهات ، وللقوات البرية بالذات . وهناك بطبيعة الحال مناطق كثيرة (سأمتنع لأسباب واضحة عن تعيينها) يحسن أن يترك العدو يهاجم فيها أولاً ، وبذلك يعرض نفسه لأكثف نيران المدفعية والقذائف المضادة للدبابات ، قبل أن تبدأ القوات الاسرائيلية هجومهـا المضاد . ومع ذلك فإنه في مناطق أخرى لا مانع – وأحياناً يكون من الضروري – أن تقوم القوات الاسرائيليـة بهجوم مضاد إجهاضي ، وفق ما تقرره الضرورات الاستراتيجيـــة والظروف السياسية . ومن أن نتذكر انه في ظل الوضع الجديد الذي خلقته حرب الأيام الستة أصبحت بعض المناطق الحيوية

بالدول العربية مفتوحة بشكل كبير أمام اسرائيل .. وهي حقيقة تفتح أمام دفاع اسرائيل الايجابي إمكانيات كبرى لوضع استراتيجيتها وفقاً لاحتياجاتها إذا تطور الموقف الحالي إلى مواجهة شاملة . وبالنسبة للقوات الجوية فإن حق اسرائيل وقدرتها على توجيه الضربة الإجهاضية المضادة لا يزال لها أهمية حيوية . وعليها الآن أن تأخذ بعين الاعتبار احتمال هجوم صاروخي من البر أو البحر ، وتستعد لمثل ذلك .

وفي رأيي ، أن اسرائيل في مواقف معينة ، سيكون من حقها – بل وقد تكون مرغمة – أن تبحث ضرورة عبور خطوط وقف إطلاق النار ، سواء في هجمات مضادة إجهاضية محدودة النطاق أو واسعة النطاق .. في غارات قصيرة أو عمليات واسعة . وهذه هي المواقف الرئيسية :

١ – في حالة أي هجوم ، محلي أو عام ؛ أو حشد قوات العدو استعداداً لهجوم ؛ أو إذا اكتشف أن العدو يعد بنشاط لهجوم واسع بالطائرات أو الصواريخ على أهداف اسرائيل الحيوية .

٢ – بغرض سحق حرب الإرهاب التي تدار من قواعد عبر خطوط وقف إطلاق النار ، عندما يبدو من المستحيل وقفها بوسائل محدودة أكثر .

٣ – في حالة تعرض العدو للملاحة الاسرائيلية في أعـالي البحار أو في المضايق والممرات ، مثل باب المندب في أقصى الطرف الجنوبي للبحر الأحمر .

٤ – لمد يد المساعدة للحلفـاء ، العلنيين أو غير العلنيين (الموجودين والمحتملين) في دولة عربية أو أخرى .

٥ – في حالة تغير (الوضع الراهن) في دولة مجـاورة لاسرائيل بشكل مهدد لاسرائيل بصورة قاطعة .

وبالنسبة للنقطة الأخيرة ، يجب أن أقول انني من حيث المبدأ ضد التدخل في السياسة الداخلية للدول الأخرى ، حتى لو كانت هذه الدولة في حـالة حرب مع اسرائيل .. كما هي البلاد العربية جميعاً منذ عام ١٩٤٨ . إنني أنكر على أي دولة الحق في بدء الحرب ، حتى ولو كان ذلك لفرض السلام، لأنني أعتقد أن القوة العسكرية يجب ألا تستخدم سوى للدفاع عن النفس . ومع ذلك فإنه في الموقف المعقد للشرق الأوسط غير المستقر ، قد تحدث تغيـيرات كبرى في (الوضع الراهن) الشائك يكون لها دلالات استراتيجية حيوية . وفي مثل هذه الحالة .. أي عندما يؤدي تغيير في (الوضع الراهن) إلى تهديد أكيد وحقيقي لأمن اسرائيل ، فإن خطوة عسكرية اسرائيلية للأمة تكون مبررة تماماً .

إن المهام الجديدة التي أشرت إليها تقتضي المزيد من تطوير

قوات الدفاع الاسرائيلية . ولأسباب واضحة مرة أخرى ، لا أستطيع تناول هذا الموضوع إلا بصورة عامة جداً . فإلى جانب توزيع التشكيلات المدرعة بصورة دفاعية في العمق ، يجب تدعيمها بجيل جديد من الدبابات. ويجب استكمال مكننة قوات المشاة، أي جعل المشاة كلها راكبة وزيادة قوة المدفعية المتحركة . كما يجب تقوية سلاح المظليين وتحسين وسائل نقلهم إلى مسافات بعيدة. ويجب تزويد التشكيلات الهندسية بجميع المعدات اللازمة لها ، لعبور الموانع المـــائية واجتياز حقول الألغام واقتحام التحصينات ؛ وأن تبلغ خدمـــات الصيانة وأجهزة خدمة الجيش درجة الكمال .. وأن تتوائم جميع أسلحة الجيش مع الأساليب القتالية للسبعينات . أما القوات الجوية فيجب أن تبقى قوة تكتيكية أساساً . ولكنهـا مع ذلك ، يجب أن تزيد من مدى فاعليتها بحيث تكون قـادرة على مهاجمة الأهداف البرية والبحرية والجوية وحماية ملاحـــة اسرائيل وطيرانها . وبالإضافة إلى هذه المهام المعتادة . يجب أن ينمي الطيار الاسرائيلي قدراته على الهجوم المفـــاجىء والقتال بالليل وبالنهار لأنه يمكن افتراض أن العدو قـد تعلم شيئاً من دروس عام ١٩٦٧. ويجب إعطاء اهتمام خاص للدفاع المضاد للطائرات وحماية الطائرات على الأرض . كذلك من الضروري توسيع طاقة النقل لدى السلاح الجوي بتزويدهـا بالعديد من طائرات النقل والهيلوكبتر ، لنقل الجنود ومواد القتال الثقيلة نسبياً .

إن المهمة الأساسية للأسطول هي منع نزول قوات العدو على شواطىء اسرائيل . ولكنه يجب أن يكون قادراً أيضاً – بالتعاون مع القوات الجوية – على حماية سواحل البلاد من ضرب القنابل والصواريخ الموجهة إلى مدنها . ويجب أن ينمي قدرته على مهاجمة الأهداف الحساسة على سواحل العدو. إن القوات البحرية لا تستطيع ، لأسباب اقتصادية ، أن تقوم على السفن الضخمة والغالية ... وهي ليست في حاجة إلى ذلك . إن الزوارق الخفيفة السريعة القادرة على المناورة والمزودة بالمدافع والصواريخ ، بالإضافة إلى عدد من الغواصات الحديثة وبعض وحدات الكوماندوز البحرية العالية المهارة... تحل معظم مشاكل الدفاع البحري . وفضلاً عن ذلك ، أعتقد أنه يجب إعطاء عدد من أفضل التشكيلات البرية تدريباً إضافياً على العمل كمشاة أسطول ، لكي يكون من الممكن إنزال قوات كبيرة نسبياً على شواطىء العدو ، سواء كجزء من هجوم كبير ، أو كعملية تحويل انتباه بعيدة المدى .

وكذلك فإن الدفاع الاقليمي عن البلاد يجب تدعيمه ، بحيث تكون له القدرة على التعامل مع النشاط الإرهابي المعادي (الذي قد يقترن بحرب نظامية في المستقبل) ؛ وأن يحول دون أي توغل محلي لقوات محدودة عبر خطوط وقف إطلاق النار . ومن الضروري أيضاً تحسين ترتيبات الدفاع المدني وتنظيم المواطنين في المؤخرة لمواجهة أي طارىء .

وبالنسبة للحرب النووية ، فإنني أستطيع فقط أن أردد ما قلته من قبل . إن دخول الأسلحة النووية – الاستراتيجية أو التكتيكية – في الشرق الأوسط ، يجب تجنبه وإلى الأبد إن أمكن ، على أساس التبادل . وفي الوقت ذاته ، يجب على اسرائيل أن تحتفظ بقدرات تكنولوجية نووية في مرحلة بالغة التقدم ؛ إنه لا يمكنها أن تسمح لنفسها بأن تؤخذ بالمفاجأة في مثل هذا الشأن ، الذي هو أقتل الأخطار . كما أعتقد إنه يجب بذل جهود خاصة بصورة متبادلة لاستبعاد الأسلحة الكيماوية والبيلوجية من ترسانات الشرق الأوسط . ولكن اسرائيل، مرة أخرى ، يجب أن تكون على استعداد لمواجهة احتمال استخدام العدو لهذه الوسائل الرهيبة للحرب .

وباختصار .. فإن قوات الدفاع الاسرائيلية ، دون أي تغيير جوهري في نظريتها ، يجب أن تزود نفسها بالأسلحة الحديثة ، وأن توزع قوتها وفقاً للظروف الاستراتيجية التي خلقتها المناطق الجديدة ونقط الضعف في توزيع العدو لقواته. إن هدف هذه القوات الصريح والمعلن هو ردع العدو عن بدء حرب جديدة ، إذا قامت الحرب رغم ذلك ، تضمن النصر لاسرائيل بأكبر قدر من السرعة والكفاءة مع أقل قدر من الخسائر .

ومع ذلك ، فإن الرادع العسكري ليس هو الطريق الوحيد أو حتى الرئيسي لحفظ السلام . فبدون قوة اسرائيل الرادعة ، لن يمكن تجنب الحرب ، وبدون قدرتها على كسب

الحرب ، فانها قد تهزم في المعركة ؛ والهزيمة قد تعني نهـــاية الوجود القومي للشعب اليهودي . وهكذا ، فإنـه لتحقيق السلام ، يجب إخراج الأمـل الكاذب في النصر من رؤوس العرب مرة وإلى الأبد . واعتقد انه من أجل هذا الهدف ، يجب أن توجه جهود فعالة واسعة التصور وعملية ، من جانب اسرائيل نفسها وجميع أعضاء المنظمة العالمية الذين يتطلعون إلى السلام في الشرق الأوسط .

إنني أعترف بأن الصلح مع اسرائيل قد يكون بالنسبـة للزعماء العرب ، لأسباب سيكولوجية وعاطفية ، مهمة غير عادية . ومع ذلك فقد تكون أعظم إنجازاتهم .. فماذا يمكن أن يكون أعظم من التغلب على الكبرياء ، من أجـــل هدف كبير كالسلام . إنني أعتقد أن المجتمعات العربية لا تقل حاجة للسلام عن اسرائيل .. فالسلام بالنسبة لهم ، كما هو بالنسبة لاسرائيل ، هو وحده الذي يضمن التقـدم الاجتماعي ويؤمن الاستقلال القومي . وفي الحرب يوجد دائماً غـــالب ومغلوب ؛ أما في السلام العادل ، فإن الطرفين ينتصران . ولقد آن الأوان بكل تأكيد لاسرائيل والدول العربيـــة ، لكي ينتصرا معـــاً بعقد صلح حقيقي .. صلح مع الأمن لاسرائيل ، وصلح مع الشرف للدول العربية * .

---

* -- ان السلام الذي تريده اسرائيل حسب أوراقهـــا المكشوفة هو الاستسلام ، وهو الأمر الذي ترفضه الأمة العربية وكل قياداتها .

هوامش الفصول*

الفصل الأول

(١) الهاجاناه (الكلمة العبرية للدفاع) هو اسم المنظمة السرية للدفاع عن النفس للمجتمع اليهودي في فلسطين أيام الانتداب البريطاني ، وكانت تحت اشراف المؤسسات القومية المنتخبة للحركة الصهيونية .

(٢) كان أكثر من نصف السكان اليهود الذين يقدرون بحوالي ٢٤ ألفاً يعيشون في القدس ، وجميع الباقين تقريبـاً يعيشون في الخليل وصفد وطبرية ويافا وعكا .

(٣) وعد بلفور (١٩١٧) هو التصريح الشهير الذي أصدره مجلس وزراء لويد جورج أثناء الحرب ، والذي أعلن فيه « تعاطف الحكومة البريطانية مع الآمال اليهودية الصهيونية » كما أعلن صراحة ان « حكومة جلالة الملك تنظر بعين التأييد إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وانها ستبذل أفضل مساعيها لتيسير تحقيق هذا الهدف » . وقد كان الفضل الرئيسي في الحصول على هذا الوعد للدكتور حاييم وايزمان الذي بذل جهوداً دبلوماسية ضخمة لتحقيق هذا الهدف.وقد وجه الخطاب

---

*ـكل الهوامش المصحوبة بنجوم هي من تعليق المترجم ، وأما الهوامش المرقمة فهي من وضع المؤلف .

المتضمن هذا التصريح إلى اللورد روتشيلد في الثـاني من نوفمبر ١٩١٧ . وقد كتبه آرثر بلفور وزير الخارجية البريطانية وقتئذ الذي لعب دوراً كبيراً في الحصول على موافقة الحكومة الائتلافية على تأييد قيام وطن قومي لليهود في فلسطين .

(٤) (نيلي) هي الحروف الاولى للكلمات العبرية لشعار هذه المنظمة التي أقامها جماعة من المستوطنين اليهود الأوائل ومعظمهم من الشبـــاب . والشعار يقول « مجد اسرائيل لن يخبو » .

(٥) قاد الأمير فيصل (الذي أصبح بعد ذلك الملك فيصل ملك العراق) مـــع لورانس الثورة العربية ضد الأتراك . وبوصفه وريث عرش والده للشريف حسين ملك الحجاز الذي كان في ذلك الوقت زعيم القومية العربية والمتحدث باسمهـــا ، قام الأمير فيصل بتمثيل العرب في مؤتمر الصلح في باريس عـــام ١٩١٩ . وقد أيد وعد بلفور وأعرب عن التعاطف مع الصهيونية وقبل الانتداب البريطـــاني على فلسطين على أساس ان العرب سيحصلون على استقلالهم في بقية الشرق الأوسط .

(٦) على أثر « مذبحة الخليل » عام ١٩٠٩ التي قتل فيها ٥٩ نشرت صحيفة « تايمز » اللندنية التقرير التالي لشاهد عيان :

الجمعة ، ٣٠ أغسطس ، ١٩٢٩ : كان أول بيت يهاجم، منزل يهودي كبير يقع على الطريق الرئيسي ، وقد أوصد سكانه الأبواب عليهم. ولسبب غير معروف فتحت الأبواب ليخرج منها ولدان صغيران ، ولقد قتلا على الفور . وتسبب ذلك في هياج الجمهور، فدخل المنزل وضرب وطعن سكانه جميعاً حتى الموت ، وقد حاولت قوة الشرطة المحلية السيطرة على الموقف وكانت تتكون من ضابط بريطاني وضابطين عربيين وثلاثين شرطياً عربياً. ولكن الموقف خرج من الأيدي ، وهاجمت الجماهير بيوتاً يهودية اخرى ، تضرب وتطعن سكانها من الرجال والنساء والأطفال. وأطلق رجال الشرطة النار ، ولكن الموقف لم يمكن السيطرة عليه نهائياً إلا بعد وصول ١٢ من

رجال الشرطة البريطانيين و ١٢ من رجال سلاح الطيران البريطاني من القدس .

(٧) الكيبوتز ، نوع من المستعمرات الجماعية الاولى ، تقوم على الملكية الجماعية وأسلوب جماعي للحياة . وهي تراعي مبادىء المساواة الاجتماعية المطلقة ، والمسئولية السياسية والديمقراطية المباشرة .

(٨) الموشاف ، نوع آخر من المستعمرات التعاونية الاولى.وهي تختلف عن الكيبوتز في أنها تبقى على نوع من الملكية الخاصة ، ولكنها مثلها تمارس درجة كبرى من المساعدة المتبادلة والمبادىء الجماعية .

Nehemia, IV : 17 (٩)

(١٠) غادرت « ستروما » رومانيا عام ١٩٤١ قاصدة فلسطين وعلى ظهرها ٧٦٩ مهاجراً ووصلت الى اسطنبول ولكنها اخرجت منها عندما علم انه لن يسمح لها بدخول فلسطين . وفي البحر الأسود (فبراير ١٩٤٢) غرقت السفينة ولم ينج منها سوى راكب واحد .

(١١) المسادا هي المعقل الذي احتمى به اليهود على البحر الميت بعد ثلاثة أعوام من تحطيم تيتوس لمعبد القدس عام ٧٠ ميلادية . وقد اختار الثوار اليهود المتعصبون الذين احتموا به – وكان عددهم ٩٦٠ – أن يقتلوا أنفسهم ولا يستسلمون للجيوش الرومانية التي تحاصرهم .

(١٢) في مؤتمر حزب العمال الذي عقد عام ١٩٤٥ أوضح مستر دالتون باسم اللجنة التنفيذية للحزب ، السياسة الرسمية للحزب كما يلي :

ان الحزب قد حدد موقفه وكرره كثيراً حتى ابريل الماضي بأنه فيهذا الوقت وبالنظر إلى الأهوال التي لا توصف التي نزلت باليهود في المانيا وغيرها من الدول المحتلة في اوربا ، فانه من الخطأ أدبياً كما انه مما يستحيل

تبريره وضع العراقيل على دخول فلسطين أمام أي يهودي يرغب الآن في الذهاب إليها . اننا نرى ان الهجرة اليهودية يجب أن يسمح بها دون القيود الحالية التي تعوقها ، كما اننا قد أعلنا بكل وضوح انه لا غنى عن الاتفاق الوثيق والتعاون في هذا الشأن بين الحكومات البريطانية والأمريكية والسوفيتية . وفي رأيي أنه يجب اتخاذ الخطوات بالتشاور مع هذه الحكومات لمعرفة ما إذا كنا نستطيع الحصول على هذا التأييد المشترك لسياسة سوف تعطينا دولة سعيدة وحرة ومزدهرة لليهود في فلسطين .

(١٣) بالنسبة للارهاب ، يجب إضافة إنه رغم رفضه تماماً من جانب السلطات القومية ، فإن جماعتين انفصاليتين صغيرتين سريتين قد أخذتا به ، وهاتين الجماعتين كانتا قد تحللتا من سلطة الأجهزة المنتخبة وتحدياتها ، وهما (إرجون زفاي ليومي) أي المنظمة العسكرية القومية ، وفرعها الصغير (لوهامي هيروت اسرائيل) أي المقاتلين من أجل حرية اسرائيل .

الفصل الثاني

(١) من بين الثلاث والستين سفينة مهاجرين التي أبحرت إلى فلسطين سراً بين ابريل عام ١٩٤٥ ويناير عام ١٩٤٨ تم اعتراض تسع وخمسين.

(٢) كان الاستثنـــاء الوحيد بيت هاعربا على الشاطىء الشمالي للبحر الميت . ولكن حتى في هذه الحالة الوحيدة نقل السكان فقط إلى سدوم جنوباً على البحر الميت ، التي كانت رغم عزلتهـــا أقل قرباً من الطريق الرئيسي بين عمان وجرش ، من مستعمرتهم الأصلية .

(٣) تم تحرير مدينة عكا العربية بعد يومين من انتهاء الانتداب ، ولم يتم تطهير الجليل الغربي إلا بعد ذلك ببضعة أيام ، في الثاني والعشرين من مايو عام ١٩٤٨ .

(٤) حدث هذا في الواقع قبل وقف اطلاق النار بأحد عشر يوماً، في ٣١ مايو عام ١٩٤٨ .

(٥) في عام ١٩٦٩ انشئت رتبة جديدة معادلة لبريجادير جنرال . وأصبح هنـــاك رتبة (ميجور جنرال) ورتبة (لفتنانت جنرال) التي لا تزال أرفع رتبة حتى الآن ولا يشغلها إلا رئيس هيئة الأركان .

(٦) كان السيد جاليلي آخر قائد عام للهاجاناه ، وهي وظيفة تعادل في الجيش السري منصب وزير الدفاع .

(٧) يغطي (المثلث) منطقة التلال في وسط شرق فلسطين ، ويسمى كذلك لأنه يضم المدن العربية الرئيسية الثلاث : طولكرم ونابلس وجنين.

(٨) وفقاً للنظرية العسكرية التقليدية تبدو هذه الخطة غير منطقية بتاتاً لأنهـــا تشمل خطوط مواصلات ممتدة دون مساندة كافية من المدفعية والمدرعات . ولكن في حرب متحركة قد يصبح غير المنطقي هو أكثر شيء منطقياً وذلك لأن غير المنطقي وغير المعقول هو بالتحديد غير المتوقع، وغير المتوقع من جانب العدو هو أقل ما يكون مستعداً له .

(٩) عبر المبدأ التاسع من مبادىء الحرب الاسرائيلية التســـعة عن (الشعور بالهدف) وهذه المبادىء هي :

١ -- المحافظة على الهدف واستمراره . ٢ – المبادرة . ٣ – المفاجأة.
٤ -- التركيز . ٥ – الاقتصاد في القوة . ٦ – الحماية . ٧ – التعاون.
٨ – المرونة . ٩ – الوعي بالهدف أو القضية .

(١٠) يوجد في كتـــاب روبرت هزيك (مائة ساعة إلى السويس) الصادر في لندن ١٩٥٧ تعليق حي على هـــذه النقطة . يقول المرحوم الكولونيل هزيك :

رغم ان الوحدات الاسرائيلية قد تبدو بالغة الاناقة في عرض يقـام كاحتفال، فإن خطها من النظام بالمعنى المعتاد قليل جداً . فالضباط ينادون عادة بأسمائهم الأولى بين رجالهم ، كما بين زملائهم ؛ وهناك القليل جداً من التحية العسكرية ، والكثير من الذقون غير الحليقة ؛ ولا توجد دلائل ظاهرية على احترام الرؤساء ، ولا توجد في اللغة العبرية كلمة موازية لكلمة « سير » . ان الجندي يشعر حقيقة انه مساو لضابطه – ولأي ضابط – ولكنه في المعركة يتقبل السلطة العسكرية دون مناقشة . انني لا أستطيع أن أشرح ، ولا أستطيع أن أبدأ أن أفهم ، كيف ولماذا تصلح هـذه الطريقة . ان كل خبرتي العسكرية في الجيشين البريطـاني والأمريكي قد علمتني ان نظاماً من الطراز الأول في المعركة يعتمد على وجود نظام حسن في الثكنات . ويبدو أن جيش اسرائيل يدحض هذا الدرس .

الفصل الثالث

(١) لتجنب وضع عبء غير عادل على أي رب عمل فرد ، تقرر دفع مرتبات الموظفين من قوات الاحتياط أثنـاء فترة خدمتهم العسكرية من ميزانية مركزية تحصل كضريبة على كل أصحاب الأعمال .

(٢) سيناقش موضوع الهجوم المضاد الاجهـاضي أو المسبق بتفصيل أكثر في الكتاب بعد ذلك .

(٣) في عام ١٩٥١ أصيب أو قتل ١٣٧ اسرائيلياً نتيجـة هذه التسللات ؛ وكان العدد ١٤٧ في عام ١٩٥٢ و ١٦٢ في عام ١٩٥٣ و ١٨٠ في عام ١٩٥٤ و ٢٥٨ في عام ١٩٥٥ .

(٤) تنص المادة الأولى على ما يلي : « تظل قنـاة السويس البحرية حرة ومفتوحة ، في وقت الحرب والسلم ، لجميع السفن التجارية والحربية،

دون تمييز بين جنسيتها. ونتيجة لذلك يوافق الأطراف السامون المتعاقدون على عدم التدخل بأي صورة في الاستخدام الحر للقناة ، في زمن الحرب أو زمن السلم . ويجب ألا تخضع القناة أبداً لممارسة حق الاغلاق » .

(٥) في اليوم الثاني للقتال تسلمت كل من اسرائيل ومصر إنذاراً من الحكومتين البريطانية والفرنسية ، يطالب بسحب قواتها إلى مسافة عشرة أميال من قناة السويس . وقد رفضت مصر الانذار .

الفصل الرابع

(١) بقية هذا الفصل تقوم على كتاباتي وأقوالي العديدة حول المسائل الدفاعية ، في تلك الفترة ، وبخاصة محاضرتي التي كان عنوانها (الدفاع الايجابي من أجل البقاء) التي نشرت بعد ذلك في الصحيفة العبرية ربع السنوية « مولار » والتي ألقيتها يوم ٢٢ فبراير عام ١٩٦٧ . ولقد احتفظت عن عمد بالتسلسل والتأكيدات الأصلية لحجتي لاثبات العلاقة الوثيقة بين النظرية العسكرية التي نمت في تلك الفترة وبين المسار الفعلي لحرب الأيام الستة ، التي لم تلبث أن قدمت –قبل أقل من أربعة أشهر– دليلاً لامعاً قاطعاً على الجدوى العملية للنظرية .

(٢) كانت أرقام السكان في وقت الكتابة (فبراير ١٩٦٧) كما يلي :

مصر : ٣٠،٩٠٧ مليون، سوريا: ٥،٦٠٠ م. الأردن: ٢،١٤٥ م. العراق : ٨،٤٤٠ م. لبنان: ٢،٥٢٠ م. العربية السعودية: ٦،٩٩٠ م. اليمن : ٥ م. الكويت : ٥٢٠،٠٠٠ ، الجزائر : ١٢،٥٤٠ م. ليبيا: ١،٧٢٨ م. المغرب ١٤،١٤٠ م. تونس : ٤،٥٦٠ م. السودان : ١٤،٣٥٥ م. المجموع : ١٠٩،٤٥٥ مليون . وكان عدد سكان اسرائيل اليهود : ٢،٣٥٠ مليون . أما عدد سكانها من غير اليهود (العرب الاسرائيليون ، والدروز والمسيحيون غير العرب) فكان ٣١٤،٧٠٠ .

(٣) وهذه بعض الأرقام المحققة (أيضاً في فبراير عام ١٩٦٧) :

الدولة	المساحة	نصيبها السنوي من الماء
مصر	١,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر مربع	٨٤,٠٠٠ مليون متر مكعب
العراق	٤٣٨,٠٠٠ « «	٤٠,٠٠٠ « « «
الأردن	٩٦,٦٠٠ « «	٦٨٩ « « «
لبنان	١٠,٤٠٠ « «	٣,٠٠٠ « « «
سوريا	١٨٥,٠٠٠ « «	٢٩,٠٠٠* « « «
اسرائيل	٢٠,٠٠٠ « «	١,٣٥٠ « « «

* مع استثناء نهر الفرات الذي يقدم عشرة ملايين أخرى .

فهرس